مدونة أبو عبدو

عيون المعاصرة

فؤاد التكرلي

موعد النّار

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

تقديم توفيق بكار

الرسوم للفنان يوسف عبدلكي

دار الجنوب للنشر - تونس

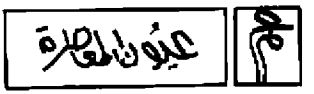

عيون المعاصرة

يدير هذه السلسلة توفيق بكار

موعد
النّار

السحب : 3.000 نسخة

الايداع القانوني في ماي 1991

المطابع الموحدة ــ المنطقة الصناعية الشرقية ــ تونس

فؤاد التكرلي

موعد النار

تقديم توفيق بكار

الرسوم للفنان يوسف عبدلكي

دار الجنوب للنشر - تونس

تنبيـــه :

في اللهجة العراقية ـــ البغدادية على الأخص ـــ ينطق القاف (ق) كما (ڤ) التونسية وتكتب كَ ـــ بخط فوق حرف (ك) ـــ فتأتي : ڤالت... كَالت وڤعد... كَعد.

أما حرف الجيم وتحته ثلاث نقاط : ج وينطق «تش» ـــ وهو لفظ غير موجود في اللهجة التونسية ـــ فيقوم محلّ (الكاف) فنقول : چان... كان، حچاية... حكاية.

المؤلـف

© 1991، دار الجنوب للنشر

79، نهج فلسطين ـــ 1002 ـــ تونس
ISBN 9973 - 703 - 15 - 4

أرض النـــار

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

«هل تعرفون للنار معنى»

(محمود المسعدي : حديث الحق والباطل)

«موعد النار» ! كان في الأصل عنوان إحدى القصص فتسمّت به المجموعة كلها في طبعتها التونسية هذه. وهو أبلغ ما قد تنعت به من العناوين إذ أنه كالنار اسما جامعا لمعاني نصوصها. فلنا معها في كل واحد منها موعد نلقاها فيه على حال من الأحوال : رصاصا يطلق وأرواحا تزهق لحقد ينفجر أو جنس يفور، أو لهبا مّا من جحيم الحياة يحرق فالنفوس منه في أوار أو تهافت وقد مضى عنها السعير أكواما هامدة من رماد. وفاتكة هذه النار في كل حال، تقتل أصحابها أو تقتل بهم غيرهم، وقد تقتلهم لتفنيهم وقد تقتلهم فلا تفنيهم وإنما هم أشباه أحياء يهيمون على وجوههم كالأشباح قد ماتت منهم نفوسهم فماتوا عن الدنيا. هذا ما تحكيه القصص وتنوّع فيه تنويعا فإن هي إلا تصاريف شتّى لمعنى النار في العراق من قبل الثورة ومن بعد.

رجل من شيعة إيران يرحل الى العراق مع صحبه لزيارة قبور أيمتهم في «الكاظمية والنجف وكربلاء». دخل الحدود متسللا بلا جواز، وعليه أن يقطع في الليل خفية نهر «ديالي» الفاصل الواصل بين الجهة والأخرى وروحه اللهفى وموقد أمانيها. تركه الرفاق قبل الجسر وحرسه وضربوا له موعدا بعده في مفترق الطرق على نار يشعلونها فيهتدي بها في الظلام إليهم ويأنس. ثم منها يسير جمعهم آمنا إلى نار المآذن تلتهب في الشمس ذهبا. ولكنه كان ولا يدري على موعد قبل الموعد مع نار أخرى غير نار الأحبّة كانت كامنة له آخر العشي في بستان دخله ليستريح قبل مغامرة العبور،

وعلى يد «وحش» من «وحوش» تلك «الأرض الغريبة» أصابته منها بطلقة شلّت رجله اليمنى. فإذا هو من أمره في بلاء ويبدأ جهاده. رغم العطب وحرق الآلام تحامل على عصاه وبرجل واحدة خاض المياه في شبه ملحمة بين البقاء والفناء. في ثلج الليل والنهر والخوف تحولت نار الجراح بردا، ولا سلام، برد الموت يتغلغل في كيانه. فيردّ على القرّ القاتل بحرّ ما فيه من جذوة الحياة، ذوب الحنين إلى «أذرعة الرفاق» والتوق الساخن إلى لقاء أرواح الأيمة. وبعد عناء شديد كمحنة «الحسين الشهيد» أدرك الضفة الأخرى وخار كالمغشي عليه في النزع الأخير وقد نزفت من جسمه حرارته مع الدم. ثم أفاق على وهج الشمس طلعت بعد ظلام ومرأى الأشباح في أعلى السفح كأنهم الرفاق قد جاؤوا. فاتقدت لهم من سقيع مهواها روحه وقطع الشوط الأخير إليهم زحفا. ولكن «أحذيتهم سوداء تلمع كنصل الخنجر» وعيونهم ترميه «بنظراتهم المميتة»، حراس الحدود يقفون على رأسه كالزبانية ومن ورائهم جهنم. إنهم نار العذاب لا نار الأصحاب. فانطفأت فيه جمرته واستسلم متدحرجا إلى هوة «العدم الأسود».

هكذا خرج يحجّ «البقاع» فإذا هو من حيث لم يحتسب يخوض القاع، قاع الآلام والموت. وكان يحركه لفح الأشواق ويهديه لهب الرفاق إلى الأتون المقدس يحبّ أن يذوب فيه ليبعث حيّا كالنار عبر النار إلى النار تسعى في مسار مشبوب ولكن دون تلك النار نارا دونها نار دونها نار، نار السلاح ونار الجراح ونار الحراس في دهاليز العذاب. والنار من الأضداد قوة بين سلب وإيجاب إن لم تحي أماتت. ولا يفيد في هذا المقام أن نعرف ما الذي قتل عبد الرضا نار الأقدار أم نار الأشرار، أجله المحتوم أم لقاؤه المشؤوم بوحش البستان. فسواء عليه وقد هلك أكان ذلك، في التأويل، قضاء من السماوات أم ضراوة من الإنسان على الإنسان أم عبثا من وجود أعمى لا يعرف خيرا من شر. في ظلام الليل وبرده أضطرمت حدود العراق بمثل صراع النار والنار. العشق والبطش، فقتلت نفس وماتت أشواق وساد العنف المكان والإنسان

ـــ الوقت ليل والجوّ بارد والغرفة موحشة والمرأة وحيدة مع صغيريها تنتظر زوجها وتتوقع منه شؤما. لقد فاجأته منذ ليال في حمّى الضراب مع زوجة أخيه يركبها كما يركب الحيوان الحيوان. فأيقنت من ساعتها بالبلية. أساءت بفضولها إلى سيادته والويل لها من صلفه. ومن عند الآخرى سيعود إليها بعد وقت بعنفه المهول. ليت أمّها باتت عندها. ألحت عليها فرفضت ولم تكن تعلم من الأمر شيئا فانصرفت وخلّتها وحدها وجها لوجه مع مصيرها المجهول. فلاذت في خلوتها من روعها بخرافة «الغراب الأبيض» تقصّها على ابنها لتنيمه وكأنها تبوح له رمزا بسرّ مأساتها من أبيه. وبعد غفوة رأت عند الباب «شبحه الداكن»، عيناه «جمرتان متوهجتان» بنار «الكبرياء القاتلة» وفي يده «الفوهة الصغيرة موجهة نحوها بإصرار». وطارت الرصاصة الأولى «فأحست بحريق هائل في صدرها». ثم كانت «دفعة أخرى من النار اللاهبة اندفعت نحوها والتهمت وجهها بوحشية». وانتهى كل شيء. في ظلام الليل وبرده نشب في بيت من بيوت العراق حريق. من وقدة الجنس انطلقت شرارته واعترضت المعترضة فاستشاط الصدر عليها غيظا وانقدح زناد السلاح فانقذفت الحمم واشتعلت المرأة. حلقات متماسكة من النيران في سلسلة جهنمية. فقتلت نفس وماتت طيبة وساد العنف المكان والإنسان.

ـــ قتل زوجة أخيه بطلقة في الرأس عند «التنور» وقد قامت إليه قبل الفجر تسجره لتعدّ الخبز. يدّعي في ما خطط من دفاع عن نفسه، وهو بهتان، أنها قد زنت مع عشيقها في غرفتها تلك الليلة وزوجها موقوف، فكان لا بدّ من غسل الشرف بالدم. فبين العار والنار في عرف البدو والجاني منهم سبب وثيق. فار الجنس فيها فزنت، وزنت فثارت فيه الحمية وتكلّم البارود على أجيج التنور فاحترقت المرأة. منطق ما بين ضدين من النيران «مدنسة» و«مطهرة» يتعلل به القاتل وبه يخادع عن الحقيقة. ولا تلبث الحقيقة أن تطلّ، أفظع وأشنع، من ثنايا الكتمان. ما خانت الزوجة تلك الليلة ولا قبلها وإنما أغرته منها بها في خلاء المكان والقوم نيام «عينان من عسل» فراودها

عن نفسها ولمّا احتجت مهددة بالفضيحة خاف عليه العار أو طلب منها الثأر فأورى عليها النار فاشتعلت... والتنور يلتهب. منه إذن بدأ السعير وفيه بسرعة نما وإلى المرأة عبر السلاح قرب التنور المتقد تناهي لهيبه. فكان في سقر ذلك البيت وظلامه نارا على نار على نار على نار، درجات متصاعدة في سلّم الاضطرام. فقتلت نفس وماتت عفّة وساد العنف المكان والإنسان.

ـــ في برد الليل تجري به السيارة مع صاحبه على الطريق المحاذية لرصيف النهر. في جوفه من العرق نار وفي فرجه من الشبق وفي رأسه من القلق، وبين أصابعه تشتعل سيجارة وتحت قدمه تغوص «عتلة البنزين» فيحترق الوقود ويفور المحرك، وأمامه اضواء السيارة تترامى كاللهيب. فالنار تأكله من الداخل ومنه تسري في الآلة وعنها تفيض إلى الخارج، خطّا متصلا من الألسنة تجتاح الأحياء والأشياء من باطن إلى ظاهر. وبنت زوجته هي السبب. أوقدت بشرارها شهوته ثم من حميم شفتيها سقته ومن حرّ كتفها أطعمته فأطمعته في نعيم الجحيم حتى إذا اشتدّ به اللواب صدّت عنه وتمنعت وازدادت له عن بعد تبرجا فتركته وما له من نارين من بدّ : فرجه وضميره، هذا يشويه يلفعه وذاك يكويه يلذعه وهو من عذابهما في لظى. وظنّ تلك الليلة أن الكحول تسكنه فكأنه قد صبّ على النار زيتا فبلغ به السعير أوجه، وما استطاع صاحبه بهموده أن يخمده ولا هبوب الهواء البارد. وفي سورة من الجنون تقاذفت السيارة فجأة وتهاوت في النهر وغارت. فانطفأت الحرائق كلها في قعر المياه المسكجة. كذلك ليالي العراق في القصص ظلمات باردة تثيرها من عنف الجنس نيران فاتكة. فقتلت نفس وماتت شهوة وساد العنف المكان والإنسان.

نفوس أربع أفنتها النار وأربع أخر تلتهب فيها وتزفر فتقتل ولا تبيد، تموت منها الأرواح وتبقى الأجساد.

ـــ ليال خمس مضت والطفل العريس في الفراش بجنب عروسه لا يعمل معها «عمل الرجل العظيم». فزع مّا قتل ناره فأعجزه. ساهر من الرعب على شعلة القنديل في الليل الممطر والريح تعصف والرعد يقصف والصواعق تنفلق نيرانا. نواذر من السماء تنبيء على الأرض بوشك كارثة. أجل قبل ساعة سمع أباه ينفث إلى أمّه سرّا بشيء كنار الشياطين. كان خطب البنت لنفسه وأباها عليه أهلها فزوّج إبنه بها لحاجة دفينة فيه... وقد غلى الآن بركانه وعمّا قليل يتفجر. وبعد نعاس فتح الفتى عينيه فإذا القنديل قد خفت لهبه وأبوه قد قام عند الفراش شبحه كأنه إبليس عليه من نار الجحيم أبارين، وبعصاه ضربه على رأسه فدوخه. وبين غشية وصحو سمع في المضجع كهدير الزوبعة، أبوه «فوق» زوجته، يرهق الفراش ويحرقه ويزهق الحق إن الحق كان زهوقا. ليلة من ألف ليلة في العراق قعقعت السماء فيها بنيرانها فجاوبتها الأرض في البيت من الجنس بنيران. فأمّا الأب فصعلوج وأمّا الابن فجثة من رماد وأمّا العروس بينهما...؟ فصُعِقت نفس وانتُهِكت حرمة وساد العنف المكان والإنسان.

ـــ «عبّود» رجل قميء، مقهور في أسرته، محقور في المحكمة، «هزأة» يعبث به الناس ولا يبالون، يعيش منطفيء النفس لا نار تحيه حتى فاجأته أمّه يوما فقالت : «أختك أجهضت» وكانت «بلهاء» ففجر بها فاجر من الجيران. ولا بدّ في حكم القوم للعرض الملوث من نار تطهره. ولكن أنى لعبود نار وقد خمدت جذوته منذ سنين ؟ «خلّصها !»، تحاول أمّه أن توقد فيه غيرته فلا تتقد، وتلحّ عليه خالته، حمّاشة جهنم، فتنفخ بلا كلال في رماده فلا يشتعل، يتهرب من المهمة المحْرقة ولا مناص له من قرار. ذهب تلك الليلة إلى «دكان توما» يقتبس من زقّوم العرق نارا ثم عاد ملتهبا إلى البيت فاستلّ الخنجر وصعد السلم إلى مخدع أخته وفرط الشراب يتعتعه حتى أضاع منه السلاح، فانقضّ عليها يضربها باليد ويضربها وما هي إلا أن طرحه السكر على الأرض جسدا خاويا يبكي شاكيا في نفس أخير : «ما

أكدر»، «لا أقدر». طارت عنه حميّا الخمر ولم يبق منها إلا رخاوتها في مفاصله. كتار التبن نار الكحول تنطفىء بأسرع ممّا اشتعلت. فعاد عبود رمادا كما كان. ونحمد للخمرة نارها المستعارة أوهنت يد السافك في آخر لحظة. ليلة أخرى من ليالي العراق أوشك فيها أن يندلع في البيت من الجنس حريق فتقتل نفس وتموت براءة... وساد العنف المكان والإنسان.

ــ هي قصته قد خطتها «سطورا من نار»، نار الجحيم العائلي الذي يصطلي عذابه. متروك هو لنفسه. طفلا لا يدفئه حنو من أمّه ولا من أبيه. يعيش كالمقرور طول النهار ولا نار إلا نار الشجار آخر الليل بين والديه. قد برد ما كان بينهما من حبّ. فذهب الغرام وجاء الخصام وحلّت نار محلّ نار بديلا منها وضدّا لها. وما أكثر ما تتبادل النار أدوارها من خير وشرّ !. وما اندلاع الخلاف بين الزوجين إلا من إيقاد الملاهي. يسهر كلاهما على حدة خارج البيت سادرا من جمر إلى جمر، من خمر إلى قمر، يأخذ من ذي وهذا ما به يذيب جليد حياته الزوجية. فللسكر سخته وللنرد وطيس. «وحياتك كماء الحياة تشربها» هكذا يتحسّر الشاعر الفرنسي «أبولنار» على حاله بعد ضياع الحبّ. [1]. وحياتهما كماء الحياة يشربانها عرقا محرقا وفي أتون الميسر يلعبانها لعلهما يستردان منها بعض الذي خسرا. ثم يعودان إلى البيت كل من جهته فيحتدم بينهما العراك إلى حدّ الضرب والطفل أمامهما يتقلّى. ولا من علّة إلّا المال. أما قال قديما أبو عبد الرحمن الثوري، من بخلاء الجاحظ، مرددا قول أبي الأعلى القاصّ : «وتأويل الدينار «يدني من النار»». نار الكؤوس على نار موائد الرهان. فمن بطر الثراء أفلس زواجهما وربّ ترف للحبّ متلفة. وجاء الطلاق فكان الفراق وكفّ الحريق بينهما وظلّ الطفل مع أبيه، ومن أمّه بين ثلج ونار، يُسْفِعُهُ برد الوحشة منها ويسلقه الشوق إليها بأوار. وليالي العراق حبالى يلدن كل فجيعة.

ــ سطا عليه اللصوص في فراشه ليلا. وكان لا يزال يافعا وكانوا ملثمين فلم ير من وجوههم إلّا «عيونهم تلمع» ببريق نار كامنة يمكن في كل حين

ان تشتعل فتقتل. فجمد فيه من شدّة الخوف دمه وما فارت له «كرامة». قادوه إلى غرفة أمّه فأوثقوه وكمّوه وهي أمامه في مثل حاله يلهب الصفع خديها فتنشج من حرقة القهر. فازداد فيه على مرآها رعبه وبقدر الرعب بردت قوائمه وعزائمه. لا منقذ لهم إلّا الأب. وهو في سهرته الأسبوعية تلك الليلة بين حانة وأخرى وبعد ساعة يعود. وعاد فاتقدت الآمال ولكنها كاذبة كنار ما في بطن الرجل من الكحول. خبطوها فسقط «مثل كيس مليء بالقش»، هشيما متهافتا قد انتهت شعلته. فانطفأت الآمال. ولكن من تحت سرير الأمّ تشع عينان بنار المقاومة، أخوه الأصغر يختبيء وفي غفلة من اللصوص يتسلّل إليه فيفكّ عن فمه عصابته ويحدثه همسا عن «مسدس أبيهما وعن البوتاز والمتفجرات الأخرى» في الطابق الأعلى، فيبث فيه من وقدة حماسه ما أحيا جذوته. وإذ يصرخ لتلهية اللصوص يصعد الصغير إلى فوق وبعد حين يسمع «الانفجار» وبعده «الانفجار الثاني» وتتوالى في الفضاء الطلقات. نار ساخنة تردّ على النار الكامنة وفرّ «الأوغاد». والمال مرة أخرى هو المسؤول. وهج «المجوهرات» أشعل في اللصوص شراهة النهب فتسرّبت معهم النار إلى البيت باردة حامية تهدد بالحريق. وتخاذلت لها في الأكبر نار الخمرة السراب فهبّت لها في الأصغر نار الشجاعة الصدق. فأجاب العنف على العنف نفيا للنار بالنار. في شرعة الكاسيين وسراقهم. ولا يكفّ عن ليالي العراق في القصص عنف النار من مال بعد حقد وجنس.

وثلاث نفوس أخيرة أتت عليها النار من أمد ثم ذهبت فتركتها هباء من رماد وعبثا تحاول أن تنبعث من مواتها رفاتها.

ــ ركبت القطار من بغداد في الليل البارد. «كَحبة» هي ومعها قهرمانتها الشمطاء. وعلى حرق نظرات بعض الرجال من الركاب عاد بها الذهن إلى أولهم. «اغتصبها وهي مغمى عليها» في غربته بالمسجد بعد شبه زواج. ولم

تكن إلا صبية «عجفاء» الجسم من أثر المرض. أطفأها ليشتعل بها لحظة. ثم تلاقفها بعده رجال ورجال فكانوا يشتعلون وتنطفيء حتى تركوها رمادا على رماد وآل أمرها إلى الدعارة فدخلت حياتها فصلا من الجليد ماله نهاية. يأتيها الزبائن فيصعد بها الواحد منهم إلى الغرفة ليقذف فيها من سعيره فلا تردّ على لهيبه بمثله من اللهيب. فليس لهم منها أبدا إلا الجسد باردا وأمّا الروح فتفقد عليهم حقدا كظيما. تكرههم وتلك نارها الوحيدة عليها تحيا متطهرة بها من رجسهم في شتاء الماخور الدائم. ويوشك القطار أن يمرّ «ببعقوبة». ومن «بعقوبة» في نفسها وجد قديم يعودها كلما هبت الذكرى. لم تكن تعلم عن ذلك الشاب إلّا قليلا. كان يزورها مع خلانها ولا يدخل بها الفراش، يظل معها في البهو يتغزل بجمال «عينيها الخضراوين» ويحدثها بما لم تسمع قط بمثله من أفواه الرجال. ردّ إليها إنسانيتها فأحست بشيء يجرى فيها ساخنا كالهوى واشتعلت رأسها بالآمال. قد كفّر هذا الرجل لديها عن سيئات الرجال فإنقلب معنى النار فيها من ضدّ إلى ضدّ، من حقد إلى عشق، ولكن أنّى لها الحبّ والحلم وأصحابه يمتهنون جسدها أمامه في كلّ قدمة ؟ بين أمانيها الحرّى وزمهرير الخناء تناقض لا يطاق. وسخطت عليه يوما وصراعها في قمته فطردته من المبغى ومن نفسها. فلم يكن بغضا له بل صورة من الحبّ في سورة من الغضب. فما تغيرت نارها منه وإنما اختلف التعبير عنها من ظاهر إلى باطن. فذهب الرّجل بدون رجعة وبقي منه في صدرها جوى كَخَبِيّ الجُذَى يذكيه طيفه من حين لحين. في ظلام الليل وبرده توهج في قلب عاهرة من تحت الرماد جمر وتلألأ كما تلألأ في قلب قَينة الدوعاجي ذلك «الركن النير». ولم يكن إلا لحظة عابرة من النار المحيية تدفأت بها امرأة من بردها في مجتمع الرجال.

ــ السماء ممطرة ذلك العشي. صعد الحافلة مبللا وما لبث أن أحسّ بعينين «كالجمرتين» تقعان عليه : زوجته السابقة بين الركاب. وكان طلقها وسافر عنها إلى فرنسا فصحب بها إمرأة غيرها. وها هو يعود إلى بغداد

فيلقاها ههنا على غير ميعاد. بينهما قصة قديمة لا تختلف عن مألوف الحياة. شبّ حبّ واضطرم ثم مع الأيام تخافت حتى انطفأ فبرد الحسّ بينهما ولم يعد من نار إلا جحيم الخلاف ومات طفلهما ففارقها ولم يجد عند الأخرى بباريس من قرّه دفئا، فما انقدحت بينهما عاطفة مشبوبة ولا شدهما عناق محموم. ظلت غريبة عنه وعنها ظلّ غريبا وعاد كما أبدأ والبرد أبرد ونفسه من المكان أشدّ ما تكون وحشة ومن الناس ونفسه. وبينما يتفرس في وجه زوجته يقرأ ما عليه من آثار الزمان، نبش في رماده عن شيء من ناره الأولى لعله يلاقي ببعض الجمر ما قد شعّ في عينيها من باقي جمرها فيحيا ما كان بينهما من عواطف. ولكنها تنزل ولا ينزل معها ثم ينزل بعدها فيطلبها ولا يجدها. راحت عنه وراح. في رذاذ المساء همت نار قديمة بين رجل وامرأة أن تنبعث من مرقدها، فلاح لها في الجوّ الكئيب بريق وتلاشى، فتهاوت فيه وفيها رمادا يعلوه من السماء رمادا.

ــ ذاهب ذلك العشي إلى بيت «ماجدة»، بنت أخيه، ليحتفل مع زوجها والمدعوين بعيد ميلادها، وبيده هديته إليها : كتاب في الفلسفة. والفلسفة فتنته وكانت منها فيما مضى محنته مع زوجته وقد طلقها والآن يذكرها وهو يسير. لقد بدأ كل شيء بينهما ساخنا وكانت حارة الطبع. من أول مصافحة سرت في يده نارها ثم من اليد إلى القلب ومنه إلى كامل الجسد. فبادلها لهبا بلهب وتزوجا فكان الفراش يتقد في كل مرّة للقائهما. ولكنه مثقف يحبّ أن يرقى بعلاقتهما إلى علياء الفكر فتتطلع زوجته معه إلى «الأفق القصي»، ولا تريد لها غيره أفقا. تقبل عليه بكيانها الوقّاد لتذوب فيه نارا في ناره، فيحذرها من هذا «الفناء» فيه ذاته : «لا تكوني صدى لي سأكرهك آنذاك...» كأنه أبو هريرة مع ريحانته أو غيلان مع ميمونته. وبلغ هذا الاتفاق مع المسعدي بعد الدوعاجي فإنه يدلّ على قرابة في الفكر والإحساس بين الأعلام من أدبائنا. وما العجب ؟ فكلهم في المرأة شرق يتمخض بعسر عن حبّ جديد بينهم يثري بالفكر بعد الحسّ والعاطفة.

ومازال الزوج في القصة يدعو زوجته إلى التحرّر منه بتنمية ذاتها وتربية عقلها بكتب الفلسفة حتى... استقلت. في أعقاب إحدى السهرات وفي عروقه من الكؤوس سخنة وفي صدره من السجائر دخنة ورأسه تحلم فائرة «بلحمها الحارّ» معه بعد حين في «الفراش الدافىء» قالت له : «أعتبر نفسي حرّة بعواطفي ولهذا السبب اتصلت بعبد السلام...» فخرج في برد الليل إلى شوارع الموصل تائها بين حرّ وقرّ، قلبه العاشق وعقله المتسامي. وبعد رأى طلّقها وتشبث «بالأفق». ثم كأنه في لا شعوره قد اتخذ «ماجدة» بديلا منها، فلقد أخفق في التجربة مع الأولى فلعله ينجح فيها مع الثانية «وكانت تعتبره رجلا كاملا» و«كان يحاول دائما ألّا ينظر إليها كإبنة أخيه، أفهمها دائما أنها امرأة». وانقضت الحفلة ككل حفلة بين أكل وشراب وسجائر وغناء وحديث. كان جوّها حميما وقلبه باردا من شدّة تعاليه عنهم واستفاهه لرؤوسهم الفارغة إلا خلسات من دفء الحوار مع ماجدة. وفي آخر الأمسية وقد انصرف المدعوون جابهه الزوج «ان حبّا شاذا يسيطر عليك... اذهب وفتش لنفسك عن محلّل نفساني». وخيرت ماجدة بينهما فآثرت حرارة المحسوس من اللذات مع زوجها على شطحات فلسفته الباردة. فخرج من بيتها وقد أظلمت الدنيا وثلج الهواء وبهت النجم في «الأفق»، كتلك الليلة في الموصل، يتضجر متأففا : «لماذا يعيش دون سبب، يعيش بين الناس، بين الناس دائما !» ونفسه من هذه الخيبة بعد الأخرى رماد تحته رماد.

وسكت التكرلي عن القصص سنين ورحل إلى باريس فأقام بها وعاد إلى الكتابة فإذا النار في قصصه نار والرماد رماد وأحوال النفوس بينهما شتى. نار الخلاف الزوجي إلى حدّ جنون المرأة، واقعا أو وهما، وأخذها عنوة إلى المارستان، عن حق أو باطل. ورماد المهاجر العراقي ترك زوجته في بغداد فماتت ثم من وراء حجب الغيب خابرته بالهاتف ووعدته أن تكلمه ثانية. فتشرد في شوارع باريس «كلوشارا» من «كلوشاراتها» يعيش في الهواء وبقتات من الصدفة ولا يفتأ يتردد على «مقاصير التلفون» ينتظر بين حدّ

وخيال أن تناديه من «هناك» زوجته. أو رماد الإنسانية بعد الحريق النووي تحاول من تحت الأرض أن تجدّد نسلها بنار الجنس الحيّ.

فالنار النار في كل مكان، في كل إنسان ! تأتي فتلتهب وتلتهم أو تمضي فتخلّف وراءها حطامها. وعلى ضوء هذه النار يكشف لنا التكرلي عن أعماق المجتمع المظلمة.

في دائرة الأسرة أولا. لأن جلّ قصصه مآس عائلية في حيز البيت المغلق تنسف من الأساس أعرق العلاقات وأوثقها بين الأقارب، بين الزوج وزوجته والزوج وبنت زوجته والزوج وزوجة أخيه والعم وبنت أخيه والأب وزوجة إبنه والأخ وأخته. كلها قد طارت شظايا على وقع النيران المدمرة. لكن الوضع في الأسر الشعبية غيره في الأسر المرفهة لفارق في الكيفية.

فالنار في البسطاء أسرع وأفجع، ما ان تشبّ حتى تلتهب وتمضي كالقضاء إلى منتهاها لا يردّها رادّ. إنها عنف خام ينبثق من غرائز بدائية ويعصف كالزوبعة الهوجاء في نفوس غلاظ فيقتل إن على الحقيقة وإن على المجاز. وأهيج تلك الغرائز الجنس لا يزال فيهم شهوة بهيمية تتعاطاهم، ولا يتعاطونها، فظة بلا عاطفة ولا فكر ولا أخلاق. قوة متوحشة آتية من مجاهل الحيوانية تندفع بهم عاتية إلى قضاء الوطر فلا ترعى عهدا ولا حقا ولا حرمة. وأدنى أنثى تثيرها وإن كانت «بلهاء» قاصرًا أو صبية «عجفاء» الجسم، كلهن وقود صالح لنارها. ويتخذ هذا السلوك المفترس مبررا له، صراحة أو ضمنيا، من عقلية قديمة تضرب أصولها في غياهب الزمان : «فحولة الرجل» و«فتنة المرأة» و«الغيرة على العرض». يجوز للرجل أن يخون أخاه في زوجته أو ابنه في زوجته أو جاره في بنته، وظنه أن له عذرا من ذكورته. فما النار والحديد والحقار إلا للمرأة إن رضيت أو اغتصبت أو غرّر بها. فهي المذنبة في كل حال لأنها، شاءت أم أبت، بجسمها غاوية فكيف للرجل أن يتمالك ؟ فتقدم، مع تهليل الأمّ والخالة أحيانا، قربانا يذبح على مذبح

قداسة العرض، أو يحرق في محرقة. ولا تسلم من القتل وإن تأبت على الرجل محتجة، أتهيجه بسحر عينيها وتريد أن تمتنع ». ولا حتى إن اعترضت على خيانته لائمة، فمن أين لها أن تتطاول ؟ أليس هو السيد يفعل ما يشاء وعليها الطاعة ؟ فلا مفرّ لها مع هذه «الرجولة» من فتك الشهوة أو بطش الجبروت.

وقد أثارت بعض قصص التكرلي في إبانها ردودا بالعراق أخصها تعليق على جواد الطاهر. وهو من خيرة نقاد ذلك البلد وله عن قصاصه كتاب فيه عرفت، قبل أن ألقى هنا وهناك الأشخاص، من التكرلي ومن الصقر وطعمة فرمان (رحمه الله) وغيرهم. استنكر الناقد وقعة «القنديل المنطفىء» وعدّها غريبة عن عادات البيئة. من أدراه ؟ فلو طالع ركن الحوادث الاجتماعية من صحفنا لعدّل من حكمه وسلّم نهائيا بأن خيال القصّاص أبدا قاصر عن «إبداعات» المجتمع فلنثق بالتكرلي إذن وقد تولى القضاء في محاكم العراق سنين، وهو خبير، كالطبيب، بعلّل النفوس وأمراض المجتمع. بل قد تكون قصته هذه من وحي بعض ملفاته. ودوره كاتبا بعده قاضيا أن يعري ما جهلا أو تجاهلا نحاول أن نستره من عوراتنا. وهب الناقد لم يطالع الصحف أما كفاه السلطان القائم فينا شاهدا ؟ ما باله ينكر أن يكون أب منّا قد اعتدى على ابنه في حقّ زوجته وهذا «أبونا» الحاكم يعتدى في سائر بلداننا بلا ورع على «ابنه» الشعب في حقنا جميعا ؟ «فسيادته» في الأسرة «كسيادته» في الدولة إطلاق يد وخشونة سلوك. فكيفما يولّ علينا نكن وكيفما نكن يولّ علينا. وشيء آخر. فالعنف بالعنف يقوى ثم عليه ينقلب كالنار تأكل النار في جدلية جهنمية. أليس أن النفوس إنما تنفلق في الداخل لأنها منعت أن تجد لها في الخارج منفقا بنّاء ؟ فكبت الحياة العامة إذ يردّ الأفراد إلى ذاتهم يشحنهم توترا متى احتدّ انفجر عنفه في البيوت... ريثما تواتيه فرصته إلى الشوارع. فتاريخ العراق الحديث وتاريخنا جميعا شدة حكم تتخلّله رجّات من عنف الانقلابات الإنتفاضات وهكذا دواليك. فما

أحوجنا إلى «فكرة عبقرية»، على حدّ تعبير الشابي «تسوس» طاقة العنف المخزون فينا فتحولها إلى قوى خلّاقة ! متى تستقيم السلطة فينا فتصلح مجتمعاتنا ؟ أو متى تصلح مجتمعاتنا فتستقيم السلطة ؟ متى ؟

أمّا المرفّهون فأمرهم يختلف نوعا. فالنار عندهم لاتزال هي النار، وبعد فليسوا من صخر، وقد تشتعل فيهم من لمسة يد فكيف إذا تبرجت لها المرأة فحمّرت وغبّرت وعطّرت ؟ ولكنها فقدت عنفها القاتل. ما الذي تغير ؟ قد يكون المال ألان الطباع، أو تكون الثقافة هذبتها فخفّتْ عنهم غلواؤها. على كلّ قد قويت فيهم الروادع وتيسرت لهم المسليات. فدون عنف الجنس، إلّا على النفس، منهاة أو ملهاة من ضمير أو عقل ومن خمر أو سفر. منتهاه الخصام، إلى حدّ الضرب أحيانا، يكون بعده طلاق. وهي بلا ريب مأساة إن لم تهرق فيها الدماء تموت لها لا محالة الأرواح في الزوج والزوجة أو في الابن بينهما. وكأنه مقضي على المترفين، في قصص التكرلي، بالخسران في الحبّ كيفما كانت الأسباب. دعنا من قصة «همس مبهم» فالخلاعة، من كثرة المال، قد هتكت الزوجين فتفسخت بينهما العلاقات وأولها العواطف. ولنقف قليلا عند «غرباء» و«أمسية خريف». فكلا البطلين فيهما مثقف قلق في جلده مقطوع الروح عمّا حوله. تسلّى الأول عن حاله بالسفر إلى فرنسا وما تسلّى. كان ببغداد غريبا فصار بباريس أغرب وعاد منها أشدّ ما يكون غربة. تفاقمت أزمته وليس لها دواء. فلا هو استطاع أن يغير الدنيا ولا الدنيا استطاعت أن تغيره. فظلّ يدور في ذاته خاويا ولا هوى يشدّ روحه إلى حيّ أو شيء اقتلعته ثقافته وما غرسته. فهو ذرّة في الهواء لا تجد «بأرض لها مستقرًا». ومن لم يكن له من نفسه إذا فقد الدنيا دنيا أخرى أرحب وأعمر فذاك الإنسان الأشقى. ما من موت الحبّ كانت مأساته بل من علّة وجوده بلا معنى. والثقافة قد تُفقر ولا تغني تجعلنا خلاء في الملاء فنهلك بها ولا ننجو. ويبدو البطل الثاني أوغل في الثقافة وأشدّ بها ابتلاء. فقد اتخذ له

الفلسفة مثلا أعلى، فهي «الأفق القصي» الذي إليه يسعى. يعيش في أجوائها المصفاة ويجد في سحر معانيها لعقله لذة ومنها ستكون له بعد قليل محنة ومحنة. من شدّة تعاليه عن الناس صار لا يرى فيهم إلا تفاهة نفس وفراغ رأس حتى انفصل عنهم وعدم التفاهم معهم ففقد بالواقع كل حسّ. فخدعه من ثمّة مرتين قدره، وقدره في القصة ربّه الكاتب أراد به عبثا وعبثا. أحبّ لزوجته أن يكون لها مع «لحمها الحارّ» فكر حُرّ فتعطيه من متعة الذهن قدر ما تعطيه من متعة الجسم. فإذا هو «كبغماليون»، في الأسطورة، مع صنيعه، ما أن أتمّ خلقها حتى ولّت عنه وأفلتت. كذلك زوجة البطل إذ اكتمل تكوينها ففكّرت استقلت عنه بشعورها، تركت له الجسد، وهو بالزواج مالكه، والتفتت إلى غيره بعواطفها. فأجفل ومن العُجْب طلّقها. وليته قَبِلَ التحدي وصارع فاكتسبها من عواطفها كما اكتسبها من جسمها أولا. ولكن نية الكاتب به أخرى، ولو فعل كانت قصته أطرف. ولعلّة مّا يحجم كتابنا، إلا طه حسين في «دعاء الكروان» عن حرب العواطف وأفانينها المبدعة. شاء للرجل أن تكون له بعد خيبته في «التعليم» مع زوجته خيبة فيه أخرى مع بنت أخيه ماجدة. فانقلبت الآية من «إفراط» إلى «تفريط». أغراها هي أيضا بكتب الفلسفة حتى ظنّها قد فتنت ولكنها في ساعة الخيار «ارتدت» ففضلت داني القطاف من نعيم الدنيا مع زوجها «الدكتور» الثري عن التهويم معه في مجردات «الأفق القصي». فألفى نفسه معلقا في الفضاء لا هو مع التي تحلّق في سماء الفكر ولا هو مع التي تشبثت بحسوس الأرض. لأنه في المرتين ما أحبّ المرأة في الفلسفة بل أحبّ الفلسفة في المرأة. فذهبت عنه النساء وبقيت له الفلسفة عشيقة مستبدة. وماله يتوّه وله ما يهوى ؟ فالفلسفة إذا كانت «كتبا» لم تزدنا فقها بالواقع بل تعمينا عن أولى حقائقه. كالمنجّم، في الخرافة المعروفة، لا يرى لكثرة ما يرنو إلى الكواكب في السماء الهوة المفتوحة على الأرض تحت قدميه. فيقع.

وليس المحير مع المرفهين في هذه القصص، إفلاسهم في الحبّ بقدر ما هو خلو نفوسهم من كلّ شروع جماعيّ. فمن العبث أن نبحث لهم في الحياة العامة عن مغامرة. فلا فكرهم يخطط للمصير المشترك ولا مالهم يؤسس شيئا. مقصورون هم أيضا على نفوسهم مسجونون فيها وأقصى «الأفق» لديهم الذات أو المَلَذّات. ولو اقتصر الأمر على واقع ما قبل الثورة لقلنا إنهم كأشخاص «غوغول» «أرواح ميتة» أو كأبطال «تشيكوف» نفوس قلقة تنبىء أزماته عن مجتمع يحتضر قريبة وفاته. وهو ما كان في تاريخ روسيا وفي تاريخ العراق بعده. أمّا وقد قامت الثورة وحالهم هو حالهم...؟ فإن نمّ هذا الفراغ عن شيء فعن فقدان مجتمع مدني يعمره الأفراد بمبادراتهم الخلاقة فينشئون حركة دافقة تثري بها حياتهم وينمو المجتمع. أهو نقص في القصص الحاكي أم نقص في المجتمع المحكي ؟ ومهما يكن فلا بدّ من مصارحتنا ببعض حقائقنا. فما أسرع ما نظنّ أن قد قمنا بثورة ثم تنفتح البصائر وإذا الأمر أقل وأقل حجما. وليس مكتوبا علينا أن ندور في حلقة مفرغة من الأوهام. بل أكيد علينا اليوم، والظروف حاكمة، أن نغير ما بأنفسنا جذريا فنطلق قوانا من كوابتها حتى تبدع، إلا ظلّ الغير يبدّع بنا مرة بعد مرة.

تلك الأسرة في قصص التكرلي إن أعسرت فنيران فاتكة وإن أيسرت فركام من رماد. ومأساتها هذه صورة مصغرة من أزمة أشمل، فالبيت «صندوق تجاوب» يُردد، ويضخم، أصداء المجتمع... ولكن ينبغي لنا مع ذلك ألّا ننسى أن الأدب الجيد لا يصنع، كما يقال، من طيب العواطف، فهو كالشعر بابه النكد فإذا دخل في الخير فسد. فحسب التكرلي في نصوصه من مجتمعه نكده. أمّا خيره فله تعابيره في مجالات أخرى.

وإن عدا بنا هذا الكاتب حدود البيت المقفل، وهو مسرحه المفضل، فإلى «بيت مقفل» آخر، دار الدعارة. ولا حرج فكل مجتمع يقسم للجنس

مكانه : خاصًا للأهل وعامًا للبغايا، والغرض سياسة الشهوات حتى لا تجمع فيختلط الحابل بالنابل... ويختلط. فالماخور إذن، على قبح اسمه، مؤسسة رسمية أو مسموح بها يعدّل المجتمع بها سير نظامه. ووظيفته استيعاب فائض الجنس عن عقود القران متى طفت الطبيعة في الأجسام. فهي كمنفذ الأمن في الآلات يخفف من ضغوط البخار حتى لا تنفجر. «شرّ لا بدّ منه» كما يقول، عن خبرة، أهل قرية الطيب صالح في «عرس الزين». وللبغايا مهمة، «صابرات» هن على أذى الرجال ولهنّ أجر يحتسب وعليهن، هنا في تونس على الأقلّ، جناح مبسوط من رعاية الأولياء الصالحين، سيدي فلان وسيدي فلان. وفي ذلك الوندرى، حكمة، وقديمة «كالحرفة» ذاتها فيما يقال. وألّا يسلم عرض الجماعة إلا بفحش طائفة من النساء مفارقة أخلاقية شائكة. ولكن هل كانت تكون لولا الرذيلة فضيلة ؟ فبضدّها تتميز الأشياء. ولا يجلو أحوال النفوس في كل مجتمع كالماخور بما يصبّ فيه الناس من مشاكلهم. وكذلك هو في نصوص التكرلي. يؤمّه الأعزب المحروم كعبود ليفرّج فيه عن كربته كما يؤمّه المتزوج المغلوم كعباس صاحب عبود لتنويع المذاق، فيما يبدو، بين «الدياري» و«الدعاري»، ولله في خلقه شؤون. يقسم هذا الرجل ليله بين الأهل والبغايا وله عندهن لماله حظوة. فيدللنه ويطبخن له من لذيذ الطعام أصنافا يعودُ ببعضه إلى البيت في السحر فيرضين فيه شهوة البطن والأخرى والناس فيما يعشقون مذاهب ولكل منهم توازنه. على أنا نرى هذا المحلّ أكثر ما نراه بمنظار «المحترفة» صاحبة «العيون الخضر». وبهذا المنظار تنعكس الرؤية وتنعكس مع الرؤية مقاييس الأشياء. فنشاهد من قبح الرجال ما يعيفنا في الرجال. يتعرّون على الحقيقة والمجاز، من الثياب ومع الثياب من إنسانيتهم، «وحوش» وكانت «سليمة» لهم فريسة «فامتصوها». أما هي بغي ؟ بلى ولكنها أيضا ضحية. ما اختارت البغاء قط، اختاره لها المجتمع، «خضّرها» لحاجته فهو المسؤول منذ البدء عن مصيرها. فما ذنبها إن أهملها أبوها صبية، وما ذنبها إن افتضّها ذلك

الجلف قهرا، وفي المسجد ؟ وما ذنبها إن تعاورها بعده الرجال يرميها الواحد إلى الآخر بعد الاستعمال كالخرقة ؟ جسدها بلا مراء ملوث وأما الروح... ؟ فكم من عاهرة لها قلب نظيف ومن «شريفة» لها جسد داعر ؟ وفي قصص التكرلي من الأمثلة ما يصرخ بهذه الحقيقة. وهل صاحبته آخر الأمر إلّا صورة عراقية من نموذج إنساني أعمّ مأثور في أدبنا بل وفي سائر الآداب ؟ من «عزيزة» محمد العربي إلى بطلة علي الدوعاجي في «سرّ الغرفة السابعة» فإلى «ممثلة» البشير خريف في «حبك دوباني» وإلى «نور» نجيب محفوظ في «اللص والكلاب»، بل من «غادة الكاميليا» «لألكسندر دي ما» إلى «ألق... المحترمة» لجان بول سارتر. وفي «الكتاب الكبير»، كما يقول «بارط»، كتاب الأدب تتهاتف النصوص وتتجاوب على بعد المسافة في المكان والزمان فليلتقي كاتب بكاتب في معنى أصيل من معاني الإنسانية. فكل بطلاتهم تنويعات شتى على مثال واحد : المومس ذات النفس الطيبة. فما الحكم والبشريات على هذا القدر من التعقد، مزيج متداخل من الخير والشرّ فلا أبيض ولا أسود ولا ملاك ولا شيطان ؟ قال أبو هريرة في بعض ساعات الشفقة : «ابن آدم يقتضي الرحمة»، نعم وبنت حواء كذلك وإن كانت من بائعات الهوى.

وبين بيت الحريم ودار الدعارة تقع، في عالم التكرلي، الخمارة. ثالث الأماكن المقفلة وآخرها. يشرب العراقي، ما شاء الله، في القصص والواقع، من أنواع الكحول قدر ما صار التونسي يشرب من البيرة اليوم، بعد عهد «البوخة» و«النزيتة»، ولكلّ عصر شرابه. أفهو من أثر تقاليدنا العباسية، أو الأندلسية ؟ لأبي نواس في بغداد اليوم شارع كبير باسمه، يقع على ضفة النهر وتصْطفّ فيه من الجهتين الحوانيت، وله في وسط شارعه هذا نصب من أجمل ما نحت يقوم فيه وبيده الطاس وحوله أبيات من شعره تغنى على مرّ القرون

لذة الخمرة عنده :

صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها لو مسّها حجر مسته سراء

وحكمتها :

عُتّقت حتى لو اتصلتا بلسان ناطق وفم
لاحتبت في القوم مائلة ثم قصت قصة الأمم

وليس لها عند أبطال التكرلي شيء من معاني الحَكَمي. فلا هي كما قال :

فتمشّت في مفاصلهم كتمشي البرء في السقم

ولا هي

فعلت في البيت إذ مزجت مثل فعل الصبح في الظُّلَم

«فسراؤها» ضراء و«برؤها» علّة و«صبحها» ظلام. يفرّ إليها هذا من عهر زوجته ويتسلّى بها ذاك عن بوار زواجه وثالث يتحصّن بها من غواية ربيبته ورابع يقتبس منها نارا على قتل أخته. فهي ملجأ لأرواح معذبة تغرق في الخمر همومها. فبعضها سكر وبعضها استعر وبعضها انتحر وبعضها تقاوى وما اقتدر. ألوان من البؤس قد انعكست في كؤوسها. والخمرة بعد الماخور مرآة أخرى من مرايا البشر.

وقد يخرج بنا التكرلي من دائرة الأماكن المغلقة إلى رحابة الفضاء المفتوح من شوارع المدينة وما قد يصل المدينة بالمدينة من سكك الحديد فإذا ليس فيها جميعا إلا مآس تسير راكبة وراجلة : سيارة تسرع كالمجنونة بطالب لمنيته، أو حافلة تقلّ شقاء زوجين نكبهما الطلاق، أو قطار يحمل من ذكريات امرأة أثقالا من الأحزان، أو صَبٌّ مُحبّ يجرّ من نكر زوجته أذيال الخيبة. فالخارج امتداد للداخل، مقدمة ركح والبيت خلفيته تمثل عليها أشباح من الأحياء أدوار التعاسة. وفي القصص يختلف المكان ولا تختلف آلام الإنسان.

ومن المدن يثب بنا القاص في جغرافية العراق إلى تخومها، وحدود العراق، فيما بين الخراف والتاريخ، فاجعة تلتها فواجع. كانت نارا على ذلك «الحاج» الشيعي الغريب من «وحش» البستان قبل كبس العسس. تحالف عليه المُلّاك من الإقطاع العشائري والحراس من جيش الملك. وكان وحيدا أعزل إلا من الإيمان والأماني فجاهد بطلا ومات شهيد الهوى. وإذ قتلوه علاهم بروحهم، فالبطش أذلّ والعشق أجلّ والأشواق

ومن لم يعانقه شوق الحياة يعش أبد الدهر بين الحفر
كذلك قالت لي الكائنات وحدثني روحها المستتر

وكأن النار التي قتلت عبد الرضا بداية حريق ما له هفوت. فكم كان يهون عليه موته لو علم ما سيكون بعده على تلك الحدود وبين الشعبين من جحيم القتال ثمانية تباعا. أجوار على الدهر وإخوة في الدين مزقت بينهم حرب كافرة لا تغتفر. وحدود العراق اليوم تشتعل من جديد، وما سكنت إلا قليلا، بنيران العدوان. في البرّ والبحر والجوّ لهائب وعلى الأمهات والآباء والأبناء. من أقاصي الدنيا وأرض بعض «العرب الكرام» «أتوها يجرون الحديد»، مدرعات وطائرات وأساطيل :

خميس بشرق الأرض والغرب زحفه وفي أدنى الجوزاء منه زمازم
تجمّع فيه من كل لسن وأمّة فلا يُفهم الحُدّاث إلّا التراجم

هذا الحريق ! فمتى غده ؟ ما غده ؟ ما بعد النار ؟ أخراب بغداد والبصرة على أيدي برابرة «هولاكو» العصر ؟ أم وقفة تفتح في التاريخ آفاقا ؟ إنها لساعة من الدهر قاسية يتأرجح بنا التاريخ فيها بين تحت وفوق. وكنّا في إقبال دولتنا قوما «لنا الصدر أو القبر» واختلف علينا الزمان فصرنا لا صدرا نستطيع ولا قبرا آثرنا.

وعن حدود العراق يرحل بنا التكرلي إلى الخارج، مرتين على الحقيقة إلى العالم الآخر من وراء البحر، عالم الغرب، ومرة على الوهم إلى العام بعد

العالم في أحشاء الأرض. نصوص ثلاثة هي آخر ما نشر.

ما أشبه الإنسان بالإنسان في «الأزهار» ! لأنّ قصتها مآس البيوت ولا فرق فيها بين عربي وأفرنجي إلا بالأسلوب، وإن لم يكن الأسلوب كما يقال هو كلّ الإنسان فإنه خير ما يعبر عن روح حضارته. وقد لونت سلوك الزوج في القصة ألوان من الغرب حادة تتخذ في ظروف هذه الحرب دلالة بالغة. إمعان في الشرّ إلى المنتهى ببرودة دم وراحة من الضمير كاملة وخبث شيطاني يصرع الزوجة بسلاح «القانون»... باطلا. يهيجها ولا يهتاج حتى إذا استشاطت اتخذ عليها من غلوائها حجة «بالجنون» وزجّ بها عنوة، وسلط الطبّ معه، وذاك المسمى «بمجلس الأمن»، في المارستان. فعنفه «متحضر» بل «مترف» لأنه معقلن قد خطّط له بإحكام تدبير ومتى عزم عليه نفذه بتصميم لا تقلّ فيه شفقة. وهو عنف لا نعرفه، نحن الشرقيين، لأننا لا نخطط ولا حتى في أغراضنا الإبليسية، اندفاعيون نحن تجرفنا الأهواء بلا ضوابط في الخير والشرّ على السواء. وان عرفناه فمن الغرب علينا في أوقات الصدام ونعجب كيف يُفْلِحُ فيه ونفشل وكيف لا تأخذه بنا، على «تمدّنه»، رحمة. كذا نحن عاطفيون، على مراد الله، وسذج.

ومع الغرب نبقى في «ذاك النداء». وهي قصة تذهب بنا وتجيء بين المعقول واللامعقول ولا تستقرّ على حال فلا ندري أمعتوه «كلوشارها» أم سليم المدارك ؟ لا يخلو جنونه، إن كان، من حكمة، ولا قوله إذا تحدث من ملح التنكيت. يُرينا باريس بالمقلوب، من القفا بل من القاع بعين الملفوظ من ناسها. فإذا هي على السطح جنّة ومن تحتها تجري أنهار من الحرمان. قد حسب نظامها لكل شيء حسابه إلّا الذي لم يعد يملك شيئا فخلفيه وتلقيه في هوامشها نفاية وإن من البشر في قمامة فضلاتها. كنه قانونها المال فهو الفيصل الصارم بين أن تكون حيّا قد يعتبر وألّا تكون إلّا خيالا من رثاثة هاملا في الشوارع وتحت الجسور وفي الأنفاق. ومن حقّ الإنسان، في بلاد «حقوق الإنسان»، ألّا يُقدّر بثمن، فحسبه أن يكون إنسانا. وكذلك بطلنا في

العمق، فوراء مظهره الخلق عقل يدبّر وقلب يحنّ... ولسان يتهكم. بمنطقه المعكوس يفكّك ساخرا بعض الدواليب من جهاز باريس الحضاري. يستغرب تراتيبه بسذاجة ليست من السذاجة فيقلب ماكرا حقها باطلا. وأطرفه أنه في الأصل عراقي مهاجر ماتت زوجته بعيدا عنه فاندحر وتدهورت أوضاعه المادية فتدحرج وتشرّد فالتحق «بكلوشار» باريس من أصلائها وانتحل اسما من أسمائهم ومن بابهم «اندمج» فيها من تحت. فإذا استغرب فمثنى يستغرب «كلوشارا» مهمشا كأمثاله وعربيّا مشردا. نفته باريس عنها ماديا ؟ لا بأس ! فها هو ينقم منها فكريا ويزيد فيستفيد منها رغمها. من بعض فرج النظام وقد أدركها يتسلّل إليها بألف حيلة فيستمتع مجانا ممّا قد حرمته. له في حدائقها العامّة «منازل» من مقاعده تحت الأشجار، و«المترو» مطيته يركبه خلسة وقد دخل إليه قفزا فوق الآلة الحاجزة وإذا خرج منه فمشيا إلى الوراء كأنما هو داخل «خيال شرقي» كما يقول «المتشائل» به يصارع في ملاحمه اليومية. وشرابه زلال من ماء الينابيع، وطعامه شهي من فواضل الأغنياء في أحيائهم الفاخرة، وفيها ما يكفي جيشا من الجياع. وهو إلى ذلك ذوّاقة لجمال المكان، يعشق حديقة «اللكسمبور» وحوضها المائي وله في المدينة شوارعه المستطابة، وعلى خطّ «المترو» محطّاته المفضلة، لا «كد نفار روشرو» فإنه يمقتها. أي نعم ! على كيفه يحبّ من باريس ويكره. وإذا صادف أن هفا بعض المارة فسقطت من جيبه ورقة نقود والتقطها فهي الوليمة في المطعم : دجاج وبيرة مبردة. ومن يمنعه ومعه، حسب قانون اللعبة، الثمن ؟ فكأنه من إملاقه في رغد العيش حتى لقد يغريك بأن تجرب حياته إن مللت الحضارة وتكاليفها. ولا تظنّن قناعته من إرثه العربي وقد صار الفقر فينا كالأصالة. صحيح أنه، وهو في «مجتمع الاستهلاك»، يأكل ليعيش ولا يعيش ليأكل، ولكنه ان استكفى واستغنى فلأنه، لهمّ فيه دفين، مشدود من روحه إلى الماوراء. يؤمن وهو الشرقي بالغيب. فإن عاش فلكي يحيا وإن حي فلكي يسمع ثانيا صوت زوجته يناديه من ذاك المجهول وهي

عقدة القصة ولغزها المحير. أهي حقيقة خارقة أم هوس عقل مصاب أم عجيبة من اختراع «خياله الشرقي» يتسلّى بها عن بليته فيحلم بالمحال ؟ لا نملك أن نصدق ولا أن نكذب. فنحن منه في شكّ إلى النهاية في هذه المأساة التي كأنها ملهاة.

وعن كل واقع إلى ما لم يقع قطّ وكأنه قد وقع، إلى قيام ساعتنا قبل يوم النشر والحشر تُقلع في «م.أ.ر.ع.س.» وليست حروفها، كما قد يخيل، فاتحة سورة من «كتاب» جديد بل رموز «المدينة التي رحل عنها السرور» وقد اختزل اسمها على الذوق العصري كأسماء بعض الدول العظمى وكبريات الشركات. وقصتها «مستقبلية» من النوع «المعلمن» ولكنها كالآية المنزلة تنبئنا بأسرار غيبنا الآتي، وبئس المصير. تطوي بنا الزمان والمكان فتجاوز الشرق والغرب إلى حيث قد تكون اجتمعت الإنسانية، أو بالأحرى ما تبقى من فلولها، لو شتّتها حرب نووية. دنيا مطمورة تحت الأرض يعيش ناسها «كالفئران»، اضواؤها اصطناعية وأصواتها إلكترونية وأزياؤها من مواد تأليفية، مخلفات بقيت من تكنولوجية عصرنا الحديث هذا المتقدم في العلم والصناعة. وقد فقدت فيها الحياة كل حرارة وفقد الجنس لذته، ذهبت عن الرجال لعاهة «تلك الإرتعاشة الخالدة» وسلمت أجسام النساء فظلت الغرائز فيهن حيّة، وصار الحبّ بينهم «جرعا» تؤخذ من الذكور قسرا وفي شدة من الأوجاع وتحقن بها الإناث فيزددن جوعا. في شبه حلم، كالكابوس، أو شبه رؤيا نزل البطل إلى هذه «المدينة» الغائرة وعهده بنفسه أنه يتجوّل بسيّارته مطمئنا في شوارع بغداد. وعلى الفور تلقفته المراصد بأشعتها الكاشفة الفاحصة وهواتفها الآمرة الناهية وأخذت الأجهزة تستخبر. فإذا هذا الآتي من فوق الأرض قبل الكارثة رجل مُعافى البدن كامل العدّة صحيح الآلة «ظفرنا بصيد وحيّاك الله أبا زيد !» وتقبل عليه زعيمة القوم وقد سادت النساء لكمالهن على الرجال «... ملامح جسدها الفذّ تبين... لحظة ثم تختفي

النهدان العاليان ولون الحلمة الداكن ومنخفض البطن وما تحته. أشياء كالسراب، جميلة شهية تسلب اللبّ... وجذبت ما كانت تستتر به إلى صدرها فبرزت استدارة الحوض الواسعة وتقدمت قليلا...» فأخذته من يده وليس له خيار وجذبته وقالت : «تعال...» ومن ورائها أمة من النساء. يمكن للقارىء، وهنا تنتهي القصة، أن يتخيّل ما يكون قد جرى بعد ذاك للرجل، وله الحرية في أن يحسده أو يشفق عليه. في هذه الخاتمة بلا مراء نكتة النصّ وتستملح ولكن... بصراحة ذاب في نار جحيم الحرب الدائرة «معدن» هذه القصة وتبخّر في الهواء خيالها المستعار. ونحن لا نحبّ لأنفسنا في العادة إن نستدين من قرائح غيرنا من كتاب الغرب. فمن الخطإ، بل من الخطر، أن نتصور أمورنا بعقولهم، فكيف والظروف اليوم فاضحة لزيف كل محاكاة تريد أن تشبّهنا بالغرب دون أن نمتلك من أسباب المضارعة، والمصارعة، شيئا إلا دعوانا. يجب أن نسائل انفسنا وبشدة عن أفعالنا وأقوالنا. أفملكنا من التكنولوجية نبذة فيجوز في الأدب أن نصطنعها لنا، وتحت بغداد ؟ نعدمها في الواقع فكيف يكون لنا منها في الخيال صورة مستقبلية ؟ اللهمّ إلّا تعويضا في الوهم عن الفقدان وهو لا يجدي في محكّ التاريخ شيئا. فمن الحاضر يبدأ المستقبل وإلّا ما كان. ومتى اخترعنا قنابل نووية ففجرها ولو في القصص ؟ ليت لنا منها في هذا الوقت كعبة واحدة فيتربّث الأعداء، على الأقل، في الهجوم علينا ! وهل نحن اليوم نحيا فنهلك غدا ويرثي لحالنا ؟ نحن الساعة نموت لا في «مستقبل الدهر». على بغداد في كل دقيقة، وكامل العراق، نيران توشك أن تكون نووية وتحت أرضها في الدواميس بشر عزّل يلجؤون فتنفذ إليهم القنابل برؤوسها المفتشة حارقة بعدها حافرة فتبيدهم ولا نقدر على صدّها. شتان ما بين الخرافة والتاريخ ! استبق التكرلي في قصته الزمان وتوقع بعقله الحدثان وفاته ما يصبّ على رؤوسنا من الوابل الآن. فخير لنا من الرحيل على الوهم إلى مجهول الزمن القادم ريادتنا بوعي في أبعاد المعلوم من حاضرنا القائم. وعسى أن يكون لنا

من هذا الحاضر مع التكرلي وأمثاله من كتابنا قصص آخر غير الذي نعرف. فقد انقلبت علينا بهذه الحرب دنيانا وما عاد شيء كما كان، ولا ينبغي أن يعود.

ماذا بقي من القصة إذن ؟ نكتها، قلنا. فلنلْهُ بها لحظة عن همّ الزمان للتكرلي، وهذا من حقه، شغف بمشاكل الجنس ولسنا من محلّلي النفسانيات فنفسر ما الذي يعتلج في باطن وعيه أو لا وعيه . يكفينا أن نأخذه من جهة المنطق العابث لا من جهة العلم والجدّ. نسلّم له جدلاً بأن الإنسانية كانت في البدء من لذة العناق بين آدم وحواء وأنه إذا لزمها يوما، ليلية مَا، أن تعيد سلالتها فبلذة عناق آخر بينهما... وعلى شرط أن يكون آدم قادرا. فإن لم يكن كانت قصة التكرلي وما استنبط فيها من حلول. لا نقاش إذن في أنه يجوز لمثل هذه القضية أن تطرح وتحلّ ولكن يجب أن نعترف بأنها كتلك التي كانت تفْتِنُ عقول بعض فقهائنا من مثل : أرأيت لو أن رجلا في سفينة فُتق بطنه ورُتق الفتق بخيط من ملك رجل آخر ثم رست السفينة فطالب صاحب الخيط بخيطه فما يكون الحكم ؟ إلى غير ذلك من انواع المضاربات الذهنية التي افتنّ فيها «الأرأيتيون» تقصيًا للأحوال ولو كانت من المحال. على أن خيالهم في هذا الشاهد لا يعدو بطنا مفتوقا وإبرة وخيطا في سفينة وهذا في ميسورنا أمَا التكنولوجية والقنابل النووية «فيا من عاش».

وإن أبى القارىء في آخر هذه المهازلة إلّا أن يسأل متخابثا، والسرد في القصة بلسان المتكلم، ألا يكون التكرلي وبطلها يشبع في حلمها نهما ؟ فالله أعلم، وفرويد من بعده وتلاميذه. كل ما قد نعلم، لو صحّ الأمر، هو أنه واحد و«هن» أمّة فما نظنه يكفي.

هكذا اتسعت بنا في النصوص دوائر المكان من البيوت إلى الشوارع ومن الحدود إلى ما بعدها وراء البحر أو تحت الأرض. ومن مكان إلى مكان في هذا الفضاء المديد تصفّح لنا الكاتب أحوال الناس من شرق وغرب

وكلها مآس رسمها لنا بألوان قوية أو خافتة، زرقاء كالنار حمراء كالدم سوداء كالفاجعة أو رمادية كالتعاسة إذا دامت. صوّرها لنا في النصوص بكل عنفها وحكم عليها فيها بما رآه ضميره. لأننا في قصصه نشاهد الوقائع ونسمع من حين لحين صوته يعلق على ما يجري كالجوقة في الفواجع الإغريقية ولكن بلهجة هادئة. ويتكلّم بألسنة متعددة متعاليا في درجات الاعتبار. فهو إذا سرد ثلاثة رجال في واحد ويتناوبون على الكلام كل في ساعة ومن موقعه : قاض من ورائه مواطن من ورائه إنسان.

بخبرة الذي عكف ردحا من العمر على الملفات العدلية يبدأ «قاضيه» فيضبط لنا العناصر ويشرح الظروف ويتحرى الحقائق، وفي المناسبة بعد المناسبة وهو يشخّص قضية الحال ينفعل المواطن فيه ويتدخل لا بصخب أو تهريج بالشعارات بل بإشارات منه خفية ذكية يدسها في معاطف الكلام على لسان الراوي أو ألسنة الأبطال وبها يحكم هو على ما يعرضه القاضي من «النوازل».

في الجنس البهيمي :

«كانا عاريين بشكل فظيع وهما يعملان عمل الحيوانات. عمل الكلاب ! الكلاب»

في العرض الدموي :

«كانت تحبّ ابنتها الوحيدة البلهاء. لم تضربها في حياتها قط. ولكنها الآن تتوسل للقضاء عليها».

في بطر المال

«أهو المال آخر الأمر ؟ ذلك البلاء العظيم ؟»

في فقدان الكرامة

«إنه وقت ازدراد الكرامة... إنه وقت ازدراد الكرامة»

في قساوة الرجال

«اشكّد أذوني ها الشكول زمايل. وحوش»

في رهبة السلطان

«أرجوك... سيدي... أني ما عندي سلاح ولا بطيخ. خلّوني أرجع لأهلي... مالي علاقة بأي جهة حزبية...».

وهي مواقف خاطفة ولكنها ثابتة يتخذها المواطن وفي شجاعة إذا تذكرنا صعوبة المجتمع وحكامه. ولا ينسى هو أنه ولد «على أرض الاضطراب تلك» وينبغي له «الحذر» فيعرف كيف يتكلم ليفهم وكأنه لم يقل شيئا. وللخطاب في الأدب أكثر من حيلة على الموانع.

وكما يتجرّد من القاضي المواطن أحيانا كذلك يتجرد من المواطن الإنسان فيعلو النظر إلى الرؤية الشاملة. وإذاك يكف الأشخاص في مسرح القصص عن أن يكونوا من عراق أو إيران وشرقيين أو غربيين : إنهم الإنسان فينا عاريا من ملابسات الزمان والمكان. وأصدق شاهد وأبدعه بطل «موعد النار» فإنه يقوم في قصته رمزا لنا جميعا تنتزع به الأشواق إلى الغاية العليا. قد غدر به الدهر فابتلاه ومن شأنه إنسانا إذا تحدّاه المصير أن يقاوم. فخاض الصراع مستميتا، لا أحد معه في خلاء الليل والنهر إلا عطف أرواحنا ولا قوة له إلّا بشرية صمّاء تأبى إلى النفس الأخير أن تستسلم. ويموت فنحزن له وقد قهر وبجهاده نكبر فنتحفّز والعزم أقوى لمعركة مع الشرّ أخرى وأخرى وأخرى. كان في بساطته من الأبطال وعلى ما فيه من الرهافة عظيما : «قصبة مفكرة» كما صورها «بسكال» في «أفكاره» يمثل بها للإنسان ويمجده. وهي قصبة رقيقة قد تعصف بها الرياح فتكسرها. ولكنها أسمى من الرياح إذ تكسرها شأنا لأنها تعرف وهي تموت أنها تموت، ولم تموت، والأخرى لا تعرف شيئا. أجلْ، أبا العلاء، «تحطمنا صروف الدهر كأننا زجاج» ولكنّا، وقد قلت، ذاك «الذي حارت البرية فيه». جلال الإنسان على

ضعفه، في هذا الكون.

وأخيرا فما التكرلي ناقد مجتمع فحسب ولا محلّل إنسان بل هو قبل كل شيء وبعده قصّاص وأي قصّاص ! لا ندري على أي الأعلام تحرّج ولكنه ماهر في صناعته حاذق لوسائلها.

يتقن، في خير نصوصه، بناء حكاياته وأكثرها، من الأوائل خاصة، ذو تركيب كلاسيكي خالص يقوم على الموقف الواحد والحلّ الخاطف. يتناول الأزمة قُبيل انفجارها ودونه، بمقدار محسوب، يماطل ريثما يستجمع من أسبابها السابقة ما قد ينميها إلى أقصاها ثم تنزل ضربة النهاية قاضية ماضية كشفرة المقصلة لا يلطف من حدّتها تعليق : «كان يموت»، «ولم ير حميدة، ولم ير صفحة السماء»، «وتهاوت من السرير ببطء فاصطدم رأسها بالأرض مرّة أو مرتين قبل أن يغمره الظلام». وهو ولوع بفن التعليق يجيد تقنياته العالية وقد اتخذه رديفا مصاحبا لهذا الشكل من البناء كَفِي «القنديل المنطفىء». ينذرنا في قصته من المدخل بوشك كارثة مّا تهدد البطل فيخيم في الحين على النص شبحها. ثم وقد همّنا بها فاستوثق منّا يعطّل المسير إليها وإلى الوراء يرتد بنا ليّا. فينشأ من هذا التمطيط في القصة توتر بين فاتحة الحادثة وخاتمتها، الوعيد والإنجاز. وعلى قدر المباعدة بينهما تشتد علينا وطأة الخطر وهو في الهواء مغلق كالسيف المسلول. لأن التسويف لا يبطل الكارثة وإنما يمُدّ في وقت انتظارها ومع طول الترقب يقوى التطلع والهلع. وإذا نحن في حال مشتبهة من الرغبة والرهبة، نتشوّف إلى معرفة النهاية وفي الآن نفسه نتخوّف من قدومها. وبعد تشويق وتقليق يعود بنا طيّا إلى الموقف وقد تفاقمت حدته ولا يبقى للكارثة إلا أن تأتي لا ريب فيها. فيهجم الأب في القصة على ابنه العريس ثم ينقضّ في المضجع على العروس زوجته، وكان الأمر مقضيا. وللتعليق على «رعدته» لذته في الذهن. وقد بيّن «بارط» بألمعيته أن «السوسبنس» هزة في العقل قبل أن يكون عصرة في «الأمعاء» لأنه من قبيل المنطق وإن «أخذ بالأحشاء». فالحوادث

محكومة في نظام القصّ بقانون التلازم بين السوابق واللواحق كالجملة الشرطية في النحو وصورة الاستنتاج في سنن العقل : إنْ هذا إذن فذاك. وبمقتضى هذا القانون يبدأ التكرلي في قصته فيوجب بالبوادر عاقبتها، وبالنواذر نائبتها، ثم يبدو، وهي خدعة، كأنه يفكّ في التلازم بين عناصره المتعالقة فيظل القلب فينا يرتجف من حتم اتصالها ويستمتع الفكر منّا بحيل انفصالها. فللخوف في الفنّ حلاوته من لعب التداني والتنائي والإقبال والإدبار كما في أفلام الرعب وإلا ما شهدناها وهو لعب شكلي يتذوقه الذهن، وبالذهن تقرأ أولا لا «بالبطن». وهكذا بالفنّ ينقلب الخوف جمالا وتصير «رعدته» عذبة. وهذا من «لذة النص» في الأدب ولذة القصّ عند التكرلي.

ولمزيد المهارة في التعليق يفتنّ قصّاصنا في أساليب الإرجاء. فهو، في «الغراب»، خرافة تحكى فتزدوج بها القصة واقعا ورمزا، وبهذا التضعيف يكثف في البيت الهول فيثقل علينا الجوّ ويقوى اليقين فينا، مع الزوجة، بالويل الداهم. على أن الاسترجاع هو أحبّ الأساليب إلى نفسه في الإرجاء والاسترجاع عنده ذكرى. وقد يتعاطاها على ما عهدنا من صيغها التقليدية فقرا مرتبة مسترسلة تستعيد بأناة من حياة البطل الماضية قدر ما ينير أزمته الراهنة ويدفع بها إلى الذروة. وقد تتطور في صور أحدث إلى «تيار الوعي» يجرف سيله، فيما يجرفه من نثار المشاعر والخواطر الآنية، لمعا من الماضي القريب أو البعيد تومض خاطفة في وعي البطل وبفعل التضادّ تعمّق إحساسه بشدة الحال فيعظم خوفنا عليه من سوء المآل. ومثل ذلك خارق في قصة «موعد النار».

وعن الإرجاء في كل مرّة ينشأ لغز محيّر فيبدو الخطر في القصة شيئا يلوح في الأفق مبهما، وبقدر الإبهام تكون «الغصرة». ثم تتوالى المنبهات إليه متكاثرة متواترة فتزيد الموقف غموضا ولا تفضحه. وفي آخر وقت ينجلي

السرّ دفعة عن حقيقته دامية أو مزرية، فيقتل الزوج بقسوة زوجته ويعجز عبود ساقطا عن قتل أخته. ولوظيفة اللغز هذه تتشبه بعض قصص التكرلي في تقنياتها بالرواية البوليسية. والأمر لا يستغرب، فقد تكون تلك النصوص في الأصل «نوازل» مرّت به قاضيا في المحاكم.

وفي قصة «موعد النار» يبلغ البناء عنده منتهى إحكامه. فقد ركبها على مثال «الآلة الجهنمية» في فواجع الإغريق. سبق من القدر حكم بالموت على البطل وهو لا يدري. بدأه مقنعا فابتلاه ولمّا قاوم أرخى له العنان ليوهم، مخاتلا، أن في إمكانه الإفلات من قبضته وفي الأجل المكتوب أغلق عليه الفخ فقتله. هو موعده الحقيقي قد ضربه له ومع الموت لامع الأحباب. وهكذا بادرته نار «الوحش» قبل نار الإنس والأنس وعرض له الحراس قبل رفاق الطريق. وحيث ظن أنه قد نجا تفتح أمامه هوة «العدم الأسود» فتبتلعه. «بدأ سفره وقد انتهى الطريق» كما يقول «لوكاتش». ولم يكن مساره باطلا فلئن بدا عبثا به من قدر ساخر، نهايته في بدايته فلإنه لا محالة مجلى عظمة الجهاد. فالقصة من جهة تركيبها المقفل مأساة ومن جهة رمزها المطلق ملحمة. والنص الأدبي لا ينغلق على نفسه في حدود مبناه إلا لينفتح من الداخل على لا نهاية معناه.

وقد نوّع التكرلي في أشكال القصّ باكرا. فهذه، في «همس مبهم»، «يوميات» تقطّع الأحداث قطعا متفرقة مؤرخة بأيامها موقتة بساعاتها فتطرد حركتها في سياق الزمان وثبا فوق فجواته دون أن يختل نظامها وعبر لقطات مختارة مركزة تتدرج في النمو إلى غايتها. وبهذا السرد المتخلل تتوارد لحظات القصة على القارىء متباعدة في الزمان متقاربة في المكان فيجد في هذا الإيقاع القافز من نشوة السرعة ما لا يجده في الاسترسال. وقاصّنا حفيّ بقارئه يروّعه ويمتعه. وهذا، في «التنور»، «خطاب» يدور على نفسه لفّا فيثبت وينفي ثم يعود فيثبت ما قد بقي لينفيه ثانيا. فيكثر فيه القول والنسخ والبوح والنكث والإقرار والدفع. وينتشر نسيجا متلاحما من الصدق

والكذب يشعب علينا القضية حتى تغمض وفيه مع ذلك للقارىء اللبيب علامات تهديه وإن دقّت إلى وجه الحقّ في تلافيف الباطل. فيخرجه بالضرورة من سلبية التلقي إلى تنشيط الفكر لحاجة الفهم. فما كل قصة متاع «يستهلك» هنا.

ثم ككلّ الكتاب المجدّين واكب التكرلي آداب عصره وما حدث فيها من مذاهب في السرد. ويظهر هذا بقوة في نصوصه الأواخر. فكلّها يعمل على وجهين، فتلعب «الأزهار» على الظاهر والباطن من وهم حقيقة، و«ذاك النداء» على الواقع وما فوق الواقع من جنون وعقل، و«م.أ.ر.ع.س.» على اليقظة والحلم من رؤية ورؤيا. لقد تشعبت الحياة فيها جميعا ولم يعد موجودها يحدثنا بلسان واحد، ازدوجت معانيه فهو الشيء وضدّه : وضوح وغموض وصدق وكذب وحق وباطل وخير وشرّ. ذهب الصفاء فاشتبهته الأمور وتذبذبت ويقي القارىء في شكّ منها حائرا بين بين. غير مريح موقفه هذا ؟ وهل قصد الكاتب غير إقلاقه حتى لا يطمئن إلى شيء من دنياه ؟ فات عهد الهدهدة والواقع مِخْضاض فسحب مقعده من تحته حتى يهب منتبها. فلكلّ زمن قصص. والواقع اليوم أخضّ فما عسى أن يكون قصصنا منه ؟

وفي «الأزهار»، إلى ذلك، لعب بالضمائر أضاف إلى قصنا جديدا. يتردد السرد بين «أنا» الراوي و«هو» البطل جيئة وذهابا حتى كأنّ هذا «القاتل» هو ذاك «الفاعل». ومن أين ندري ؟ إن قلنا الراوي هو البطل ابتعد عنه وقال : هو هو وأنا أنا. وان قلنا البطل غير الراوي اندمج فيه وقال بل هو أنا وأنا هو. ومن داومة الضميرين ندور في حلقة مفرغة ولا مخرج. وفي النهاية يلتفت «إليك» الراوي فيقول ماكرا «أكان عمله صائبا ؟» عمل من ؟ عمل البطل في «الخبر» يتخلّص بخبث من زوجته ؟ أم عمل الراوي في «الخطاب» يعبث بقارئه عمدا ثم يُشهده ؟ فيجذبه في الحالتين من موقع المتفرج ويزج به معه في القضية ولو حكما.

وللتكرلي ميل قوي إلى تقمص أبطاله وتشرب أرواحهم، هذا إذا سرد من الخارج راويا مفارقا فما بالنا إذا سرد من الداخل راويا مُباطِنا. ويشي هذا منه بصلات حميمة مع أشخاصه. فكأنه بالمداخلة منهم في القصة ولم يكونوا إلا منه في الواقع، صورا شتى من الخيال. بعقولهم يفكر لا بعقله، محايدا، وبإحساسهم يحس وبلسانهم أحيانا يعبر وإن كان الكلام من خطاب السارد. يعايشهم في محنتهم، وإن همّه مصيرهم إلى هذا الحدّ فلأنه يريد أن يهمّنا به حتى ندخل معه في القصة. وجه من وجوه التأثير فينا من ثنايا الخطاب. وكم من مرّة تنتهي به هذه الممازجة إلى اتحاد كامل بالأشخاص فتذوب ذاته في ذاتهم فلا نعرف أيهم في النص المتكلم أهو يترجم عنهم في الخيال أم هم عنه في الحقيقة يترجمون ؟ وما لم يكن السرد بلسان المتكلم يكثر، وهي قاعدته، من الذهاب والإياب بين الخارج والداخل ويعرف متى ينبغي أن يتصل ومن ينبغي أن ينفصل، متى يحلّ حلولا ومتى ينسلّ مغادرا، كحاله في الخواتم إذا نزلت بالأبطال الكارثة. يتركهم وحدهم مع مصيرهم ويقف عنهم صامتا كأنه من الهول قد حبس أنفاسه.

ووصّاف هذا الكتاب، عينه مفتوحة يقظة تختطف لنا، ولو مرورا، صور الناس حيثما كانوا، في البيت كالخالة : «سمينة ملفوفة بالسواد وفي وجهها طيات هائلة من اللحم المغضن». أو في الشارع كمهدي : «كان وجهه محفورا بدماميل قديمة وصلعته لا يخفيها شعره الخفيف...»، أو في القطار كالكردي «بلباسه الأزرق المخطط بالأرجواني الغامق وخصلات شعره السوداء المطلّة من عمامته وأنفه المقوس ذي الشعيرات وشاربه الكث المتدلي على جانبي فمه المفتوح وجسمه الممتلىء كجسم الجاموس». ولا يعفينا، إن لزم، من رقبة القميص المفتوحة على الصدر الأشعر لنعرف «الدكتور» كيف هو، وحتى، إن لم يلزم، من «حكّة الخدّ» مجّانا، فهي من الحركات الآلية في الواقع فلم لا تكون كذلك في شبه الواقع ؟ وإذا غاص في البواطن فلا مزيد على ما قلنا وحسبنا إضافة أن الأحداث في القصة

يصبح لها إذاك ركحان : العالم والنفس، لا نهايتان تتناظران وتتخاصمان فردا مع مجتمع أو كونا على إنسان. وقليل مَنْ مِثْله من كتابنا احتفى بظروف المكان والزمان. يحدد لنا الحيز بما يفيد ويعين الساعة فنعلم المكان ما فيه والزمان ما هو والطقس كيف ألوانه. وكاتبنا «ليلي» وفصله القرّ. يشعرنا بالظلمات حتى تثقل وبالبرد أو الرذاذ حتى ينفذ في مسامنا. فنعيش مع الأبطال من بيئتهم مناخها. ولا تنفصل الأجواء عن المواقف. فإن كان ليل فلسواد الفاجعة، وإن عصفت الرياح فلكارثة قاصفة، وإن اربدّت السماء فلأن النفوس رماد. بل كأن الزمان بجوه مسؤول عمّا حدث. لو لم يكن الليل وبرده أكانت تكون الفواجع ؟

والآن لغته والأدب آخر الأمر كلام. عصرية قحّة عليها هنا وهناك من مأثور الفصحى مسحات مُعتّقة. نظْمُها متلون الأنساق والصيغ، لجمله طلاقة المبسوط من الكلام، فترد سهلة المساق خفيفة الوطء. وبمقتضى الحال تبطىء في الوتيرة أو تسرع، في العرض تتمهل وفي النقلات تتعجل وإذا تكرهب الموقف توترت وتنتّرت متطايرة قصيرة الخطو متقطعة الأنفاس. لغة تساير عن كثب محكيها من الأغراض. وهي ثرية من اللفظ من غير فضفضة متعددة الجداول. عبارتها، في السرد الموضوعي، مضبوطة لأنها معنية بنقل أعيان الموجودات من حي وشيء بأدق أوصافها من المحسوس أو المعقول. تسمّي الأشياء بأسمائها وإن كانت خشناء في الأذن : «كحبة»، أو دخيلة على اللسان : «تكت»، «بكيت»، «باص» إلخ... فلا تتزمّت ولا تتسيب. ميالة في الجملة إلى الغوص بنا في المألوف بأدخل الألفاظ فيه : «قحّ» لا سعل و«كفخها» لا صفعها. أكثرها من «عريان الكلام» فلا تثقلها المجازات من تشبيه أو استعارة. له منها قسطه الكافي وما يرد من صورها ففي محلّه ومعبّر عن القصد ببساطة : «سقط مثل كيس مليء من القش»، «ثديا ككيس اللبن اليابس»، «غرفة ضيقة ترابية كجحر الفأر»، «في حركاته الخرقاء مثل فزاعة الطيور». لغة واقعية ولا جفاف فيها من

التقرير. فصاحتها في دقة الأداء بالكلمة المناسبة وبلاغتها في تجردها من أردية البلاغة. تصلح نموذجا عربيا «للكتابة البيضاء» تلك التي عناها «بارط» بـ«الدرجة الصفر» ويمدح بها ولا يذم أسلوب المحدثين من كبار الروائيين الفرنسيين. ومتى انقلبت إلى السرد الذاتي جاش بحرها تهزه حيوية مدهشة وتدفقت أمواجه من الكلمات تثب وثوبا زاخرة بمعاني الوجدان والإحساس والفكر، وتذبذبت في الدلالة تذبذبا مفصحة ملوحة بين تسجيل ورمز فتدخل في الإيحاء كلغة الشعر : «ولم يكن أمامه غير الظلمة وغير قاع مجهول لا يؤتمن». ظلمة الليل أم ظلمة الدهر ؟ وقاع النهر أم قاع القدر الراصد ؟ فإذا حدثت بشيء هجست بأشياء فوسعت من أفق المعنى. وبالترديد تشرف على الغنائية : «يشعلونها نارا تسطع في الليل... في الليل تسطع كمنائر الكاظمية. كمنائر الكاظمية الذهبية اللامعة. هناك ينتظرونه قرب نيرانهم الطيبة التي تلمع كمنائر الكاظمية... المنائر الذهبية اللامعة». يغفي البطل من الإعياء فينوس الكلام نوسا كصور الأشياء في لذيذ المنام. «لن يصدقوا ! لن يصدقوا»، «وسيكونون معه، وسيكونون معه» كأنه الصوت ومن حوله صداه ينتشر دوائر. فالرجل وحده في وحشة الخلاء ولا سميع ولا مجيب إلا الفضاء يرجع إليه أقواله.

هذا التكرلي وهذا «موعد ناره» يضربه للقارىء في كل قصة.

وقد عرفته أول ما عرفته، وبفضل علي جواد طاهر، من نصيه «القنديل المنطفىء» و«موعد النار» فأعجباني ودرّستهما ثم اجتمعت به في باريس وكانت صلات وصرت بعدها ألقاه بين بغداد وتونس، وبها الآن يقيم. فأمدني بكامل انتاجه وانبعث فيما بيننا مشروع هذا الكتاب. وهو رجل مهذب كيس وعلى حيوته إذا تحدث يبدو رقيق العواطف هادىء الطبع فالعجب لكل هذه النيران في قصصه من أين أتته ! ولكنه في باطنه شعلة من «أرض النار» تلك، العراق ذي البركان الفوّار. وقد سرت إلي من القصص ناره وقامت الحرب فكانت نارا على نار. وعلى ضوئهما كتبت إليك، أيها

القارىء، عسى أن تجد في هذا الكتاب، بعد نارك من الظروف وقبل موعدك مع نار النصوص، من هذه المقدمة مزيدا من النار.

وبكلمة مأثورة عن أبي هريرة المسعدي افتتحتها ولم أر لها خيرا من قول المتنبي خاتمة، وشأن شاعرنا أن يلقانا ونلقاه في أحد ساعات مصيرنا كأنه على وجه الدهر وعي لنا وضمير :

فلله وقت ذوّب الغش ناره فلم يبق إلا صارم وضبارم

باريس ــ فانسان جانفي ــ فيفري 1991

توفيق بكار

بدرت بوادر هذه المقدمة في ذهني قبل «أزمة الخليج» وشرعت في تحريرها وقد قامت الحرب وفرغت منه ولمّا تضع أوزارها. ثم انتهت بما نعلمه فأحجمت عن نصي وبعد تردد دفعت به دون أن أغير من معانيه الأصلية شيئا، تسجيلًا لأحوالي قارئا كاتبا. وكل تحليل فسياقه من التاريخ.

(1) «ماء الحياة» في الفرنسية اسم لكل مقطر شديد من الكحول

موعد النار

رأى رفاقه الخمسة يختفون عند وصولهم الجسر. لبثوا يسيرون ببطء، واحدا إثر الآخر، على مرتفع السكة، والشمس الغاربة تزيد في مظهر بؤسهم، حتى وصلوا كوة الحارس فتوقفوا عندها لحظات ثم اندفعوا عابرين وتوارت أرديتهم وراء سياج الجسر. اضطر ان ينتظر هبوط الظلام كي يخوض خلسة نهر ديالي الى الجهة الأخرى. أخبروه أن الماء غير عميق وان جميع الرفاق الذين لا يملكون جواز سفر قد خاضوه قبله. وبعد هذا النهر ستمتد الطريق أمامهم الى الكاظمية مستقيمة مستوية، وسيكون من الهين ان تقطع سيرا على الأقدام، حيث لا شرطة تطاردهم أو تعترض سبيلهم.

كان جالسا على حجر كبير تحت جدار بستان، فارشا كفية في حجره عليها عدد من قطع الخبز الجاف وبضع تمرات يابسات. وكان المساء كئيبا أسود في هذه البلاد الغريبة ذات النخيل. كل امسياته ولياليه كانت كئيبة تقلق فؤاده. ومنذ أن ترك ورفاقه كرمنشاه لم يشعر بمثل الوحشة التي انتابته حين دخل حدود العراق. ومع ان بعض الايرانيين الأشرار لم يتخلوا عن طبيعتهم الخبيثة تجاههم، فإن آثار قبضاتهم على وجهه ورأسه لم تكن قط مؤذية

مهينة مثل ضربة ذلك الأعرابي. خرج إليهم وصار يكلمهم كأنهم ملك له ولأبائه. ولم يستطع أن يغصب شيئا منهم، لكنهم حصلوا على آثار رضية مختلفة في أجسامهم من جماعه الغليظ. كانت ليالي باردة قاتلة، ولولا رفاقه الطيبون ما استطاع أن يسير كل هذه المسافة بين قصر شيرين والنهر في ستة أيام. أخبرهم علي أصغر أمس أنه وصل ضريح الكاظمين مرة بأقل من شهر، وأضاف أنهم سيصلون هذه المرة في عشرين يوما. ولم يعلم عبد الرضا أيتكلم علي أصغر عن أمور يمكن أن تحدث، أم أن سيجارتي الافيون التي دخنها قبل ذلك، قد فتحت له آفاق المستحيل فأخذ يحدثهم عنها.

سمع ضجة عن يساره ثم رأى قطارا يقترب بسرعة نافخا دخانه الأبيض نحو السماء. كان البخار يندفع منه، ومكانته ضخمة جبارة. لو أمكنه التعلق بهذا القطار الهائل لوصل مفترق الطرق قبلهم. قالوا انهم سينتظرونه في مفترق طرق خلف الجسر، وسيشعلون نارا ليهتدي بها إليهم. مر القطار أمامه هادرا هازا الأرض بعنف، فقام من مكانه ولَمّ خبزه وتمره ثم سار بمحاذاة الجدار الطيني. كان فمه يابسا تحرقه حلاوة التمر الذي أكله قبل قليل، وكان الألم في عضلات رجليه وظهره يزداد كلما قعد فترة يستريح. تطلع الى السماء، كانت زرقاء فسيحة والشمس وراء أشجار البساتين لا تزال أشعتها تحمّر سياج الجسر. أحس عطشا وتذكر انه لم يشرب الماء منذ الصباح. شغلهم الاقتراب من بعقوبة ومحاولة تجنب مراكز الشرطة. خطر له أن يذهب الى شاطىء النهر فيغتسل ثم يروي ظمأه، فأخذ الخطى.

كانت البساتين على جانبه كثيفة الأشجار، ترتفع نخلات منها حتى تمس قممها أشعة الشمس الذهبية. جذبت عينيه خلال ثلمات الجدار نقاط لامعة فتوقف يتمعن داخل البستان. كانت الأشجار قاتمة الخضرة تتلألأ بين أغصانها عشرات من البرتقال الأصفر، والأرض منخفضة عن الطريق مغطاة بالحشيش والأوراق الجافة. نظر باتجاه النهر فلم ير إلا الطريق الملتفة التي لا تنتهي، فعاد يتملى من رؤية أشجار البستان. كانت هائلة العدد متشابكة الأغصان، وبعض السواقي الضيقة تتلوى فيما بينها. رأى الماء يجري في ساقية

غير بعيدة عنه. ماء أبيض رقراق جميل، تتوثب موجاته عند المنعطفات. كأنه ماء من السماء. تلك الأعرابية الجميلة التي رآها قبل أيام، كانت تجلس على ساقية مثل هذه. لم تفزع حين أقبل نحوها ولمعت عيناها السوداوان الجريئتان لمعانا خاطفا. ولم تفهم لغته، وكان جسمها حارا يبعث الحياة. لكن الرفاق أخبروه بعد ذلك كم كان خطرا فعله، رغم أنهم لم يصدقوا حرفا مما قاله. كانت أوراق الشجر خضراء تنحني نحو الأرض والبرتقال الأحمر يضيء فيما بينها. لعب لسانه في فمه فعادت إليه حرقة التمر. تمنى لو أمسك احدى هذه البرتقالات الثقيلات بالماء، لقشرها إذن ولامتص عصيرها البارد الحلو.

نظر حواليه، ثم رمى كفيته وعصاه خلف الجدار، وصدرت عن أقدامه خشخشة لا تسمع وآلمته عضلات فخذيه حين انحنى ورفع أشياءه وسار بلهفة يتوغل في البستان. كانت الأرض رخوة تستجيب لوطء حذائه البالي، وكانت الأغصان تضرب غطاء رأسه وتخدش وجهه. قتم النور بسرعة فلم يعد يستطيع تمييز موقع خطواته بسهولة، وخيل إليه بعد فترة أنه يسمع حركة قريبة فتوقف منقطع النفس. خطر له أن يعود الى الساقية القريبة من الجدار. كانت الأشجار ساكنة تمد اذرعها كالأشباح، والهواء رطبا ثقيلا. ماذا سيحل به؟ لم يطرق سمعه صوت وشعر بالخوف يدب إليه، فتلمس الأرض بعصاه وتابع مسيره منحني الظهر.

عثر على ساقية بعد خطوات فقعد حالا على كثب منها تحت شجرة برتقال. ماذا سيحل به لو فاجأه أصحاب البستان، وحوش هذه الأرض الغريبة؟ تحسس حافة الساقية بعد قليل فشعر بالماء يمس أصابعه المرتجفة. أزاح بعض الأوراق الجافة الطافية ثم جرف الماء بكلتا يديه وحمله الى فمه. كان ذا طعم جميل، باردا كماء الينابيع في جبال إيران. شرب مرة أخرى وأخرى، ثم غسل وجهه ويديه محاذرا مقتصدا في حركاته. كانت شجرة البرتقال منحنية عليه وأغصانها تمس حافة رقبته. رأى عدة برتقالات غير ناضجة في متناول يده فقطف واحدة منها. لم يكن مذاقها عذبا وشعر بقشرها يحرق جوانب فمه فرماها بعيدا. يكفيه في كل الأحوال ان يروي ظمأه وأن

يعلم بوجود البرتقال الحلو الأصفر في البستان. تراجع في جلسته حتى استند الى جذع الشجرة بظهره. آلمته النتوءات البارزة الحادة، إلا أنه لم يرفع ظهره المتعب ومدد ساقيه بطولهما أمامه. كان الجو مشبعا برائحة الماء، وبعض النسائم الخريفية الباردة تمر على وجهه. لعل الرفاق الآن قد وصلوا مفترق الطرق. ترى هل سينتظرونه هناك؟ وهل سيشعلون نارا؟ أم.. أم أنهم سينكرونه في اللحظة الأخيرة؟

لكن علي أصغر كان قد أحبه وآثره على الآخرين. وبيد على الأصغر قيادة الرفاق، لأنه أكبرهم سنا. لحيته الرمادية منسدلة على صدره ومسبحته الطويلة لا تفارق يده. لقد أحبه لأنهما من بلدة واحدة.. كرمنشاه، وحكى له الكثير عن سفراته الى الكاظمية والنجف وكربلاء. في الكاظمية، حيث سيصلون بالتأكيد بعد عشرة أيام، يوجد ضريح الامام الكاظم. هناك منائر من الذهب تلمع من بعيد وتسطع تحت نور الشمس. منائر عالية مدفونة رؤوسها في السحاب، كلها من الذهب الخالص. تلمسها فتلمس الذهب.

كان الظلام يتكاثف في البستان سريعا، لم تعد عيناه تريان غير الأغصان القريبة من وجهه وغير بعض الضوء في الساقية. والسكون تكامل بعد أن صمتت العصافير اثر غياب الشمس لم يتمتع بجلسة كهذه منذ أن رأى الاعرابية. ورغم لدغ الأرض الرطبة لأليتيه وساقيه وضغط النتوءات على ظهره، كان يشعر برغبة في البقاء هنا الى الأبد. كانت كحيلة العينين جريئة لا تعرف كلمة من لغته. قال لها «سلام عليكم» فلم تجبه. وقال «فارسي فهمي ديش؟» فلم تجبه. آه.. وكم كان جسدها أبيض مشتعلا. لكنها تركته وفرت، ولم يصدقه الرفاق.

أطبق عينيه فشعر بوحشته يخف وطوءها. هذه الليلة سيبزغ القمر متأخرا، ولن يساعده على توضيح معالم الطريق، لأنه سيقوم الآن ويترك بستانه هذه ليخوض النهر.. ليخوض النهر.. ويخوض النهر حتى يصل الجهة الأخرى حيث ينتظره رفاقه الطيبون قرب وهج النار المرتفع. يشعلون نارا تسطع في الليل... في الليل تسطع كمنائر الكاظمين.. كمنائر الكاظمين

الـذهبية الـلامعـة. هنـاك ينتـظرونه قرب نيرانهم الطيبة التي تلمع كمنائر الكاظمين.. المنائر الذهبية اللامعة.

* * * *

لم يكن الـظلام كثيفا حينما فتح عينيه. كان القمر ناشرا ضياءه على الأرض والأشجار والساقية، والهواء يتلاعب بين الأغصان ويحرك أوراقها. لم يعلم أول وهلة أين ينام، وشعر بقشعريرة تسري خلال جسمه كله. هل فاته الوقت؟

كانت أطرافه متثلجة وعظام ظهره تؤلمه بشدة. أمسك بكفيته وعصاه وزحف بضع خطوات ثم قام يسير. كان رأسه دائخا وجسمه متثاقلا متراخيا، وكـان الجو حوله موحشا لم يخفف من وحشته ضوء القمر. سمع أثناء سيره أصوات أغصان جافة تتكسر خلفه، فثبت في مكانه. كان قلبه يدق أضلاعه بعنف وسرعة، وعضلات ساقيه متصلبة. ماذا سيحل به؟ أراد أن يدير نظره، فخشي أن تحدث عظامه صوتا ما. هل يسعى صاحب البستان إليه؟ يسعى إليه للفتك به؟ وانتبه الى العصا ترتجف في يده. ماذا يعمل؟ وصرخ في داخله صوت مجنون يدعوه للفرار، للركض بأقصى سرعة، للنجاة، فاندفع مذعورا خلال الأغصان الواخزة شاعرا بوحش هائل يطارده.

كانت الأرض تسحب قدميه إليهـا فيجـرها بكل قوته وينتشلها من الأيدي المتشبثة، وكانت عصاه وكفيته ترتطمان بالجذوع دون ارادته. سمع رغم ضجـة ركضـه أغصانا جافة تتكسـر خلفه. كانت الظلال أمامه تخيفه كالموت وكان يقفز كلما فاجأه ضوء القمر. هل سيقضون عليه؟ وكان يحس بقوة خارقة شيطانية تمسك بجسمه وتدفعه كالمخبول نحو الجدار. رأى ساقيه أمامه ورأى خلفها الجدار الطيني وثلمته التي اجتازها قبل ساعات. خطوات قليلة أخرى ويأمن على حياته، وشعر أنه سينجو، فاجتاز الساقية، ثم رمى كفيته وعصاه وراء السور وتسلق الأحجار التي اعترضته. وكان فوق الجدار

تماما، في نفس اللحظة التي آمن فيها بسلامته، حينما سمع الانفجار خلفه وأحس بالنار تخترق أسفل ظهره، ثم لطمته أرض الطريق على صدغه. وسكن كل شيء من حوله.

كأن هذه الدنيا الغريبة لا يسكنها بشر، لم يعرفها الانسان ولم يحب ويتوالد عليها. كان طنين رأسه مختلطا بالاحتراق الهائل الذي يأكل أسفل جسمه. لم يدرك بوضوح ما أصابه وماذا سيحل به، وكان يرتجف بقوة ويئن وأنفاسه مختنقة. كان منبطحا على وجهه، وأنفه وفمه مدفونين في التراب. حرك رأسه قليلا ووضع خده الأيسر على صفحة الأرض ثم فتح عينيه. كان ضوء القمر يلون الطريق بصفرة شاحبة. هل سيموت هنا؟ والليل والبساتين والسماء ساكنات ساكنات. وأدرك في لحظة كل ما أصابه. كلا، كلا، لن يموت على هذه الأرض الشريرة. نفض التراب عن عينيه وفمه وأنفه ثم مد يده متحسسا مكان الاصابة. تلطخت أصابعه بسائل لزج دافىء وشعر بالدماء تصدم انامله منصبة من الجرح. كان الثوب مثقوبا ومدخل الطلقة في اللحم منفغرا ممزق الحواشي. ازداد ارتجاف جسمه فجأة وأحس بقشعريرة تنتابه بين آن وآخر. كانت أسنانه تضرب بعضها، وبدا مستحيلا له ان يسيطر على زمام أعصابه وان يسكت صرخاته التي بدأت تنفلت من بين شفتيه الجافتين. سيموت هنا في كل الأحوال ومهما عمل. ولن يستطيع ان يصل ثار الرفاق، لن يرى وجوههم ولن يعثروا على جثته المعطوب. والكاظمية ومنائر الذهب وكل أمانيه التي كان سيطلبها من الامام الكاظم ستموت معه هنا ولن تجد قبرا، مثل جثته التي ستأكلها الجوارح قبل ذلك.

خيل إليه أن شيئا ما يسيطر عليه، فضغط أسنانه بكل قوته وكتم تأوهاته وصرخاته الحيوانية. ثم سكن لحظة، وشعر بنفسه يستطيع أن يزيد أمرا ما. ألم يوقف ارتجاف فكيه؟ رأى كفيته وعصاه على مبعدة منه، فأمسك بالكفية وأفرغ محتوياتها ثم طواها مرات ووضعها فوق الجرح. لم يشعر بألم يزيد وعادت أسنانه تقرض بعضها. سيحاول ان يقوم الآن. كان أسفله مطموسا في نار لاهبة تأكله بشراهة وباستمرار. تناول عصاه واتكأ بها على

الأرض ثم رفع رأسه وجذعه الأعلى قليلا. شعر بأنفاسه تتقطع، فلبث لحظات يستنشق الهواء ملء رئتيه. كيف سيمكنه أن يسير، أن يعبر النهر وأن يصل نار الرفاق؟ خطر له أن يحرك ساقيه. كان قلبه ينتفض في صدره، وعندما انقلب على جهته اليسرى انزلقت العصا على التراب وتهاوى متمدّدا على ظهره.

سكنت الدنيا حوله مرة اخرى، وفرغ عالمه من كل شيء إلا الألم. لم يكن فاقدا مشاعره بصورة تطفىء احتراقه، وكان ثقل جسمه يضغط على الجرح فيحس بفؤاده يختنق. عاد إليه الارتجاف والصراخ الحيواني وكان يحرك رأسه حركات هستيرية سريعة ويضرب الأرض براحة يده الطليقة. ومضت هنيهات قبل أن يدرك وجود العصا في يده، فعصرها بقوة واتكأ عليها مرة أخرى ثم انقلب ببطء على بطنه. كانت ساقه اليسرى لا تزال معه، فشاها إليه واستند على ركبته وعصاه ثم رفع جذعه. ارتجفت العصا بشدة تحت ثقل جسمه فاستند على ذراعه اليسرى. سمع صرخاته كأنها تأتي من بعيد، وكان انتباهه موجها نحو ساقه اليمنى. تحسس الجرح فوجد دماءه لا تزال تسيل، وكانت ثيابه ملوثة بالتراب والطين. انزل راحته وأخذ يضغط على فخذه الأيمن فلم تستجب أعصابه واشتد ألمه. ها قد فقد ساقه اليمنى، وعليه الآن أن يعبر النهر ويسير الى رفاقه بساق واحدة. أمسكت حنجرته جهشة حارة فاضت من صدره.. وبكى. لولا هذا الألم، آه.. لولا هذا الألم.

قطعت بكاءه قشعريرة عنيفة اخترقت جسده. ليس أمامه سوى أن يزحف نحو الشاطىء. لا يمكنه أن يفكر بشيء آخر. كانت الطريق الى يساره مضاءة ضيقة ذات ظلال، تنحصر بين مرتفع السكة وجدران البساتين، ولم يكن قادرا على رؤية الشاطىء. استدار قليلا ثم توقف. لفتت نظره على الأرض بقعتان سوداوان داكنتان. هذه دماؤه. وشعر بعاطفة غريبة نحو تلك القطعة من التراب. ان عليها من ذات نفسه شيئا عظيما. ولكنه سيتركها تجف هنا تحت الشمس القاسية وسيستمر في سيره نحو النهر. هناك سينزل يخوض مياهه التي لن تتجاوز ركبتيه إلا بمسافة قصيرة كما أكد له

الرفاق. كان مدخل الطلقة بين أعلى أليته اليمنى وأسفل ظهره، وكان يهمه أن يشعر أن المياه لن تصل جرحه. وهذه الرصاصة المستقرة في جوفه، سيحملها الى رفاقه، ولن يصدقوا، لن يصدقوا.

أمسك بعصاه قويا ثم استوى واقفا مركزا ثقله على رجله اليسرى ثم جر ساقه الميتة متكئا على العصا، وخطا الى الامام.

كان الألم يشتد عليه كلما اعتدل ليسحب ساقه اليمنى، وكان يصرخ ويعصر العصا بيديه الاثنتين. شعر بعد بضع أمتار ببوادر غيبوبة تنتابه. هل سيموت قبل أن يرى الشاطىء.. قبل أن يرى نار الرفاق واذرعتهم المرحبة وضريح الكاظمين؟ كانت أنفاسه سريعة مضطربة وقلبه مرتجفا؛ وكانت الطريق مستوية غير مستقيمة وكل شيء هادئا في البساتين المجاورة. لم يصل الألم الى فكره، وبقي متيقظا مراقبا جميع حركات جسمه. كانت العصا تضرب الأرض فيصدر عنها صوت مكتوم، ثم يسمع حذاءه الأيمن ينسحب على التراب شاخرا كأنفاس المحتضر. لم تكمل الطريق كما خمنها وانحدرت نحو الشاطىء. وحين وقف على حافة المنحدر الأسود، مس الهواء البارد وجهه المغطى بالعرق وانفتح الأفق أمام عينيه. كان الجرف المقابل ظلاما مبهما لا اثر فيه لضوء أو نار، وكانت مياه النهر تلمع تحته من بعيد وتعكس أشعة القمر. لم يستطع تمييز السبيل الى النهر خلال المنحدر. انحنى قليلا مستندا على ركبته اليسرى وأخذ يضرب الأرض أمامه بالعصا. لم يكن يرى إلا حجارة متراكمة مختلطة ببعضها، وخيل إليه أن الانحدار ليس شديدا كما بدا له، وقد يمكنه أن ينزل بسلام. قام من ركعته، وكان يسمع لأنفاسه الثقيلة صوتا موحشا، فمد قدمه بخشية وتهجس ووضعها على صخرة كبيرة فاحصا ثباتها. ولم يطمئن. لو وقع لمات في الحال. كان الألم ينهش لحمه وأعصابه. وأحس أثناء وقوفه بالدم يسيل على ساقه ببطء حتى يصل قدمه. أن تتألم شيء آخر غير أن تموت.

وبدأت العصا ترتجف تحت ثقل جسمه، وكان قلبه ينبض بقوة حينا ويتلاشى نبضه حينا آخر. أن تموت، أن تفارق هذه الأرض وأحياءها.

وسيطر عليه احساس بأن جسمه ينهار ويتخاذل. هكذا تألم الحسين الشهيد. ولم يكن ميتا حين كان يتألم، بل كان بين أهله ورفاقه. رأى جسمه يميل ويميل، ثم خطا خطوة مجنونة نحو الصخرة الكبيرة. لم يدرك ماذا أراد، ولم يرد مطلقا ما فعل. وأفلتته الصخرة بسرعة وشعر قبل أن يغيب عن صوابه بلطمة خلف رأسه وبالأرض الصلدة تسلخ جرحه وتمزق اللحم حواليه.

. . . لا، لم يكن حيا. لم يستجب لآهاته الرب أو الحياة. كان منطرحا على الساحل الرملي يستمع الى مياه النهر تهمهم بهدوء قرب أذنيه، وكان وجهه نحو السماء الغبراء وعيناه لا تريان نجومها.

كشفت له يقظته عالما جديدا من الألم واليأس. خيل إليه أول وهلة أن الثلج يغمره من كل جانب، فلما عدل رقبته الملوية واستعان بقوة أخيرة ليرفع جذعه، لم يستطع تقدير الحد الذي بلغته مياه النهر من جسمه. كان رأسه يطن طنينا متواصلا، وكانت صرخاته وطقطقة أسنانه أول ما نبهه الى بقائه حيا.

لم يقدر على التماسك طويلا وانهد جذعه على الأرض مرة أخرى. أرابته حركة المياه الغريبة، فوضع عصاه جانبا وتحسس بيده المكان فطمست أصابعه في ماء النهر البارد. لم يفهم شيئا مما نقلته إليه حواسه، ولفتت نظره سيارة مضاءة تسير عاليا على الجسر. كان يرتجف بصورة مرعبة لم يعهدها، وكان فكره مضطربا عاجزا عن ربط مواضيع ادراكه ببعضها. رأى القمر في جانب من السماء، أصفر لا يضيء. عاد الى الامساك بعصاه، فوجد قسما منها غارقا في النهر. ماذا يجري له؟ ورأى سيارة أخرى تسير ببطء على الجسر العالي ثم تتوقف قريبا من نهايته. كانت تشع بالنور، تبدو وكأنها معلقة في الهواء. سمع أصوات أشخاص يتكلمون ويشعلون ضوءا. لم يفهم لغتهم. وفي لحظة خاطفة لمع في ذهنه المتبلد ادراك كامل لحالته. الرصاصة والدماء والنهر والرفاق، الرفاق. . آه. . الرفاق، والموعد ومنائر الكاظمية. توقف ارتجافه حالا، أوقفته قوة لا تحدس، وأخذ يصغي الى الأصوات البعيدة. أهم أعداؤه المتوحشون؟ انه لا يفهم لغتهم، ولكنها تخيفه في هذا الليل الأسود. ورفاقه؟

ماذا حل بهم وبنارهم؟ وبموعدهم معه؟

تشبث بعصاه رافعا إياها بعنف ثم اتكأ عليها ورفع رأسه وجذعه. ولم يتمن الموت رغم الألم الهائل، وكان خائفا. وجد الماء يغمر رجليه وفخذيه فانحدر خائضا فيه بهدوء. صار ينقل قدميه ببطء معتمدا على عصاه، وكان يشعر بقاع النهر لزجا وببرودة المياه تصل قريبا من نهاية فخذيه. أحس بقلق أنه لم يرد ما فعل.

سمع صوت السيارة فوقه تتحرك ورأى انعكاسات الضوء في الماء تتلاشى. كان القمر على حافة الأفق شاحبا مكسور الاطار والنهر أسود مهمهما، ولم يكن أمامه غير الظلمة وغير قاع مجهول لا يؤتمن.

شعر أن خوفه من ميتة شنيعة على أيدي هؤلاء المتوحشين، هو الذي دفع به عنيفا للقاء رفاقه. وكان يعلم أنه قد يموت قبل رؤيتهم، لكن الشك لم يساوره في لقياهم لو استطاع أن يتغلب على النهر والألم. وكان يحس بقوة غامضة تستخدم جسده فتحيل البرد والألم والانهيار الى أمور لا معنى لها.

توقف متهجسا حينما شعر بالماء تزداد سرعته. كان الظلام يحتويه، لا تشقه إلا أضواء الجسر الضئيلة، ولم يستطع أن يتميز خطوط الشاطىء المقابل. هل سيصل؟ وعاود مسيره.

بدت له هذه الفكرة تافهة لا تدل على شيء، لأنه، بكل كيانه، لم يكن يفهم معنى أن يعود أو أن يموت. كانت أرجله تمس القاع ثقيلة كأنها ليست له، وكان جسمه الطامس في الماء متثلجا متخدرا. سمع فوق الجسر ضجة كبيرة ورأى انعكاسات حمراء على صفحة النهر. كان الماء يصطفق برتابة والهواء يضرب وجهه وعنقه باستمرار. شعر بالبرودة تتصاعد الى الأعلى قليلا إثر كل خطوة قصيرة يخطوها. لم يخطر هذا بباله. تغمره المياه وتخنقه، بعد كل شيء، بسكون. وبقي يخوض قابضا بشدة على عصاه. أتراهم أخطأوا حين ظنوا النهر قريب القاع؟

كانت أنفاسه ثقيلة وكان يحس بالضعف يدب في يديه المرتجفتين. لا يمكنه أن يتوقف مطلقا. بدأ الدوار في رأسه يشل حركاته ويخمد نظره.

سيتلقونه بفرح أخوي حار وسيغسلون جراحه ويمنحون جسمه المرتجف الدفء. وسيكون معه، سيكون معه.

وصل الماء منطقة ألمه فأحس برودة أطفأت بعض ناره. لم يفكر فيما يفعل لو لبثت المياه ترتفع. سيغرق، لا شيء آخر. واستمر يسير متحسسا بعصاه قاع النهر اللزج. كان الشاطىء المقابل مبهما لا تنيره أضوية الجسر، والقمر قد اختفى وراء أشجار البساتين، وكان كل شيء حوله هادئا ميتا. لم يتضح في ذهنه المشوش معنى ان تغمره المياه وان يغرق، ولم يكن يرى أبعد من خطوتين أمامه. أن يفنى، الا يستطيع رؤية «علي أصغر» وبقية الرفاق. وكان يحس في أعماقه، بعيدا عن الألم والبرد، سكونا وتبلدا يعزلانه عن عالم جسده التعيس.

أيقظه على غير انتظار اصطدام عصاه بحجر أمامه فتوقف متهجسا منتبها. كان الهواء باردا، يمر على ملابسه المبللة فيحيلها ثلجا. ميزت عيناه المكدودتان، على النور الشاحب، حد المياه لا يبلغ إلا أسفل ركبتيه. هل انحسر الماء هكذا ولم يشعر به؟ أهو الشاطىء إذن؟ أهو الشاطىء؟

سمع صوتا مخنوقا يصدر عن ارتطام عصاه بالأرض، فتحامل على نفسه وجر بقية جسمه حتى أخرجه من الماء ثم انطرح لاهثا على الساحل الرملي. كان يحس فرحة اغرقت آلامه كلها، وكان ينظر الى السماء الشفافة وقد غمرها فيض من النور لم يعرف مصدره. أراد أن يتنفس ملء رئتيه، ملء رئتيه، وكان قلبه ثقيلا متراجف النبضات ولم يستطع تحريك جسده المنهار. هكذا يتكوم على الشاطىء ورفاقه يشعلون نارهم المستعرة على مبعدة أمتار منه، أمتار ليس غير. رأى هيكل الجسر العالي، ضخما قويا، تنبسط السماء فوقه فسيحة بيضاء. ثم التفت الى النهر فلم يميز شاطئه البعيد. كانت ثيابه مبلولة ملطخة بحمرة شاحبة. رأى قدمه اليسرى عارية من الحذاء، ويديه صفراوين مرتجفتين. أحس بوحشة تمسكه وعاوده الألم في موضع الاصابة.

كانت الأرض على الجهة الأخرى تمتد مرتفعة بضعة أمتار، والسماء متلألئة كالزجاج. لم يبق عليه إلا اجتياز هذه التلال، وأحس بالخدر يدب في أجفانه.

ازداد عليه الألم واشتد البرد، وعادت أسنانه تضرب بعضها البعض. رأى أشخاصا يتحركون ببطء على الجسر وسمع أصواتهم يتحدثون. لم يفهم لغة كلامهم، وبقي ينصت الى المقاطع الغريبة هنيهات قبل أن تنبعث فيه الشرارة. أدرك الخطر كما يدركه الحيوان، فاتكأ بكوعيه ورفع جذعه عن الأرض، ثم أراد أن يثني ساقه اليسرى فلم يستطع فانقلب على جنبه وأمسك بالعصا. كانت ثيابه تنفصل عن جسمه ثم تعود وتلتصق عليه، وكان الجرح يشتعل في لحمه كالسيخ. أتعبته حركته فتوقف يسحب الأنفاس من قلبه.

خطر له أنه قد يكون حالما، قد يكون ما مر عليه كابوسا مريعا. لعله الآن في بيته، مع أمه واخوته، ينام في فراشه الدافىء ويحلم بزيارة الكاظمية. وكان في استماعه الى زفيره وشهيقه المتقطعين وفي تحديقه في ذراعيه المتشنجين لا يدرك الحاجز بين أفكاره وواقعه. وعرض عليه «علي أصغر» المجيء معهم لزيارة ضريح الامام الكاظم فقبل غير متردد. لم يكن أبسط من ذلك الأمر ـ أن تسير حتى تصل، ولا بد أن تصل ما دمت تسير.

أحس توقفا في نبضات قلبه وانتابته قشعريرة قوية. رأى أصابعه تقبض على العصا. فتذكر أنه مدعو ليسير ويسير ويسير. انقلب كالخشبة على بطنه، وبذل جهدا خارقا حتى استطاع أن يستند راكعا على ركبتيه وراحتيه. تقطعت أنفاسه لحظة. لاحظ جلد ذراعيه يرتجف بصورة غريبة. كانت ثيابه مصبوغة بحمرة حائلة، متهدلة مبللة يقطر منها الماء. شعر أنه يجب أن يتحرك دون أن يعلم لماذا، وأخذ يزحف على أطرافه منصتا الى أصوات صدره الجوفاء. لم تستطع رقبته حمل رأسه الثقيل فتدلى نحو الأرض. كان يحس بدمه الدافىء يفيض من الجرح ويسيل على جسمه بين الجلد البارد والثياب المبللة. لا تزال في جدثه دماء اذن. لا يزال بوسعه أن يعيش اذن، لا يزال يعيش اذن. وكانت أجفانه مسدلة، لكنه استطاع أن يتهجس الأرض بأصابعه وركبتيه وهي

ترتفع أمامه، ولم يفتح عينيه. ماذا يجديه ان يرى؟ ماذا يمكن أن يرى؟ لم تعد للنتائج أهمية ما، ولم يعد يفهم أنه يحيا إلا لأنه يريد أن يسير سيرا كئيبا مؤلما لا متناهيا.

انحبس الهواء عن قلبه بغتة فثبت في مكانه. شعر بما يشبه يدا تقبض على حنجرته وتعصرها، فرفع رأسه وتحسس الرقبة المتشنجة. لم يجد غير الجلد الخشن وغضاريف الحنجرة البارزة. وكان قلبه يرف باضطراب تحت ضغط اليد القاسية. أخافه شيء مجهول يحيطه في الظلام ففتح عينيه بسرعة. كان الضوء ساطعا والشمس تملأ السماء. رأى الأرض تنبسط حتى الأفق، بيضاء خالية. تنفس بعمق هواء الصباح البارد وأخذ يفرك عضلات رقبته وصدره. شعر بأشعة الشمس تبعث فيه ثقة لا معنى لها. كان مرتفع السكة الحديدية، على بعد أمتار من جهته اليمنى، يمنع عنه رؤية الطريق. لم يشاهد انسانا، مخلوقا ما، تحت السماء العريضة الوضاءة، وكان الألم في نوباته المستمرة يخز قلبه ويضع بين العالم وحواسه حجابا تزداد كثافته. خيل إليه أنه يسمع ضجة من بعيد، صراخا وهتافات ثم نداء طويلا يجيبه الأفق بصداه الأجوف. كانت الأرض تحته منقعة بماء ثيابه، وكان يشعر برغبة في التبول. لم تكن الأصوات لشخص واحد بل كانت مختلطة غامضة لا تميز مقاطعها. كالضجة التي يحدثها أصحابه حين سيرهم ليلا، يتكلمون سوية دون أن يصغي أحدهم للآخر.

أدار بصره ناحية المرتفع. لم ير غير أشباح باهتة تضطرب. كان رأسه ثقيلا وعلى عينيه المكدودتين غشاوة سميكة. من تراهم يكونون؟ أبقي على هذه الأرض الموحشة حي يعرفه؟ خيل إليه أنه يرى الأشباح تتحرك وتقترب منه. لم تكن في نظره قوة تستطيع أن تجعله يؤمن بما ينقل إليه. كانوا ثلاثة، يرتدون ملابس غامقة ويضعون أغطية على رؤوسهم. أهم أصحابه، ورفاقه؟ شعر بجسده ينكمش ورفع بصره نحوهم عاليا. لعلهم قلقوا لتأخره فجاءوا ينشدون مساعدته. أقبلوا إليه مع الشمس لينقذوه، ليحتضنوه بين

اذرعهم الحارة. سمع صرخة حيوانية تنفجر منه، من قلبه، من كيانه. وأخذ يزحف بسرعة مجنونة نحو المرتفع.

كانت الأرض تخدش أطرافه المتحركة كأرجل العنكبوت، وكان يحس بصدره ضيقا خاليا من الهواء. لم يتمثل في ذهنه غير صورة أصدقائه ووجوههم العزيزة، وكان يصرخ بفرح لا يعرفه البشر ويدفع التراب المغطى بالملح فيترك عليه أثرا من دمائه. بدا له مرتفع السكة لا ينتهي، ولم يكن يرى إلا الخطوة القصيرة التي تمتد أمامه دائما إلا أنه شعر بعد فترة باستواء الأرض تحت ركبتيه.

سكن لحظات وهو يلهث ويبلل شفتيه الجافتين بلسانه عبثا. رأى منهم ظلالهم أول الأمر. كانوا يقفون فوق رأسه على مبعدة مترين أو أقل وكانت أحذيتهم سوداء تلمع كنصل الخنجر. رفع نظره إليهم. لم يرهم جيدا وكان يحس تخاذلا وقوة مبهمة تدفعه بإلحاح نحو المنحدر. كانت وجوههم صفراء محلوقة شديدة الشحوب وعلى رؤوسهم سدائر الخاكي تتوسطها النجمة الذهبية.

تطلع إليهم صامتا مذهولا. لم يفهم ماذا تعني نظراتهم الممیتة إليه، ولماذا يجثو هكذا بامتهان أمامهم وكان مرتبكا حائرا. ومرت هنيهات، ولم يدرك كيف أحس بخمود شيء ما في نفسه، في أعماق نفسه البائسة. كأن عروقه فرغت من دمها الحار، كأنه تلاشى من العالم وصار عدما أسود. وتقبضت أصابعه على حفنة من تراب واندفعت الجهشة من فمه قبل ان يستسلم لتلك القوة العمياء التي ترمي به نحو الهوة. الآن سيعرف ما هو الموت، وتهاوى جسده منحدرا يثير من خلفه الغبار. وكان يحس بنفسه يبكي وهو يتقلب على الأرض الصلدة ويسمع من بعيد أصواتا تهتف بتلك اللغة التي لا يفهمها. ولم يتذكر «علي أصغر» ولا بقية الرفاق، وكان يموت.

1955

غرباء

امتلأت الجهة الشرقية من السماء لحظة بخط متعرج لامع كجذر الشجرة، ثم انهمر المطر بشدة فسمع لوقعه على الأرض المبللة خفقا رتيبا غالب ضجة الشارع وطغى عليها. كان ينتظر تحت سقف موقف الباص ورذاذ الماء البارد يضرب وجهه بين وقت وآخر. وكان يشعر ببهجة تداخله وهو يتطلع الى المطر والى الشارع اللامع ووجه المنتظرين قربه. لم يحمل معه المعطف حين غادر المكان، وقد تمنى لو فعل ذلك كي يحفظ دفتره الأسود من التلف. كانت رسالتها في داخله ولم يكن محتملا أن يصلها المطر.

كانوا حوله مهتمين بمراقبة المطر المتساقط بغزارة، الشيخ الثرثار ورفيقه الصامت والشابة الملونة الوجه وفتاتها السمينة. جمعتهم سقيفة الباص الحمراء والخوف من البلل، وكانوا يتبادلون النظرات خلسة فيما بينهم. لم يسعهم الا يشعر أحدهم بوجود الآخرين، ولم يتغلبوا على خجلهم الطبيعي فيتفحصون رفاقهم بصورة مباشرة. وهكذا كل الأمور هنا. تذكر وقفة على سطيحة الأتوبيس في باريس، والمطر ينهمر مدرارا وقربه بعض الأشخاص الصامتين. كان الهواء معطرا باردا، وكان يحس أنهم ـ قربه ـ لا يشعرون بوجوده بينهم،

وانهم ضد هذا الوجود وضد وجود كل واحد بين الآخر. كان ذلك تأديا واحتراما، ولم يشعر آنذاك بانزعاج منه.

سمع الفتاة الصغيرة المليئة الجسم تكلم أمها:

-ماما، بردانة. شوكت يجي الباص؟

فانحنت عليها الامرأة الملونة ورفعت يافة ثوبها ثم همست في أذنها كلاما مبهما بلهجة حنونة. تطلعت إليه الفتاة الصغيرة وفي عينها شكوى وعدم تصديق. كانت في السادسة من عمرها، ذات عينين مدورتين واسعتين. ابتسم لها ابتسامة خفيفة فرمشت أجفانها وانصرفت بنظرها عنه. هذه المخلوقات الصغيرة الرقيقة لها مشاعر وردود فعل متشابهة في كل مكان. لم تزل نفوسهم لم يفارقها الصفاء، لم تمازجها عقد الضغينة والتهديم والابتلاع. كان الأطفال الفرنسيون هكذا. كأنهم نزلوا من السماء الصافية وليس من عروق آبائهم التتنة. كان ذلك الطفل يلاحقها بحياء في فرساي، حين كان يلتقط لها صورا. يقف قربه ويداه خلف ظهره وعلى فمه ابتسامة لا معنى لها، فيمنعه من كل مشروع. وكانت مولعة بكل طفل، لكنها امتعضت حين رأت هذا المخلوق الفضولي اللطيف يأخذ قسما من انتباهه عنها وهتفت بغير حياء «ولكن هذا غير محتمل». واضطرا ان ينسحبا بسرعة، وبقي الطفل يرقبهما وعلى فمه تلك الابتسامة التي لا معنى لها ومن وراءه السجادة الخضراء. كأنه فقاعة ذهبية فوق غابة قاتمة الخضرة. ولم ينسه وهو في وقفته تلك. لقد أفسد مزاجها ولكنه آنسه ولعب بقلبه. وهي تذكره في رسالتها برحلتهما هذه القصيرة.

رأى الباص يشق ماء الشارع ويتجه نحو سقيفتهم بدون صوت. كان سطحه مغسولا ولونه الأحمر لامعا، وكانت ضجة المطر تسكت ضوضاءه. اقترب منهم ووقف ثم انفتح الباب بضربة سريعة. اندفعت الامرأة الملونة وصغيرتها نحو درجات السلم الحديدي دون انتظار لحادث آخر، وارتمى الشيخ باستهانة مفاجئة خلف المرأة وقد بدت على وجهه امارات فزع مجهول السبب. كانت الامرأة قد أمسكت بالصغيرة أمامها ودفعتها لتصعد حينما ظهر

أول راكب يريد النزول وحينما هتف الجابي يوقفها لكيلا تتقدما. وخلال لحظات بقي الجابي والراكب النازل والامرأة والصغيرة والشيخ وصاحبه ينظر كل منهم في عيني الآخر علّه يرى نقطة ضعف يمكنه بها أن ينهي الموقف الحرج. كان المطر يتساقط بخفة على الوجوه المتصلبة المرفوعة الى الأعلى باستسلام، ولاحظ شخصا ينزل من الباص بحركات عنيفة مخترقا جمع المنتظرين الصغير وراكضا نحو السقيفة. لم يتأخر أكثر من ذلك وسار نحو باب الباص ثم ارتقى الدرجات المنخفضة فشم رائحة الملابس المبللة وصدمه ظهر الشيخ الذي وقف سادا عليه الطريق. لم يفهم أول الأمر سبب هذه الوقفة الشاذة، وسمع الباب تصفق من خلفه بعنف. كانت قطرات من المطر تعكس الضوء فوق أنفه وأجفانه وشعره، فرفع يده ومسحها ثم اتكأ بذراعه وكتفه على الباب بعد ان أحس بحركة الباص. لم يتحرك الشيخ من موضعه، وانتبه الى المرأة وصغيرتها تسدان الممر، فقرر ان يحتفظ بمكانه قرب الباب.

اعتاد أن يتمتع بمناظر الطريق حين يكون في سيارة. وخلال سنواته الأربع في باريس لم يهمل هذه العادة الجميلة. كان يفضل ركوب الأتوبيس المبهج على الانحشار في سراديب المترو. لكن المناظر الآن غير تلك التي كانت تمر عليه وهو على السطحية الخلفية للأتوبيس. ان كل شيء، البنايات والمخازن والناس، يبدو مهلهلا باليا حائلا. حتى الألوان الصارخة الجديدة تكشف عن سماجة في الذوق. وكل هذه المظاهر تفضح خفايا البشر هنا، خفايا عواطفهم وآمالهم ومشاريعهم وحتى بعض أفكارهم. إلا أنه أليف الى هذه المجالي رغم ما يحاول من نكران. أليف إليها ألف مرة. وماذا يجديه الا يحبها؟؟

لقد سافر الى باريس وهو يعتقد أنه لن يعود الى هذه الديار، لن يضع بصره عليها مرة أخرى. كان آنذاك متألما كارها البشر، كارها حظه ودنياه. وعاش في تلك المدينة العزيزة المخبولة متخبطا حائرا تارة، وسيدا متذوقا لمتع الحياة تارة أخرى. ولم ينس هذه المباني الخربة المهلهلة ولا ناسها الضائعين

الساذجين. ولكنه لا يريد أن يحبها، لا يريد أن يكون قطعة منها وأن تكون جزءا من حياته.

كان الباص يسير مندفعا منحدرا من قمة جبل، ولم يفهم سر هذه العجلة، وكان المطر على تساقطه وهو يضرب زجاج الباب أمامه ضربات شديدة ملحة. سرته ذكرى باريس، وابتسم لنفسه. انه لم يفارقها إلا منذ أسابيع، لكن ذكراها تأتيه كل ساعات النهار. وراح يسترجع حوادث اليوم الذي غادر فيه باريس، حينما أحس بالنظرات تكاد تخرق رأسه. هناك شخص يركز عليه نظره الحاد، ولم يبال بها شعر. إنهم الفضوليون الخجلون دائما. لو استدار لما عثر على العينين اللتين تحدقان به هكذا وهو ملتفت عنها. ستنهزم، هاتان العينان المجهولتان، وستدفن نفسها في الظلمات السوداء. وانتبه الى تشتت فكره وضياع سلسلة الحوادث التي بذل جهده ليمسك بها. ما أسخف هذا الأمر! والتفت بسرعة نحو الجالسين، لا بد أن يكبسها، وكانت هناك تبرق بين الوجوه. أذهلته نار تلك العينين وتأججها، وخطر له لحظة أن يهرب قبل أن يهلك. كانت جالسة في المقعد الثاني ترتدي ثيابا رمادية غامقة. لم تعجل بالانحراف بنظرها عنه، وخيل إليه أن العينين الواسعتين النافذتين تمتلئان بدفق لامع من ماء رقراق. بقي ينظر إليها وهي تميل ببصرها عنه الى الشيخ الثرثار. كانت الغضون تحيط بفمها وشفتيها الحائلتين، وكان أنفها المدور لامعا. لم تضع أصباغا في وجهها الطويل ولم يبد على شعرها انه مشط باعتناء كاف. كأنها خرجت للقائه في هذا اليوم المطير! لعلها علمت أن لديه ما يقوله لها. وكان ينظر الى الخارج باهتمام دون أن يميز خطوط البنايات. لم تخطر بباله منذ عاد الى بغداد إلا الآن، وكان ذلك عقوقا منه؛ ولم تفارق ذهنه خلال أشهره الأخيرة في باريس، وكان ذلك فشلا مريعا طالما آذاه. بدأت صورتها في أسعد ساعاتها، تسكن ذهنه في تلك الأيام، حين أخذ يفتقد انسانية تلك المرأة في باريس، اعتاد، بالرغم منه، ان يضعهما معا دون أن يدرك ما نتيجة كل هذا. وخرج خلال أشهر بفسدان العلاقة الجدية

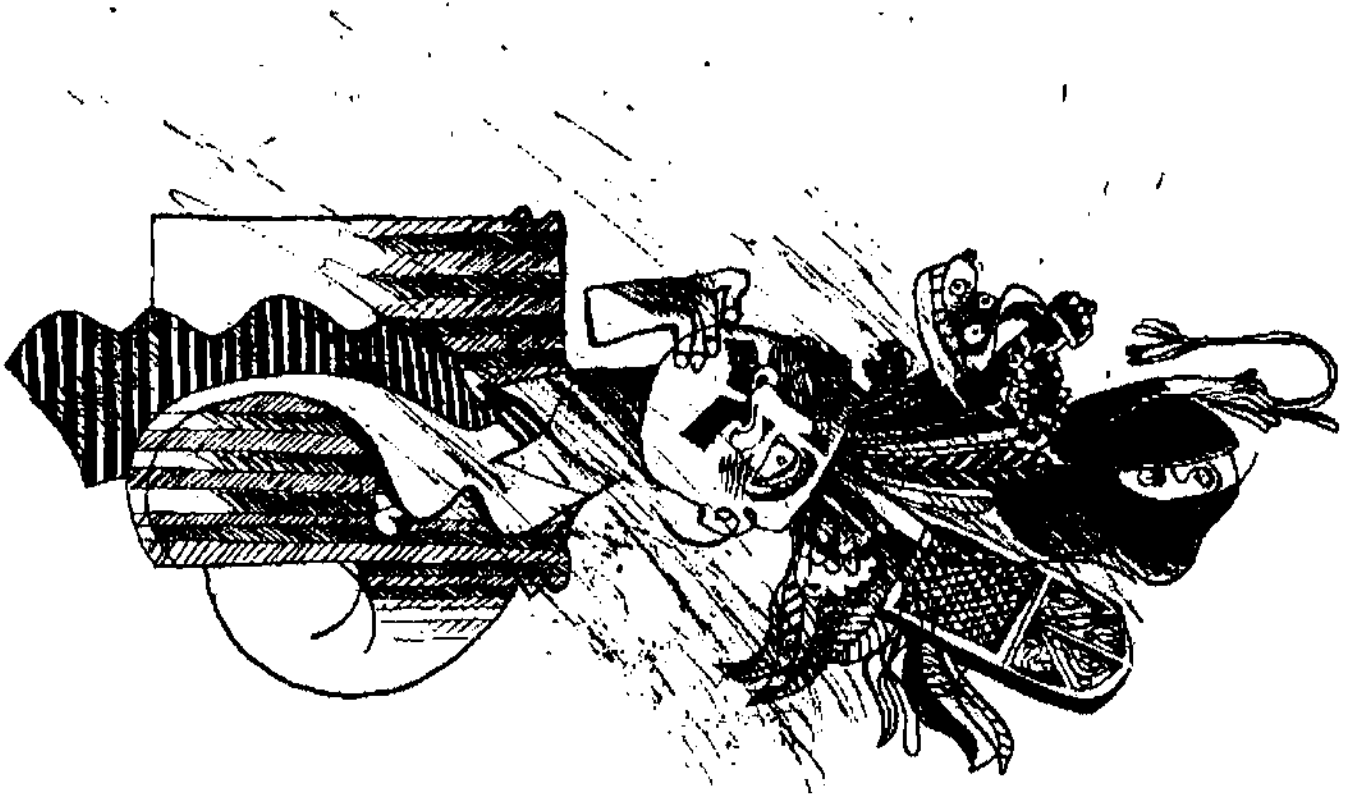

الوحيدة التي عقدها مع تلك المرأة الباريسية. أخذ يفتقد فيها الخجل الأنثوي والصراحة غير المقصودة والماضي الأبيض المضمون والفناء في شخصه. وكانت الأخرى البعيدة كالشبح، تراقب أفكاره وأدق مشاعره.

وقف الباص وقفة مفاجئة فقام بضعة أشخاص ينزلون. اضطر أن ينحشر في زاوية قرب الباب، ونظر إليها مرة أو مرتين. لبثت جالسة وعلى وجهها جمود غير معتاد ولم توجه الى ناحيته بصرها. أحس أنها منزعجة من وجوده معها في الباص. لم يسره ذلك رغم كل شيء. فرغت بعض المقاعد فاحتلها الواقفون بسرعة ووجد نفسه حين سار الباص أنه الواقف الوحيد. كان أمام أنظار جميع الجالسين، فلم يرتح لذلك وسار بخطوات حذرة فاتخذ له مكانا خلف كرسيها. لم تلتفت ولم تراقبه. كان باستطاعته أن يرى قسما من جبهتها وأنفها وخدها الأيسر وشعرها المضطرب. لاحظها تقلص فمها وتقرض شفتها السفلى بحركة خفيفة، وكانت تمسك حقيبتها بيديها الاثنتين وتضعها في حجرها. لعلها منزعجة من رؤيته معها في نفس المكان، إلا أنه لم يشعر أنه مسؤول عن ذلك أو أن عليه أن يشاركها انزعاجها هذا. رأى، خلال لفات شعرها الأسود، شعيرات بيضاء متوجهة فركز نظره عليها. تملكه، وهو يكتشف خطوط الشيب الملتوية في رأسها، ذهول عميق. كانت ماضيا حزينا، لا يبدو أنه سيستطيع تذكره دون عطف. لعل علاقته الحقيقية هي بهذه الخطوط البيضاء. انها بقايا حياته وحياتها. مدت يدها، كأنها هجست نظراته، فأمرّت بها على جبهتها وشعرها بحركة سريعة. لم يرها تضع خاتما، وكانت أصابعها نحيلة قصيرة الأظافر. لن يعود إليها شيء. لقد مرت بالحياة مرورا واحدا لا رجعة فيه ولا تكرار. إلا هو، انه لا يزال يدير العجلة ويربط نفسه، بتشبث الأعمى المقيت، الى هذه اللعبة التي لا معنى لها.

وقف الباص وقفة أخرى فدفعه أحد المارين الى جانب ومضى. فرغ كرسي قربه فرمى بجسمه عليه. شعر بارتياح وهو يسند ظهره على الخشبة اللينة وراءه. أتعبته دقائق الوقوف كما لم يتعبه أي سير طويل. نظر إليها عن يمينه. كانت على وضعها السابق، ووجهها الجانبي أمامه. لم يكن يبدو عليها

قط انها ترى أحدا أو شيئا ما، وكان خط حاجبها أسود رفيعا وياقة ثوبها زرقاء مخفية تحت الشعر. ليتها تعلم ما يخفي في ذهنه. لقد عاشت مرة واحدة، ويبدو أنها كانت تعلم ذلك. أما هو فلا يهمه كثيرا لماذا وكيف يعيش الآن. أدار نظره نحو الخارج. كانت اشعاعات الشمس المحتجبة تخترق الغيوم السوداء، وخطوط المطر تنحرف في سقوطها مع مهب الريح. لم يترك باريس مختارا ولم يجبره أحد على ذلك. كانت حياته هناك مع تلك الباريسية المبهجة، هي كل ما حلم به حين سافر من بغداد. انها السعادة التي نعتقد أننا نراها في الآخرين، ولكنها ليست على نفس هذا الاشراق حين نعيشها من الداخل. تذكر ذلك المساء في الصيف الماضي حين أوصلها الى بيتها عند منتصف الليل. نزلا في نهاية خط المترو في محطة (بورت دوتاي) وسارا في (بولفار سيشه) وهو يمسك يدها. كانت السماء صاحية سوداء مخملية تنبض بالنجوم، والقمر في جهة منها أبيض متلثلئا، وكانت أصابعها ناعمة حارة. لم يرد ان يصلا بيتها فانعطفا الى مقهى صغير. كان صامتا تدور في صدره مشاعر غامضة لم يألفها من قبل. انها سعادته ولكنها بغير طعم ولا معنى. وكانت حائرة تجهل خفايا هذه النفس الآتية من الشرق، ولم تقل شيئا. وخرجا من المقهى واتجها نحو (افني مارشال ليوتي)، وكان يشم روائح الليل في الهواء البارد مخلوطة بعطرها الخفيف. وحين وصلا حيث تسكن فاجأه ضيق شديد وانعقد لسانه، فودعها صامتا ومضى في طريقه. شعر باعياء يتملكه وهو يخطو بعيدا عن بيتها وكان بوده أن يبكي. لقد عرف خلال ذلك المساء انه لا يستطيع أن يبني أية سعادة له هنا. كان غريبا عن هذه الفتاة رغم العشرة الطويلة، ولم يكن يفهم سبب وجوده في باريس.

كانت تقلص شفتيها وتشد على حقيبتها، وكان الانزعاج باديا على وجهها. خطر له أنه بعد سنواته تلك في باريس، وبعد أن ذاق الأمرّين من نفسه ومن الآخرين ومن العالم كله، انتهى الى الفكرة التي قالتها له قبل أن يفرق بينهما الطلاق.. انه يحاول أن يخلق أوهامه. هل هي بعيدة النظر الى

هذه الـدرجـة؟ وكيف تأتى لها أن تفهمـه خلال عشرة لم تدم غير خمس سنوات؟؟ كانت بسيطة واثقة من نفسها ومن آرائها، ولم تتعود إلا في الأشهر الأخيرة من حياتهما فكرة سيادته عليها. وكانت متأخرة في ذلك، متأخرة جدا. ورأى في وجهها الكابي لون عيشتهما حين كان ابنهما لا يزال على قيد الحياة. كانا عدوين لدودين مربوطين باحكام الى بعضهما، وكانت تفتش عن كل ما يهدم من شخصه، وكان يكرهها بعنف. ولم تهمهما سمعتهما، وتنازعا وتقاتلا، وكانا يلهثان ساعات وأياما وأسابيع، ولم يبد له الخلاص ممكنا. شعر بنفسه يقرض أسنانه وهو ينظر إليها. عادت إليه انفعالات الحقد في تذكره بعض ماضيه معهـا. كان وجهها كابيا، كابيا؛ يضفي ثوبها الرمادي عليه سحنة قاتمة. وكانت شفتاها يابستين لا لون فيهما. لم تكن تفهم شيئا آنذاك، ولقد تملكه الشك كثيرا في أنه يتصرف كإنسان متحضر. ومات ابنهما فجأة، ذوت روحـه في طوفـان هذا الحقـد الأسود. وحين كان يقف فوق القبر والناس يقـذفـون بالتراب على التابوت الصغير، أدرك أنه يدفن حياته الزوجية مع جدث ابنه. وأدركت هي ذلك أيضا وانتهى كل شيء فيما بينهما.

أحـس بتراخ في فكيه. ان لديه ما يقوله لها، ولا يمكن أن يتحاشى ذلك. التفت إليها. كانت تنظر إليه؛ كانت متجهة بعينيها الغامضتين إليه. لم يلمح فيهـما معنى ما أو عاطفـة أو شعورا، وكانتا كالحجرين الأسودين النفاذين. خيل إليه لحظة أن عالم المرئيات ينسحب من حوله ليتركز في هاتين البئرين العميقتين. كانت الغضون القاتمة تحيط بعينيها وتنغرس حول فمها، وكانت شفتاها تنتفضان بحركات خفيفة. لم يرتح لنظرتها النارية اللا مجديّة، وشعـر أنـه يجب أن يدهش من تصرفهـا هذا. ألم تكفهـا سنوات معاناتهما الماضية؟؟ وتراءى له خلف لمعان الدموع في عينيها وما وراء غضون وجهها القـاتمـة وانتفاضات شفتيها، معنى من معاني العطف والفهم والاحساس بالمشـاركـة الوجدانية. هل أدركت بنظرها الحديد الى وجهه تلك الكلمات الحزينة التي كان يخفيها في أعماقه ليقولها لها؟ هل علمت بوضوح لا انساني، أن أفكارها قد صحّت عنه، وانه ذلك الخائب الذي لا رجاء فيه؟؟

كان مضطربا منزعجا، يحس ضعفا وتفككا في أعضاء جسمه. ولم تحول بصرها عنه إلا لتقوم من مكانها بحركة قاطعة فتقصد باب الباص المفتوحة وتنزل الدرجات ثم تختفي عن عينيه.

لبث في مكانه مسحورا دائخا، لم ينتبه الى وقوف السيارة ولم يدر ماذا فقد بذهابها. نظر الى النافذة قربه، ثم رفع يده المرتجفة فمسح وجهه. كان الزجاج شفافا تلوثه لطخ مبهمة. رأى من خلاله تهاطل المطر والغيوم البيضاء المشعة، وكان الباص يسير على أرض الشارع الوعرة فيهزه هزات متصلة. سمع ضجة الجالسين معه وخطر له انه ينسى المكان الذي يقصده. ماذا خرج يعمل في هذا اليوم المطير؟

كان بوده أن ينفرد بها ساعة من الزمن فيحدثها دون مرارة عما جرى له. أنه لم يفهم من الحياة عناصر جدية مهمة، ولم تكن هي محقة كل الحق. وكان بوده أن يعلم منها أنها قد استفادا من أحزانهما التي اشتركا فيها، وان يشرح لها معنى ان يكتشف المرء أن أعز ما لديه، هواء باريس المعطر وأزهار فرساي، يعود الى عالم ليس باستطاعته هو الدخول إليه. ولكن، هل ستفهم منه شيئا؟ هل سيكون بمقدورها أن تعيش شقاءه وأن تتذوق مرارة انغلاق الباب للمرة الثانية؟؟ من يدري، من يدري. سيقول لها إنه لم يعرفها أول وهلة، وانه دهش لما بدا عليها من تغير. وسيقول لها كم آلمه أن يرى خطوط الشيب في شعرها. أحس بوقوف الباص احساسا غامضا. لماذا لا يحاول شيئا؟ ان تحقيق هذه الجلسة الصميمية معها قد يعني الكثير، الكثير. لعله يستطيع الالحاق بها لو نزل الآن. لم يكن هادىء القلب حين لامست الريح الباردة وجهه وضربته قطرات المطر الخفيفة. ارتقى الرصيف وعاد يسير بخطوات سريعة وهو يضم الدفتر الأسود الى صدره. لم ير امرأة أو شخصا ما على مبعدة منه وداخله الشك في العثور عليها. أيمكن أن تختفي خلال هذا الوقت القصير؟

برقت السماء لحظات فوصلها بالأرض ضياء باهر، ثم انهمر رشاش المطر بموجات متعاقبة يلعب بها الهواء العاصف. كان حائرا غير واثق مما يريد، وكان يخشى أن تسيء الظن به وتفتح في نفسه جراحا مندملة. بقي محافظا على سيره السريع، وقد خلا ذهنه من أية فكرة، وكانت عيناه القلقتان تلاحقان هيئات السائرين من بعيد.

1962

الطريق الى المدينة

نظر عبود الى الظل في الماء تحته. كان قصيرا شاحبا متزجرجا، والمويجات تهزه وتعرجه. وقف منذ زمن على الشاطىء المبلل يراقب مياه النهر ويستمع الى تلاطمها مع الشاطىء الرملي. كان نهر ديالي غامقا في خضرة كئيبة، يهمهم مع نفسه. لا أحد معه، والعصافير هدأت في البساتين خلفه. المساء القاتم يملأ الآفاق بظلمته. لم يبق من الضوء إلا حمرة خفيفة عند المغرب. كانت الدنيا حزينة تبكي نهارا لامعا يموت. وفي نفسه، في دقائها، أحس بغصة أليمة. رفع رأسه عن الظل الشاحب اللين. كان الشاطىء المقابل تلالا تنحدر وترتفع حتى تختفي مع الأفق، والدخان المنخفض يسايرها ويحنو عليها. رأى على الجسر العالي سيارة مضاءة تمر ببطء. إنها آتية من بغداد، تلك المدينة الصاخبة العجيبة. آتية مع الظلام ليقضي ركابها ليلهم الفارغ في بعقوبة. أنهم يهلعون من البقاء في المدينة ذات الضجة. وهو نفسه، ألا يمسكه القلق حين تلبثه فيها؟ في أوائل الشتاء، عندما نزل ليجلب المدافىء من الوزارة بقي يومين كاملين. دبر له الملاحظ أجورا اضافية صرفها كلها خلال هذين اليومين. سكر مرتين وفي ليلتين متتاليتين، وذهب الى

الميدان فاتصل بتلك الفاجرة جميلة. كادت تغريه ليبيت الليل معها، ولكنه خشي أن يصاب بمرض. كانت ليلة رائعة. الميدان كله أضواء صفراء والسيارات كثيرة مسرعة والهواء بارد. إلا أنه كان غريبا في تلك المدينة، رجع بلهفة ليقضي أيامه ولياليه الفارغة هنا... في بعقوبة.

أحس بنشوة طفيفة لذكرى بغداد، فتنفس ملء رئتيه. كان الهواء رطبا مشوبا برائحة الماء. سيشرب الليلة مع هاتف الجايجي. ولو أسعده الحظ، لو استطاع أن يقنع هاتفا لجلب له هذا الأخير ولدا. مع ذلك. وكانت الغصة الأليمة تعمل في نفسه، أزادها الظلام المتكاثف بسرعة وسكون البساتين حوله وصوت الماء الجاري. سيعود الى البيت بالرغم من كل شيء. أخرج سيجارة وأشعلها حالا. لماذا يلاحقونه هكذا؟ كل شيء مفسود عليه. عمله شاق في المحكمة، عمل لا وارد فيه الآن. هذا الرئيس الجديد أبعده عن محكمة الصلح ليحطمه في الصادرة والواردة. كان هناك مع الكاتب الأول عبد الجليل، كهل أعرج بنظارات ملتوية، ينظم الأمور بحيث يخرج ثمن مشروباته من المراجعين. يأتونه عصرا في المحكمة، كان يعود إليها بحجة الشغل الكثير. وفي ذلك الجو المظلم داخل القلم والكراسي حوله فارغة كأنها بانتظار زائر مجهول وأصوات الباعة تصله ضعيفة من الخارج والمصابيح حمراء الضوء، كان يشعر بالصفاء وبرغبة صادقة ملحة في انهاء أعماله. الأنذال. لم يدعوا الرئيس الجديد يجهل كل هذه كل الأمور. هذا الفراش صبري ينقل له. الكلب.

سحب نفسا من سيجارته فالتمعت شعلتها «أيريد فلوس أشكراه. بقبر النبي فلا يشوف فلس بعد» وتلاشى صوته وبقي السكون حوله. يستدين منه ولا يعطيه آخر الشهر. وحين يطالبه بحقه يضحك بهدوء وعيونه الدكناء الصغيرة ترف أهدابها بسرعة ولا يعطيه شيئا. ويجيء بعد أيام ليأخذ منه. الكلب. قال له مهدي «لك أنت لويش خاضع له؟ قابل راح يخلقك من جديد؟» وكانت هذه هي النتيجة المحزنة. الصادرة والواردة.

سحب نفسا آخر من سيجارته فضاق صدره ثم قح عدة مرات. بصق

على النهر وصار يراقب الأثر الأبيض لبصقته على سطح الماء. يتراقص يتراقص على الماء الأسود. لم يكن مهدي محقا في قوله. يصفن مدة ثم يغمض عينيه قبل أن يتكلم. لكن مهدي.. وعاد اليه شعور بغصته في الأعماق. كالصخرة القاسية في أحشائه، لا خلاص منها، والموت يفنيها ويفنيه. وماذا يمكن أن يعمل له مهدي؟ هو مثله أيضا. لعله سيزيد من صفته، لكنه لن يقول شيئا. وقد يجيئه بعد أيام ليعيره أو ليخبره بما يتكلم الناس. وهذا لا يغير من القضية. لماذا تدفعه اذن بإلحاح حاجة مبهمة ليشاركه مهدي أحزانه؟ رأى في الماء بغتة بريق نجمة أبيض، فرفع رأسه يفتش عنها. كانت السماء نيلية، وفي جهة منعزلة منها فوق الدخان الساكن شاهد مبعث البريق الفضي. بهرته بتألقها. هذه النجمة بعيدة عنه، عن بعقوبة، عن الأرض كلها. ملايين ملايين الأميال في الفضاء البارد. فيها قصور بيضاء كالثلج والشمس لا تغيب هناك. وليس فيها محاكم وموظفون يسرقون. لا يمكن أن يجد فيها خالة سمينة كالثور مثل خالته. ليس هناك خالات وأفراح سخيفة مبطنة بأشد الآلام. الناس أغنياء نظيفون عندهم كل شيء. كل شيء. وخطر له أن لهم أخوات كحمدية. توهجت شعلة سيجارته. صار يراقب الدخان المندفع من فمه والذي أخفى نجمته البيضاء. كل هذه أوهام وقد كان قبلا يسمع عن فجائع الناس فلا يصدق انها قد تقع له. هذا يقتل وذاك يسرق وآخر.. آخر همه أن يعتدي على أعراض الناس. وامتدت اليد الخفية لتعبث بأحشائه. كان الظلام يحتويه. خيل إليه ان كوخا صغيرا على الشاطىء الأخضر يكفيه ليسكنه براحة قلب. لا أحد يسأل عنه ولا يسمع كلاما. اللغوة التي لا تنتهي. ما ان يرفع رأسه عن المخدة حتى تبدأ خالته الكسيفة. أختك، أختك، أختك. فتردد معها أمه هذه الأقوال دون وعي. على رأس التنور الملتهب والعرق ينضح من وجهها الأحمر السمين وهي تردد كلام خالته كالدمية. وهذه الأخرى متفلطحة في جلستها قرب الباب تغزل وتحكي. كأنها لا تشعران لأخته وجودا وهي تروح وتجيء بصمت عميق كالبئر. لم يعد يرى منها غير عينيها السوداوين الواسعتين، عينيها الجامدتين. في كيان هذه

المخلوقة سر ساذج يطعنه باستمرار. قصيرة بطيئة الحركة لا تستطيع أن تؤذي مخلوقا وليس لها رفيق غير قطتها. كان يراها قبل الحادثة كما يرى أثاث البيت العتيقة. تشتغل بكنس الدار وغسل الصحون وتهيئة العجين، وكان هدوؤها الذي لا ينقطع وصمتها المتصل يؤكدان عليه هذه الرؤية. غير أنها تبدلت بعد الحادثة فصارت مثارا لدفائن موجعة فيه. لم يعد باستطاعته أن يراها دون أن يحاول النفاذ الى أبسط تفاصيل ما حصل. وكان ذلك يحطم أعصابه. أراد فترة أن يتجاهل الموضوع أجمعه، ان يجبر نفسه على الايمان بسخف هذا الأمر. وكانت خالته هي العقبة الوحيدة. تجلس منذ الصباح الباكر قرب الباب تغزل وتحكي، سمينة ملفوفة بالسواد وفي وجهها طيات هائلة من اللحم المغضن. لم يعد باستطاعته البقاء في البيت فأخذ ينهزم منه وهو لا يدري كيف لبس ثيابه وأكل لقمة الفطور. ولم يقدر على مقاومة كلامها أخيرا. صار كلما زاد غيظه وألمه عما يستطيع حمله، هجم على أخته كالمجنون وهو يصرخ وانهال عليها يضربها في كل مكان من جسمها، ويشد شعرها الأسود السبط الذي تمشطه باستمرار. ولم تكن تعلم السبب. كل ما عملته.. آه، كل ما عملته كان بغير ادراك، بغير أن تتصور في ذهنها الضعيف ما قد يحدث بعد ذلك. لعلها لم تكن سوى حيوان يساق الى الذبح. حتى اذا آذاها فوق ما تطيق انفجرت باكية بحرقة وهي تصرخ «لويش، لويش، لويش» وتحمي رأسها بيدها. عند ذاك يسمع بكاء أمه. هي الوحيدة بينهم التي لا تحتمل عواطفها منظر ضرب ابنتها البلهاء. ما ان تصرخ أخته حتى تصرخ هي بعدها بقليل، دون أن تقول له شيئا، فيتحول إليها ليشتمها ويسبها ثم يخرج من البيت مرتجف الجسم وخالته تراقب كل شيء بهدوء كريه. هذا كل ما في الأمر. هذا كل ما يستطيع. أحقا، أحقا، هذا كل ما يستطيع؟ والناس مع ذلك يسرقون ويقتلون. وفي موقفه على الساحل الرملي شعر أنه أحط من حجارة على هذا الشاطىء. كان الماء يلمع ويتحرك بخفة ولين، والظلام في كل مكان. خف عن نفسه قليل من ثقلها. كلما ضربها وخرج بادرته راحة مسمومة. حتى تذكره لضربها صار يخفف عنه بصورة عجيبة. ماذا يعمل لها؟ ماذا يعمل بهذه

النفس المظلمة البسيطة؟ لم يحسب يوما ان قد تودع إليه فجأة حياة شخص أو مماته. كان هزأة يضحك عليه أولئك الناس القساة دون سبب غير قصره وتشوه جسمه. أما الآن فانهم يودعون له حياة انسان. أودعوها له بغتة وقبل أن يخطر له أنه لم يعد هزأة. ومن غير ارادة منه سيطرت عليه في لحظة حادثة كبيرة من ماضيه. أوقعوه ذات شتاء في نهر خريسان بملابسه الكاملة أمام المقهى. كم ضحكوا عليه وهو يتخبط في الماء والطين! لم يفكر أحد منهم ماذا يعمل لو كان بدله. لا يمكن أن ينسى خروجه من الماء في ذلك البرد الشديد. كان بوده أن يقتل كل أولئك الناس، وكانت العبرة تخنقه. ودفع عنه هذه الصورة المؤلمة الواخزة. مهما حاول معهم فلا يمكن أن يرفع من شخصه. أخرج سيجارة وأشعلها. كلما خطرت له منزلته شعر بانقباض هائل في صدره. كانت السماء سوداء تتفرق عليها النجوم. لم يعد الساحل الآخر غير خطوط مبهمة للتلال، وأضواء الجسر عالية فوق الظلام. سمع وقع أقدام وراءه فجمد في مكانه لحظة ثم التفت الى الوراء. ميز شبح شخص ينزل الى الشاطىء. كان يرتدي ثيابا بيضاء ويسير بخطوات متزنة. حاول أن يتعرف عليه فلم يستطع فرفع نظارته بسرعة عن عينيه. كان الشخص قصيرا قوي البنيان أسود البشرة «السلام عليكم. عبود؟ عبود خلف؟» ـ «وين رايح عباس؟» فضحك عباس ضحكة عالية مزعجة وانحنى ينزع حذاءه. «متعرف وين عبود خلف؟» فلم يجبه وأحس بالغيرة تسري إليه فجأة. سيعبر عباس الخان الى الجهة المقابلة. وهناك في كوخ مجهول المكان سيقضي ليلته الحمراء مع نسوة اشتراهن بماله الحرام. قال له بضيق.

ـ ما تخاف على نفسك عباس؟ يمكن نص الليل انت نايم يقتلك واحد.

فضحك عباس مرة أخرى ضحكة عالية مزعجة:

ـ كلبي ما يعرف الخوف عبود. كلبي مليان فلوس. ثم رفع ذيل ثوبه فعلقه بحزامه:

ـ أنت اذا عندك فلوس، تملك الدنيا كلها.

ثم هز يده وهمس: ـ رياجيلهن ويانا. اتونس وهم ويانا. شدكول بيها؟ اكوشي بعد؟

ويعود عند الفجر الى بيته، الى زوجته واولاده، يحمل صرة تحوي طعاما اعدته له أولئك النسوة. قال عبود وهو لا يزال متضايقا لغير سبب:

ـ ما نطو كياها الفلوس؟ هي تلاثين دينار لو ألف. شكد اخذت فايز؟

كان عباس يمس الماء قبل الخوض فيه:

ـ شعليك من الفايز. انطوني شوية والباقي آخذه على غير شكل. فيها لله عبود خلف.

وخاض في الماء فصدر عن خوضه صوت غريب. راقبه حتى تلاشى خافتا بياض ثيابه مع الظلام. بقي الصوت الغريب يصل عبود بعد اختفاء عباس.

هكذا بكل بساطة تتم الأمور المخزية العظيمة. وعند الفجر سيعود ايضا حاملا صرة الطعام، وسيعبر النهر خائضا ثم يسير الى بيته باطمئنان. والكل مع ذلك متفقون ان عباس الحمال سيموت قتيلا. الخونة الجبناء. ارتقى عائدا الطريق المرتفع فانحنى جسمه قليلا. كان الظلام كثيفا ومصابيح الطريق الكهربائية الحمراء تبدو كالشمعة لا تضيء غير نفسها. وبين الأشجار سرى نسيم خفيف فحرك الاغصان كانت حيطان البساتين الترابية متقاربة والدرب الى المدينة ضيقا ملتويا كالخيط. شعر وهو يسير على الأرض المغطاة بالأوراق الجافة أنه متعب. كان النور ضعيفا لا يظهر موطىء قدمه فتعثر عدة مرات، وكان الدرب يبدو قصيرا. بعد هذا الملتوى سيصل المدينة، ولكنه لا يصل والحر شديد. كلما بدت الطريق قصيرة بصورة لا تصدق، شعر بالتعب يشتد على جسمه. كان يعلم أنه مخدوع، وان الطريق لن تنتهي إلا بعد أمد غير معلوم، غير معلوم البتة. ومهما تراءت له، في ملتوياتها الكاذبة، انها في متناول يده، فلن تنقص من الضيق الشنيع الذي بدأ يسيطر عليه. كان الحر بين حيطان ترابية حامية وأشجار كأنها تنضح عرقا نقمة لا تطاق. اخرج منديلا فمسح به جبهته. خدشه جسم صلب داخل

المنديل المتكور، فعلم أنه مخاطه اليابس. متى سيصل المدينة؟ هذه المدينة التي ليس لها وجود؟ سيشرب شايا من قهوة البغدادي. سيشرب قبله كأسا من الماء المثلج. ان رأسه ينفطر.. ينفطر. تعثر في سيره «خرة بها لدرب» وتلمس الحائط ليعتدل. هاجمت أنفه بعد مسافة رائحة كريهة، فخطر له أن الطريق انتهت. بدأ يمشي بخطوات بطيئة حذرة. هذه المنطقة مرحاض لاهل البساتين. اخرج سيجارة وشعر بنسمة باردة على وجهه المغطى بالعرق قبل أن يشعلها. اتسعت الطريق بعد انحناءة شديدة واستوت الأرض تحت قدميه. صار يسمع وقع حذائه على الشارع المقير. كانت أضواء المدينة قريبة منه وصوت مغنية في الراديو يصله من عدة جهات. «يا ولد يابو العباية.. يا بو العباية ـ يا أسمر يا كاحيل العين.. العين» نظر الى ساعته العتيقة فلم ير شيئا واضطر أن يميل بها.

ـ ساعة بيش عبود خلف؟

افزعه الصوت الأجش القريب منه. ـ ها! منو هاذه؟

وميز مهدي على ضوء المصباح.

ـهلو أبو صالح.

مدا أشوف الساعة زين. يمكن بالثمانية. وين رايح أبو صالح؟

كان مهدي بغير سترة وياقة ثوبه الداكن مقلوبة على رقبته. لم يجبه وسار معه خطوات: ـ للكهوة.

ـ كهوة البغدادي؟

ـ لاع، كَهوة حسون

وصلا ساحة عريضة قرب النهر. كانت الأنوار قوية، حمراء وأخرى زرقاء وضاءة، وكانت التخوت على طرفي الساحة يجلس عليها تحت الضوء والدخان أشخاص كثيرون. سارا على الشارع المتعكر المرشوش بالماء والضجة تملأ أذني عبود. شعر باضطراب خفيف حين توسطا الساحة، وأخذ ينظر الى وجوه الجالسين. كان الضوء شديدا يضرب عينيه فلم يستطع تمييز احد يعرفه. رأى مهدي يسلم عدة مرات، فهمس:

ـ علمن دسلم مهدي؟ آني كلشي مدا أشوف

ـ على حسن وابو فريد. متبدل مناظرك؛ شنو هاي لابسها، عوجه ومفطورة؟

كان وجه مهدي محفورا بدمامل قديمة، وصلعته لا يخفيها شعره الخفيف. وكان ثوبه مفتوحا وصدره مليئا بالشعر الأسود:

ـ مو وكت تبديل مناظر هسه أبو صالح.

نظر مهدي اليه بطرف عينه وبدأ عليه كأنه يفكر بشيء بعيد، ثم ابتسم: ـ وين رايح؟

ـ متواعد ويه هاتف

كانا يسيران قرب النهر الصغير. قال مهدي: البارحة هاتف وكع بالشاحة.

فضحك عبود: ـ سكران چان؟

ـ حسب الأصول. ضحكنا عليه هوايه

ثم دلف الى الجسر: ـ آني رايح منا. فيها الله

ـ ليش متجي ويايه أبو صالح؟

فأشار برأسه وعينيه المغمضتين أن لا:

ـ فيهالله أبو صالح

سمع المغنية مرة أخرى «يا أسمر يا كحيل العين» فشعر برغبة في الغناء وأخذ يهمس ويهمهم. كان الشارع أمامه مظلما طويلا والأشجار تمتد على ضفة نهر خريسان. وكان لا يزال يغني وينفث الدخان من فمه ويسعل، حين اختفى في الظلام.

* * *

كان القسم الخلفي من دكان توما بائع العرق حجرة صغيرة تذكر عبود دائما بغرفته في البيت. ضيقة ترابية كجحر الفأر. وكان الحر فيها قاتلا لولا

الهواء الخفيف الذي يصل من المروحة السقفية العالية. لم يكن فيها شباك أو منفذ يطل على الخارج. مثل غرفته حقا. وهذا السقف من الجنفاص وخيوطه المتدلية، وجذوع النخيل التي تظهر خلال مزقه. لكن السرير الخشبي مرفوع من هذه الغرفة، ووجه هاتف الأحمر وانفه الكبير لا يعوضان عن فقدان السرير.

ـ ساعة بيش عبود خالف؟

كان هاتف أمامه، جالسا على التخت العاري وقربه كأس العرق. لم يعد يرى منه منذ ساعة غير جراوية ضخمة ووجها أحمر يلمع عليه العرق ورقبة ظاهرة خلال شق الصاية الكبير. الحائط وراءه لا لون له، والضوء أصفر جدا. لماذا يسأله هاتف عن الساعة؟ وشعر بالعرق يسيل على جبهته. رفع يده وأمسك بالسدارة السوداء. هذه السدارة اللعينة لا تزال على رأسه:

ـ أبو عارف، السدارة بعدها على رأسي، بقبر النبي فلا حسيت بيها.

لم يسمع من هاتف صوتا خلال فترة قصية: ـ ساعة بيش عبود خلف؟

لماذا يسأله عن الساعة؟ اخفض السدارة ثم دفن أصابعه بين شعره المبلل. كأن كأسا سكبت على رأسه. كأس ماء طافحة. ماء لزج مثل ماء نهر خريسان. أمس وقع هاتف في خريسان:

ـ البارحة شلون وكعت بالشاخة أبو عارف الورد؟

خيل إليه ان هاتفا يرفع رأسه نحوه. الضوء أصفر ضعيف جدا، ثم يمد يده الى كأسه فيشربها في جرعة واحدة ثم يضعها ويمسح فمه بذراعه: ـ شنو عبود؟

ـ البارحة شلون وكعت بالشاخة؟؟

فقفز هاتف من مكانه وصرخ: ـ منو وكع؟ آني؟ تخسه.

هاتف يكذب عليه. مهدي لا يكذب عليه، قال: إنه وقع في نهر خريسان. ها ها ها ها. أخرجوه مبللا بالماء القذر وزبونه متدل يتساقط منه الماء. هاتف بجسمه الطويل النحيل، مبلل والماء ينزل من زبونه قطرة قطرة قطرة. ها ها ها ها. لا ينفع صراخ هاتف. سمعه يصيح:

ـ لويش د تضحك عبود؟ تره أنعل مذهبك.

وضرب التخت الخشبي بيده. قال عبود: ـ مهدي كال أنت وكعت بخريسان البارحة. حلف بقبر النبي هو شايفك.

عاط هاتف. ـ كواويد.والله كل أهل بعكوبة كواويد.

سكن فجأة وتضاءل جسمه ثم عاد الى محله كالجرو المريض:

ـاني مقهور عبود خالف. البارحة جبار وحسين دفعوني غفل، ووكعوني بالشاخة. كواويد، هم دفعوني ويكلون هو وكع.

عدل من وضع جراويته واستمر يهمس مع نفسه:

ـ عارف ابني راح يأخذوه جندي. جندي اجباري. آني مقهور. ثم صفق وصرخ: ـ توما. لك توما. ربع لاخ. ساعة بيش عبود خلف؟

لم يأتوا لأخذ عبود جنديا. كانوا يعرفونه مشوها. ملتوي الذراعين والرجلين. ولكنهم كان يجب أن يطلبوه. لو جاؤوا لقال لهم أنه معيل ولأخرج أوراقا تثبت أنه معيل. أمه وأخته.. أخته. سمع هاتف يهمس:

ـ هم وكعوني ويكلون هو وكع.

فرفع سدارته ورماها على التخت بشدة. أوقعوه وبقوا ليضحكوا ويتفرجوا عليه. يدفعون الانسان الى الموت ثم يضحكون وراءه.

ـ شبيك عبود؟ زعلت مني؟

ـ لا هاتف. لا أبو عارف. هاي هي الدنيا. كل وكت هالشكل.

شعر برغبة تندفع من أعماقه وتصل قلبه. رغبة في البكاء. رغبة أليمة في النحيب والبكاء دما. هاتف انسان شريف. دع عنك انه تزوج فاجرة، ماذا في ذلك؟ ولكنه انسان شريف:

ـآني هم مقحور هاتف

ـ لويش؟ راح ياخذوك جندي؟

والتفتا الى توما الذي وضع قنينة العرق قرب هاتف وخرج بهدوء.

ـ لاع. لاع. شلون ياخذوني جندي؟ آني معين. أمي.. وأخت.. وأخت عندي.

ذلك اليوم فاجأوه بالخبر. لم يعلم منذ البداية ما يجري في الخفاء.

ـ وخالتك وين وديتها؟

ذلك اليوم قبل أسابيع، فاجأوه بالخبر كله. رفع كأسه وشرب جرعة العرق المرة اللاذعة. صفعوه بالخبر كله. أختك أجهضت. صفعوه على وجهه بالخبر كله. كان في غرفته. دخل الدار ليلا بعد أن طرق الباب. أمه فتحت له. كانت شعلة سيجارته تلمع في الظلام. وقفا في الممر المظلم فترة طويلة. لم يعلم السبب لكن قلبه تهجس وخفق. أخبرته أمه بكل شيء خلال دقيقة واحدة. أخته حمدية أجهضت. كانت بطنها تؤلمها فسقوها مستهلا قويا فأجهضت. أخته أجهضت. دخل غرفته ودخلت أمه بعده، وفي غرفته أدرك الأمر على حقيقته. أمسك بأمه كالمجنون وهزها بعنف. كانت تبكي وثيابها السوداء ملطخة بالعجين اليابس والطحين. مسكينة، مسكينة. كانت غرفته مظلمة مثل هذه الغرفة. ضوؤها أصفر أحمر. مثل هذه الغرفة بالتأكيد.

ـ هاتف، هاتف، شسوي خويه؟

رفع هاتف رأسه بعنف. غفا هنيهة وأيقظه عبود:

ـ ها؟ شكو؟ شكو؟

ـ شسوي خويه هاتف؟

قح هاتف ثم بصق على الأرض

ـ شبيك عبود خلف؟ أنت مو معين؟ شكو عليك. لا تخاف من شيء. عارف بس راح ياكلها، عارف راح يلبسون الكلاو برأسه.

الحيوان هاتف، شريف، لكنه حيوان كبير، ألم يعلم أهل بعقوبة جميعا بما يجري في بيتهم؟ «ابني عبود. يابه عبود. شلون ويه أختك» صوتها يرتفع وينخفض، متعبة مريضة. كلما عاد ليلا، منذ ذلك اليوم، فتحت له أمه الباب وتبعته بخطى ثقيلة الى غرفته «ابني عبود. راح أموت من دردي» ثم تجلس على حافة السرير فيبدو وجهها السمين المتعب وكأنها على وشك البكاء. لم يفهمها أول الأمر، هذه المخلوقة الهرمة الرقيقة القلب، ماذا قد تطلب منه؟ ونظر في عينيها، كانتا منطفئتين لا لون لهما. ومن نظرتها عرف

الشيء الذي تقسر نفسها على تكلفه. كانت تحب ابنتها الوحيدة البلهاء. لم تضربها في حياتها قط. ولكنها الآن، تتوسل للقضاء عليها. لم يفهم هذا التغير المفاجيء فيها. أهي خالته، تلك المخبولة الشرسة؟ انه يقرأ في عينيها الحادتين الجامدتين معنى واحدا: أقتل... اقتل. ويسمعها تحدث أمه كلاما واحدا «شرفكم عيني هذا. شيفالكم وراه؟؟ من يكدر يعيش والنغل ما لحك يموت؟ انتو اذا ما تشوفون درب، آني اروح لبغداد احجي ويه سلمان رجل بنتي» وكان هذا يروعه أشد الروع، ويخطر له أي شخص وحش سلمان هذا. ويسمعها تستمر «عيني سلمان دقيقة يركب سيارته ويجي يخلصها. سلمان جنابي واحنه عزه، والشريف ما يرضى بالموزين لكرابته. آني بعد جم يوم اشوف دربي لبغداد» وينهزم من الدار الى هذا الحد، لكن هزيمته لا تتم بخروجه من بيته. انه يشعر ان هزيمته تكمل اذا استطاع ان ينهزم من نفسه، من دنياه القذرة. وماذا سيفعلون بعده، خالته الحقيرة والناس من روائها، العالم كله من وراثها؟ أحس بمرارة العرق في فمه. رأى يده تضع الكأس مكانها على التخت. هذا هو عالمه. كان هاتف غافيا ورأسه متدليا على صدره وجراويته معلقة على وشك الوقوع. الضوء خفيف أحمر. أحس بوحدته الموحشة في هذه الغرفة الصغيرة مع هاتف النائم. كان الحر والسكون يكشفان له نفسه المظلمة المجهولة. انه لا يعلم ماذا قد يعمل بعد ساعات. أول أمس أخرج خنجر أبيه من مخبأه. كم كان منظره مخيفا عظيما! شعر أمام هذه القطعة من الحديد بضعفه الشنيع وبعجزه. ضعفه أمام الموت. ما معنى هذا؟ وأعاد القطعة تحت المخدة الى مكانها، وأخذ يتظاهر بعد ذلك كأنه اتخذ قرارا. ينظر إليهم بهدوء ويهز رأسه عند نهاية كل كلام. بدأوا يتهجسون شيئا ما وقلت ثرثرتهم. لم لا يتخذ قرارا ويكسب احترامهم الى الأبد؟ أخيرا لم لا يعمل كل شيء؟ عشر سنوات في السجن، ولكنه سيقول انه قام بدوره، كما يقوم به أي مجرم. كانت السدارة السوداء مطروحة جنبه على التخت كالجثة القديمة. لو عمل شيئا ما لكان ارتاح، لكان رفع من أحشائه الصخرة المدماة. احس بعظام كتفه توجعه. كان خشب التخت صلبا ذا أشواك، وكان هاتف ملتويا

على نفسه وجراويته قربه على التخت. ظهرت صلعته الحمراء تلمع تحت الضوء. كان نائما، والخر لا يزال يكبس جسم عبود. أحس عدة مرات بالعرق يدب بصورة غريبة على ظهره. الآن.. آه.. ها هو ينبوع جديد من العرق يبدأ من نهاية رقبته ويسيل، يسيل يسيل كالدم ببطء يسيل. وصل منطقة حزامه «خنجره بحزامه وكالب الدنيا كلب» من كانت تقصد هذه الخالة اللعينة غير سليمان الوحش؟ عبود خلف خنجره بحزامه. نظر الى حزام هاتف. كان خرقة سوداء ملفوفة. هاتف خنجره بحزامه. مسح العرق بيده عن جبينه وشعر رأسه. كان شعره مبللا. تطلع الى الضوء فوقه، السقف مبهم اللون وجذوع النخيل لا تبين بوضوح. دار رأسه وآلمته رقبته فاخفض نظره. خيل إليه كأن حرارة شديدة تسري في دمائه. تصعد من وسطه الى وجهه، الى رأسه، حتى تعلو رأسه. رأى الحيطان تتحرك من مكانها قليلا ثم تعود الى محلها. لم يفكر في معنى هذه الظاهرة. خطر له: ماذا لو سرق جراوية هاتف؟ يسرقها ثم يضعها على رأس توما، ويكفخه. رفع كأسه وشرب بقية العرق «آح» ثم صرخ: ـ هاتف. هاتف.

فتشنج جسم هاتف فجأة «لك منو هاذه؟» ورفع رأسه وانتصب معتدلا: ـ شكو؟ شكو؟

فضحك عبود عاليا، عاليا: ـ جيب جاي. زنكين بالله شويه.

كان فم هاتف مفتوحا ووجهه وصلعته الحمراء يغطيهما العرق، بقي ساكتا واجما. رفع يده بعد قليل فمسح وجهه ورأسه ثم أمسك بالجراوية فمسح وجهه ورأسه مرة أخرى:

ـ د تضحك علي عبود خلف؟ هسه وكت جاي

ـ ليش هاتف، مو شغلك هاذه يابه؟

ـ أدري: دا افتهم. لاكت بشرفك هسه وكت جاي عبود خلف؟

ـ آني... ديعجبني جاي. مرحبا أبو عارف، جاي وعرك. موشغلك هاذه؟

فاعتدل هاتف في جلسته: ـ أي شغلي، شبيه؟

ـ شبيه، كل شيء ما بيه. بقبر النبي لو بيه خير ما جان خلوك بيه.
فاعتدل هاتف أكثر في جلسته وأمسك بجراويته قويا:
ـ عبود خلف، تره اذا صعدت برأسي هسه اكوم اكطعك.
تمايل الحائط قليلا. الضوء شاحب كضوء القنديل.
ـ امشي كواد.
هب هاتف كالحيوان المفترس واقفا: ـ علمن عبود؟
ـ عليك. قابل آني متزوج كحبة؟
رمى هاتف جراويته بعنف على التخت فقلب كأسه:
ـ لك آني كواد؟ آني ابو عارف، آني ما خليت نغل يطلع من بيتنا. آني اخلي واحد يعيرني.

تدحرجت الكأس بهدوء ووقعت على الأرض فانكسرت. صارت الغرفة حمراء فجأة. نغل يخرج من البيت. اي نغل هذا؟ كان السقف يصعد ويصعد ثم ينزل بحركة سريعة. هاتف زوج القحبة، هاتف خنجره بحزامه أيضا، أين الطريق الى الباب؟ توما، توما. ماذا يقصد توما من الصراخ في وجهه؟ هذا الشارع الطويل أمامه مظلم كالبئر. هناك من بعيد، من بعيد، كم هي بعيدة هذه الأضواء؟ المدينة هناك. لم يبق له مفر. هاتف خنجره بحزامه. انتهى كل شيء اذن. كان رأسه يفور والأرض تتمايل. الأشجار تصعد من هذه الجهة، آه.. وتهبط من الجهة الأخرى. والشارع مع الأشجار، والمقاهي مع الشارع والأشجار. الدنيا تتمايل كلها. فاجأه نور ساطع ثم شعر بنفحة هواء شديدة تضرب وجهه «دير بالك ولك. جايز من نفسك» وفي رأسه لبثت دماؤه تتقلب وتغلي. كان يحس بأرجله تدفع الأرض وكأنها تتسلقها، وكان جسمه ثقيلا والدنيا تدور من حوله. سليمان الجنابي وهاتف الجنابي. وكان قلبه مجرورا من كل جهاته مملوءا بشيء كالصخر. شعر به كاد يتفجر عدة مرات. لا يمكن إلا أن ينهي كل شيء الآن. وكان يسمع صوتا أجش «لازم اقتلها. لازم اقتلها» هو صوته. لم ير أحدا أثناء سيره. كانت المدينة خالية ساكنة كالصحراء. انهم يختبئون في حجورهم كالفيران.

انهم لا يستطيعون السير مع انسان يريد ان ينهي كل شيء. الآن، في التو واللحظة. دخل دربا معكر الأرض مظلما، كان في وسطه مصباح أحمر وجدران البيوت تلتقي ثم تفترق، وكان عبود يمسكها لئلا تقع عليه. «لازم أقتلها. اكو كواد يعيرني. اقتلها واخلص» ووجد امامه بابا أسود لا ينفتح. رفسه برجله عنيفا. كانت الدنيا ساكنة. رفسه مرة أخرى. ما لهم لا يفتحون؟ رفسه، رفسه. كانت الدنيا ساكنة. رفسه مرات اخرى ثم اخذ يضربه بجمع يده. ودخل الدار فوجد امه على ضوء المصباح. كانت ملتصقة على الحائط وهي تهم بالبكاء «وينها؟ وينها بنتج؟ لازم اقتلها» ودخل غرفته المظلمة. لم ير شيئا فتعثر ثم سقط كالخشبة على سريره. كان متعبا وانفاسه سريعة قوية. أحس ببرودة الفراش، وكان بوده ان ينام هكذا الى الأبد. لكنه رأى وجه أمه المتجعد الباكي فرفع نفسه بعنف قافزا من الفراش «وينها؟ وينها؟» ثم تذكر الخنجر فمد يده الى مخدته وأمسك به «وينها؟ لازم أقتلها» كانت شفتا أمه اليابستان تتحركان، ورآها ترتجف وينهار جسمها فتقعد على الأرض. كانت مرتدية السواد ولم يشعر بشفقة نحوها. أخذ منها الفانوس وخرج كالمجنون. اخترق باحة الدار بسرعة. كاد يصدم العمود الخشبي، ثم اندفع نحو السلم الضيق المهدم الدرجات. كانت الدرجات تتفلت اسفله والحيطان تضرب يديه. سقط مرتين. احس في النهاية بنسمة تمس وجهه واستوت الأرض تحته، رأى السماء سوداء وكل شيء أمامه أسود. فصرخ «وينها؟» لم يجد الفانوس في يده، لا يدري أين وقع. شعر انها تختبىء منه، شعر أن خالته تخبئها «ولج وينها؟ طلعيها بربوك. لازم أقتلها» وركض باتجاه مكانها. خيل إليه أن يرى ملامح فراش في الظلام. انها هنا. سمع صوتا وراءه «الله يبارك بيدك» فميز فيه صوت خالته. لم يلتفت إليها وانقض على كتلة السواد الساكنة. ضربها بيده ضربة قوية، فأحس بحركة ثم هب شخص من الظلام. رأى وجها فضربه. صرخت أخته متألمة وبقيت قاعدة في فراشها. ضربها مرة اخرى ثم أخرى. صرخت، وسمع خالته تصيح «خلصها، خلصها عيني» وضربها، ماذا يعمل؟ سمع أخته تبكي وتصرخ

«لويش هاي، لويش هاي» وكان يمس شعرها الأسود في كل ضربة. كان صراخها عاليا أول الأمر ثم خفت أخيرا وصارت تتلقى الضربات بسكون وهي تنشج. برزت صورة الخنجر في ذهنه فجأة وهو مستمر على ضربها بيديه ورجليه. لم يكن عنده «وينه خنجري؟» كان صوته خشنا مخنوقا. وحين استدار تعثر وانهار على الأرض بغتة. أحس بجسمه يرتجف وسمع تهليلا يرتفع من مكان خالته ثم سمع عويل أمه من قعر البيت. كان متعبا، شبه ميت، ماذا يستطيع أن يعمل؟ قام من محله إلا أنه لم يقدر على حفظ توازنه فسقط حالا. كانت الأرض تميد تحته، ماذا يستطيع أن يعمل؟ وكان عاجزا عن الحركة، عاجزا عن الوقوف على قدميه. وبين صراخ أمه ونحيب أخته عصرت قلبه رغبة شديدة محزنة في البكاء. كان وجهه على تراب السطح والضجة حوله عالية تصدر من كل مكان، حين أحس بدموعه تندفع من عينيه وحين ضرب الأرض بيده وصرخ باكيا «ما اكدر، ما اكدر، يوم ما اكدر» غلبته، غلبته على امره؛ وتبلل التراب تحت وجهه وآلمته عظام جسمه كلها، هذا هو كل ما يستطيع. رأى نورا يسطع فوقه وسمع صياحا وتهليلا وهتافا يملأ الدنيا الساكنة. كانت أمه تبكي قربه وخالته تصرخ وراءها؛ ولم ير حمدية، ولم ير صفحة السماء.

1953

الصمت واللصوص

أحس أنه كان مستيقظا، في ظلمة الغرفة الهادئة، قبل أن تفتح الباب ويسطع النور القوي الأبيض. لم يكن نومه عميقا، لكن دفقة الضوء هزت أعصابه كمن توقظه صفعة على الوجه. كانا ملثمين. رأى كل شيء فيهما خلال لحظات. كانا ملثمين بمناديل سوداء نظيفة، تطل فوقها عيونهم البراقة. كأنها شخص بأربع عيون. تقدما نحوه بخفة. لم يكن مدركا رغم ذلك حقيقة الموقف ولم يشعر بخوف شديد. لكنهما الآن فوق رأسه يشيران اليه بالخروج من فراشه الدافيء. أراد الا يبدو عليه أنه يروم اطاعتهما. كان قلبه يخفق بسرعة مربكة، وكان يحس بغموض ان ذلك أقل ما يفعله صبي في مثل عمره. إلا أن إشارة أحدهما القاطعة بالصمت جعلته ينسى نفسه ومشروعه ويشعر بتخاذل في فكيه. لم يكونا هازلين، ولم يكن في حلم، حلم مخيف.

سحباه من ذراعيه خارج الفراش. رأى اللحاف والبطانية يسقطان على الأرض مع جسمه المجرور. كان شعوره بالمهانة يزداد مع كل خطوة يُسحب فيها جسمه كدمية لا أهمية لها. لم يتكلم ولم يقاوم. انه وقت ازدراد الكرامة. كان فمه مفتوحا يابسا متهدل الشفة. انه وقت ازدراد الكرامة. ولم يعلم

أتكون استعادتها بمثل هذه السهولة؟ اجتازوا الممر الصغير الذي يفصل بين غرفته وغرفة والديه ودفعا الباب. بهره الضوء المنصب من المصابيح والحيطان اللامعة، ثم رأى والدته جالسة على فراشها العريض. أذهله اتساع عينيها والرعب المنبعث منهما. ماذا جرى لها؟ ثم جذبت نظره الخرقة البيضاء الملتصقة بفمها. ماذا فعلوا بها؟ دفعاه نحو الفراش فوقع على وجهه. أحس بيديه تُربطان خلفه وذكره ملمس اللحاف البارد على صفحة خده بمعنى حياتهم الرضية. هل مضى كل شيء، مع احلام الليل، الى غير عودة؟ قلباه على ظهره واغلقا فمه. كانا يعملان كل ذلك بهدوء وخفة رغم مظهر الشراسة البادي عليهما. أنهضاه ثم رمياه بقسوة غير متوقعة على الكرسي العريض قرب دولاب الملابس الكبير فالتوت رقبته وأنّ رغما عنه.

ليثا واقفين جوار الباب ينظران إليه: كانا طويلين عريضي الصدر، تبين عضلاتهما مفتولة تحت قماش الثوب الناعم ويضمان «البيريه» فوق الرؤوس. لم يكونا من الهواة، لا شك في ذلك؛ ومن المحتمل أن يكون الأمر سيئا. انهم - اذ بدا واضحا أنهما لم يكونا منفردين - يبيتون لأمور جسيمة تفوق قدرة اللصوص. كان دائخا زائغ البصر، يخشى أن يعدل رقبته لئلا يسيئا إليه. وكانت غرابة الموقف تلجم ذهنه وتجعل التفكير بوضوح مستحيلا عليه. سمع صوتا يشبه الصفير الخافت ينبعث من مكان ما في الدار. أنصتا إليه لحظة وتكلمت أعينهم فيما بينها ثم انسحبا كالأشباح. وحين أُغلقت الباب خلفهما، خيل إليه أن من حقه أن يظن كل شيء خيالا، محض أوهام.

التفت الى أمه حالا. جابهته عيناها المتسعتان المذعورتان. كانتا ينبوعي قلق أسود أرجف قلبه. ان فيهما نبوءة عن الظلمات التي تنتظرهم. همهمت وأشارت برأسها وتكلمت بعينيها وبحاجبيها. صارت عروق رقبتها متينة حمراء وهي تبذل مثل هذا الجهد. شعر بالخجل في نظره إليها دون فهم لما تريده. لم يكن مسؤولا عما جرى ولكنه الآن معها أمام موقف مريع. انه بمفرده، وهو أكبر من تبقى من العائلة. ولكن أخاه الصغير، أين هو؟ كان ينام معه في نفس الغرفة وهو مفقود الآن. ترى أين هو؟ ماذا فعلوا به؟

أراد أن يسألها عنه. لا يمكن أن ينزلوا به أذى وهو لم يجاوز الثامنة من عمره. ووالده؟؟ متى سيعود من سهرته الأسبوعية؟ انها تعلم كل هذه الأمور، انها تعلم الجواب. كانت في خضم همهمات وحركات لا معنى لها وهي تهز رأسها وكتفيها، ويبدو عليها أنها تريد أن تفصح عن أمر مهم حينما دخلا مرة أخرى.

فتحا الباب دون صوت ودخلا فعاد الروع والفزع الى الغرفة. أشارا إليها بالتزام الصمت ثم تقدم أحدهما وصفعها بسرعة صفعتين على خدها وصدغها. بانت الدهشة في عينيها الدامعتين ثم انخفضت رأسها فتهدل شعرها وأخفى ملامحها. خاطبها أحدهما بصوت ناعم بارد يوعدها بقتلها مع ابنها اذا قامت بأية حركة أو ضجة. لم يكن منفعلا ولم يضربها زيادة على ما يجب. أحس أنهما يعملان أعمالا خسيسة بشجاعة. انهما غير مترددين ولا يبدو عليهما أنهما يفكران طويلا قبل أن يعملا ما يجب أن يُعمل. ماذا يريدان بالضبط؟ لم يكن يعلم ما يملك أبواه من مال، لكن الشيء الأكيد هو أنهم لم يكونوا من الفقراء. أهو المال. آخر الأمر؟ ذلك البلاء العظيم؟ ولم لا يأخذونه مع المجوهرات التي في الدولاب الكبير ويمضون عنهم؟

كانت أمه تبكي باستسلام ولم يكن متألما، غير أن الخوف كان يمسك عليه طريقه. الخوف اللئيم الذي لا تدري كيف يتسلل الى النفس. لم يخش على أمه أن تصاب بأذى قدر خشيته أن يصله الدور. الخوف الحقيقي، الخوف اللئيم الذي لا يستشعره إلا الجبناء. لم يعد الخجل إليه مرة أخرى، لقد مضى زمنه. كان يريد أن يهدأ كي يمكنه أن يفكر التفكير الصحيح. انهما يهتمان بأشياء خاصة لا يدرك دلالتها بسهولة. لم يكونا على عجل وكانا كمن ملك الدار وأهلها. ورغم علمه أنه لا يستطيع عمل الكثير وهو بحالته هذه، فإنه كان بحاجة أن يستوعب القليل الذي في طاقته. كانا يتشاوران ويتهامسان وينظران كل لحظة الى ساعتيهما. الوقت لا يمضي في صالحهما اذن، وما معنى ذلك؟ ان أمه لا تكف عن النشيج، هذا النشيج الذي لا يحل المشاكل والذي صار يقطع سلسلة ملاحظاته. كان ينظر الى أحذيتهم

السوداء الكابية. نظيفة لا يغطيها تراب ولا طين. عاد الصغير فتسارعا بخفة للخروج وتركا الباب مفتوحة. لم ترفع أمه رأسها. كانت خصلات شعرها الشقراء المعتنى بها متراخية حول وجهها، تحيطها بكل اليأس الذي تستطيعه امرأة. خيل إليه أنه يسمع أصواتا مكتومة تأتي من مكان قريب خارج الغرفة. كانوا في الصالة التي لا تبعد عن مكانهم كثيرا. لا بد أنهم ينتظرون شيئا ما، حضور رفاق أو اشارة ما أو... أو عودة والده. لكنه سيقاومهم وسيفسد عليهم خططهم. انه رجل لا يستسلم بسهولة، وهو خطر لا داعي لمواجهته. ماذا يريدون منه اذن؟ ماذا سيفعلون به اذن؟

شعر برغبة في مشاركة أمه بهذه الهواجس. كانت تنظر إليه من بين خصلات شعرها. رأى في عينيها المخضلتين تصميما غريبا وخيل إليه أنها تعده بالنجاة وتبث فيه روحا. رفعت رأسها ببطء وأشارت إليه إشارة خفيفة غامضة. كان يحس بعينيه الفارغتين تبديان لها كل غبائه. أعادت النظر تجاه الباب ثم هزت رأسها هزتين أو ثلاثا مشيرة نحو الطرف الآخر من السرير. عدل من جلسته بصعوبة وأمال رقبته الملوية قليلا محاولا أن يظهر وكأنه يريد أن يعمل عملا مفهوما. لكنه في حيرة من أمره، وشعوره بالعجز يحيل كل مجهود في نظره الى سراب حزين. انه ليس جبانا، إلا أنه لا يفهم شيئا مما يجري، وأول الأشياء المستغلقة ما تريده منه أمه. ألا تراه في محنته، كالجرو الجائع؟

كانت، في محاولاتها واشاراتها، قد بدأت تهمهم وتحرك كتفيها العاريتين، وكان يسائل نفسه عن قدرته على القيام من مكانه أو فك رباط يديه حينما رأى عيني أخيه الصغير تلمعان تحت السرير. مرت لحظات والأمر لا يبدو له معقولا. كان شعر أخيه وجبهته ملطخين ببقع من التراب، ولم يلمح أثرا للخوف في نظراته الحادة اليه. سمع أصوات أمه مرة أخرى فالتفت إليها. كانت في سلسلة لا نهاية لها من الاشارات والغمغمة، ولكنه أمسك بمسحة غامضة في عينيها تعني السرور والانتصار والثقة الجارفة. هل علمت أنه رأى أخاه؟ وهل كانت تعلم دائما أنه في هذا المخبأ الغريب؟

عاد بنظره الى أسفل السرير فلم يجد شيئا؛ وصدرت رغما عنه أنة دهشة وخيبة أمل. لقد صار العالم يتقلب سريعا بين الواقع والأوهام. لمح من طرف عينيه ظل أحدهم واقفا في اطار الباب. كان ملثما حاد النظرات كالصقر الجارح وهو يراقب أمه بامعان. اقترب منها فانشدت نظراتها إليه. بدا عليها، في ارتفاع حنكها وارتجافة أنفها، انها تريد أن تتماسك وتدفع الثمن الغالي. ان تهمل الخوف وأن تتغلب عليه. قبض على شعرها بإحدى يديه ثم هز رأسها بعنف عدة هزات. خيل إليه أنه يسمع طقطقة عظام رقبتها. ثم صفعها وكفخها وعاد يصفعها ويهز رأسها، بكل احتقار وببعض الفضول. انهم بحاجة الى الصمت والى العمل بسكون، وكل ضجة مهما صغرت لا تروق لهم. يجب أن تتم الجرائم المتقنة في جو من الهدوء. أراد أن يتكلم ويعاود ضربها، لكن الصفير المكتوم قطع عليه ذلك فنكص وهو يشير بيديه اشارات تهديد.

بقي، في هدوء الغرفة، يراقب أمه تنتحب متألمة، شاعرا بغصة في قلبه. كم لاقت من أذى!

أدار بصره عنها الى أسفل السرير، فلم يجد أحدا هناك. أين يختبىء ذلك الأحمق الصغير؟ ان كل لحظة تحمل لهم يأسا من نوع جديد، وهو يخشى أن ينتهي أمرهم بمأساة دامية. فليسكتوا اذن، كي يبقوا على قيد الحياة. ما لهم والقوة والكبرياء والثأر. ان هذه الأشياء لمن كان مطلق اليدين والفم.

جذبت عينيه حركة تحت السرير. رأى كتلة الشعر السوداء المتربة تبين ببطء ثم ظهرت العينان اللامعتان. كانتا تشعان، هذه المرة، بقوة غير مألوفة. لم يكتف أخوه بإخراج رأسه فتبعته الكتفان والجذع. كان لا يزال في بجامته البيضاء المخططة بالأحمر القاني وقد كستها طبقة كثيفة من التراب. أشار اليه أن يصمت ثم قفز قربه ورفع قطعة القماش عن فمه وانحنى عليه سائلا ـ ماذا يعمل؟؟

لم يدر بأي قول يبدأ وكان الخوف يزداد عليه كل لحظة. لو دخلوا عليهما الآن لفتكا بهما حالا. همس في أذن أخيه طالبا منه أن يحاول الخروج من البيت

وأن ينتظر عودة أبيها. رآه جزعا مرتجف الشفتين. كرر كلامه فرد عليه أخوه الصغير بشيء عن مسدس أبيها وعن البوتاز والمتفجرات الأخرى التي في الطابق الأعلى. لم يفهم منه ما يريد وأخذ يبث فيه الشجاعة بما يتذكر من كلمات جوفاء. ثم رآه يقفز بخفة فيختفي وراء الباب تاركا خرقة فمه مزاحة حول رقبته. ما أخطر هذا الأمر لقد أفقد الخوف ذلك الصغير بقية عقله. ماذا يفعل لو دخلوا فوجدوه قادرا على الكلام؟؟

مرت لحظات عليهم. كان السكون مطبقا والساعة جاوزت الثانية بعد منتصف الليل. شعر بخفة في تنفسه بعد أن زالت عن فمه تلك الخرقة الملعونة. خيل إليه أنه يسمع هدير سيارة من بعيد. كانوا صامتين في الصالة كمن يحبس أنفاسه قبل اللحظة الحاسمة؛ وكانت أمه قد انقطعت عن البكاء. تبادل معها النظر فرأى أنها تنصت مثله. قوى الصوت وصار أكيدا. انها سيارة تقف أمام دارهم ويصفق بابها مرة واحدة ثم يعقب ذلك هتاف «تصبحون على خير» يتكرر عدة مرات بصوت والده. أغلقت باب الحديقة بشكل مضطرب وطرق أرض الممر السمنتي حذاء ذو مسامير. هل جاء أخيرا.. ليقع في الفخ؟؟

عادت الحياة الى عيني أمه المبتلتين مع الخطوات المقتربة. سمع أباه يغني بصوت السكارى «فات الميعاد.. فات الميعاد» قبل أن يضع المفتاح في القفل. كان صوته أجش متقطعا، يكرر «فات الميعاد» دون أي لحن مميز. بدأ المفتاح يعمل في قفل الباب بحركات غير مسيطر عليها. ساءل نفسه خلال لحظات عما يعمل وهل يفيد صراخه أو تحذيره أو استنجاده. سمع الباب تفتح بضجة تعقبها أصداء مخنوقة لضربات تتوالى بسرعة. ثم سقط جسم ثقيل على الأرض. مثل كيس مليء بالقش.

هكذا يُعمل بالرجال. لم يدعوه يفهم الموقف ولا ان تخدش مشاعره وحواسه المخدرة بالعرق وهو يراهم في حالتهم المهينة هذه. حسنا عملوا.

كانت عينا أمه منطفئتين وكذلك عينا الصغير المطلتان من وراء الباب. وكان في فمه مذاق الصدأ، مذاق الحديد. ولم تعبر نظراتهم الظلماء المتبادلة

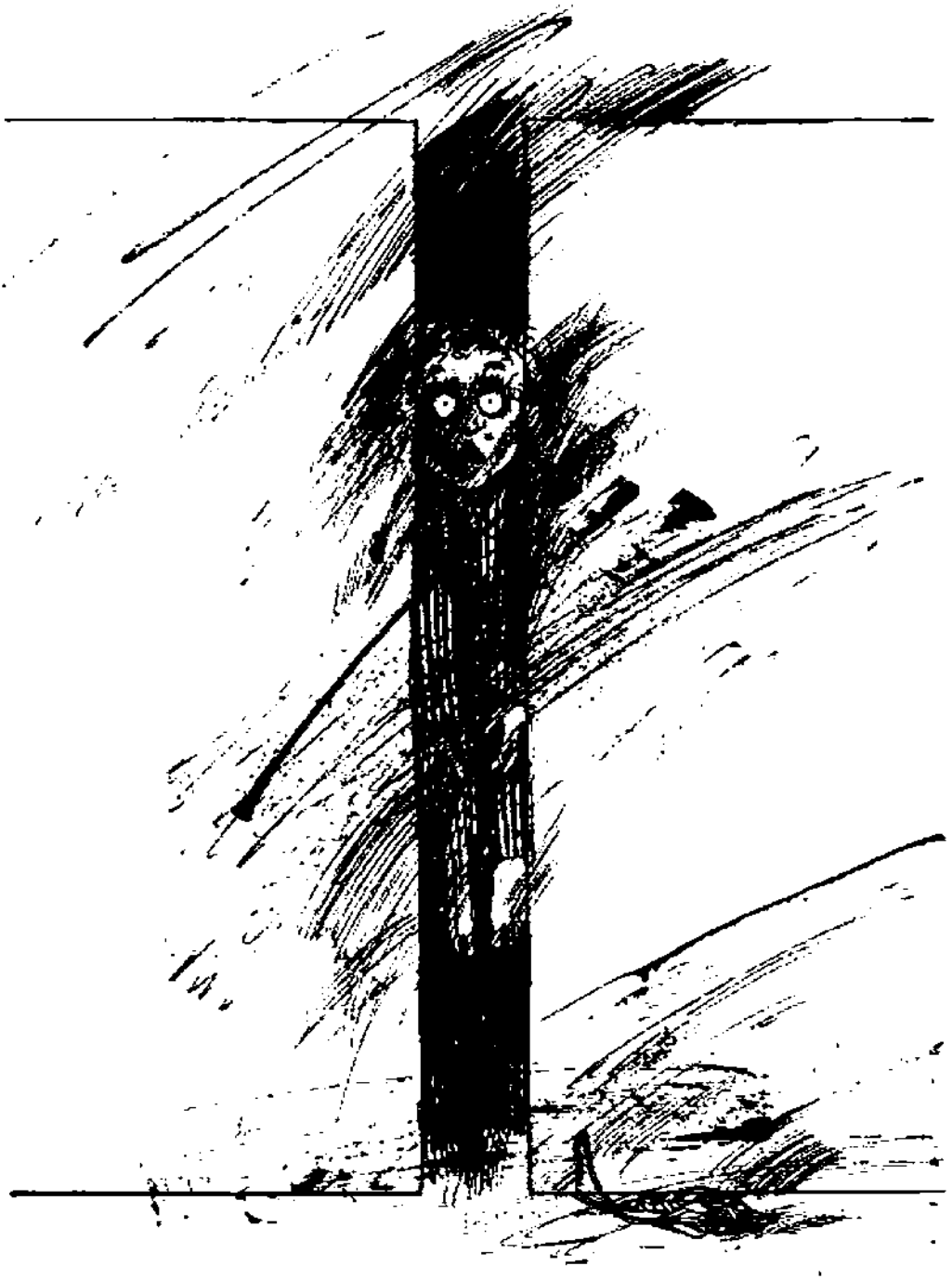

عن اي أمل، عن أية رغبة في التساؤل ماذا قد يعملون عدا أن يموتوا؟ أفزعته قفزة أخيه الصغير الى وسط الغرفة. كان مصفر الوجه، يبدو في حركاته الخرقاء مثل فزاعة الطيور. همس في أذنه أنه سينسل الى الطابق الأعلى ليحاول أن يعمل شيئا. كان مرتجف الصوت واليدين. طلب منه ان يحدث ضوضاء تجذبهم إليه ونظر في عينيه نظرة ذات معنى ثم أسرع منفلتا من الغرفة. أين سيذهب هذا المخبول وأي طريق سيتخذ؟؟

لم يجرؤ على منعه. كان يعمل، وكان لذلك أكبر منهم جميعا. رأى أمه تتساءل بملامحها وهي تتعقب ابنها بعينين مجنونتين. كلمها بصوت خافت موضحا لها ما قاله الصغير وما سيفعل، وطلب منها ان تتمسك بشجاعتها وأعصابها. يبدو أنهم عولوا على حمل غنائمهم بسيارة أبيه والفرار بها. اللعنة. انتظر لحظات. كانوا في الصالة يهمهمون ويسحبون جسما ما ويتكلمون أحيانا. لم يحسبوا له أو لأمه وأخيه حسابا. أليسوا هم الضعفاء الذين لا يملكون حق المقاومة أو الكلام! أليسوا هم الذين يموتون كالذباب!

استجمع في حنجرته كل حقده وغضبه وبدأ يصرخ بأعلى صوت يشتمهم ويتوعدهم ويلعنهم، نافثا من خلال عياطه كل مخاوفه وآلامه وماسحا من نفسه تلك المهانات التي صبوها عليه ومنتقما للصفعات التي نالتها أمه. كان صوته خشنا قويا يشوبه بعض الارتجاف. ولكم تمنى لو تأخروا قليلا كي ينتهي تماما من اخراج كل ما في نفسه من تقيح وسموم. أقبلوا ثلاثتهم، رأى الثالث لأول مرة، ولم يكونوا خائفين قدر ما كانوا مندهشين غير مصدقين. ارتموا عليه دون كلام فأغلقوا فمه وانهالوا عليه ضربا بأيديهم وأرجلهم وبقطع غريبة من الخشب لم يرها من قبل. حمى رأسه وأماله مختبئا في زاوية من زوايا الكرسي. لم يرد، في كل الأحوال، ان يفقد وعيه. لا بد أن يحتاجه الصغير بعد قليل. ولكن الأوغاد يشتدون في ضربه وهم لا يشكون التعب.

لم يجد طريقة يحفظ بها رقابته على ذهنه غير أن يكرر شتائمه ولعناته وأن يهرب برأسه من هجماتهم. كان الدرب ضيقا أمامه وكان يدرك تماما ألا مجال لفقدان الوعي ولا الذاكرة. انه التشبث الأعمى بذاته وبتكاملها، وبدون

هذا ستضيع معركة الوعي، معركة اليقظة والحواس السليمة. غامت الدنيا واظلمت ثم دارت دورات سريعة غير منتظمة. لبث هامدا متمسكا بمكانه على المقعد رغم طنين أذنيه الشديد وارتجاف قلبه. كان جسمه دملة آلام تتفجر. الا أنهم لم يغلبوه ولم تصل قبضاتهم الى فكره ولا الى نفسه.

عادت إليه أصواتهم من بعيد، متقطعة غير واضحة. كانوا في الغرفة معهم وهم يتحدثون حديثا غامضا عن سيارتهم وعن أمه وصندوق المجوهرات. لم يفهم منهم شيئا كثيرا وبقي ساكنا منكمشا على نفسه. كانوا في حيرة من أمرهم لأن والده لم يعد بسيارتهم الى البيت، لكنهم لم يكونوا يبحثون عن حل.

هدأت آلامه قليلا وهو يصغي إليهم. يبدو أنهم عولوا على حمل غنائمهم بسيارة أبيه والفرار بها. اللعنة عليهم، وأحس بنبضة فرح في صدره. لقد خابت خططهم بسبب الخلل الذي أصاب السيارة قبل يومين. اللعنة عليهم. أخرج رأسه من مخبئه ببطء. كان بوده أن يتطلع الى أمه وان يشاركها بالنظرات أفكارها وآمالها، لكنه خشي أن يعاودوا ضربه. كانوا في الغرفة، ساكنين صامتين. لم يرهم، إلا أنه شم رائحة سكائرهم وسمع وقع أقدامهم. لعلهم يقررون شيئا قبيحا آخر. شعر فجأة بالقلق على أخيه الصغير. ان طراوة روحه لا تناسب المهمة التي أخذ نفسه بها. توقفوا عن السير بغتة وساد الغرفة سكون مشبوه. اما أبوه فقد انتهى أمره منذ فتح فمه ليغني بأصوات السكارى فوات الميعاد. هذا الميعاد الذي لم يعرف الصغير انه يمكن أن يفوت، ولكن هل سيحقق شيئا؟ هل سيقدر؟؟

هبط قلبه وهو يسمع الانفجار في الشارع كان ضعيفا نسبيا، لكنه مزق الصمت وبدل من موقف اللصوص. رفع رأسه إليهم. كانت بوادر الخوف الأولى قد بانت في العيون، تلاعبت باضطراب في محاجرها وخفقت الأجفان بسرعة. خرجوا راكضين مع الانفجار الثاني. كانت أمه مستلقية على الفراش فنهضت واقفة متلامعة العينين. سمع صفيرا بعيدا خارج الدار. انفجار قوي آخر. كانا، امه وهو، مذهولين يكبت الفرح العظيم أصواتهم. رأى أحدهم

يعود إليهم حائرا مشدوها. شعر بحمى في دمائه فنهض من مكانه واندفع نحوه كالسهم فنطحه في بطنه. سمعه يصرخ متألما، ثم تلقى ضربة على رأسه أسقطته على الأرض.

كانت الانفجارات وصفارات الحراس تتعالى في سكون الليل، وكان يسمع بوضوح أقدام اللصوص تتسارع والأبواب تفتح وتغلق من خلفهم. انهم يهربون، انهم يهربون من العالم الذي كشف أعمالهم. وأحس بأمه وأنفاسها على الأرض بجواره فاستدار إليها. كانت دموعها تسيل وكان بوده أن يبكي معها.

1968

الغـــراب

حملت الفانوس عاليا بيدها اليسرى ونزلت درجات السلم المظلم وهي تنصت الى همهمة أمها الغامضة. كان ضوؤه ضعيفا ورائحة النفط تنبعث قوية منه. ملأته قبل دقائق، حين عزمت أمها على الانصراف أخيرا. لم تعد هناك فائدة من الالحاح عليها. إنها لا تستطيع فراق حمودي ليلة واحدة. سمعتها:

- عيني نجوبه شويه على كيفج. يا الله. شويه على كيفج عيوني إنت.

كان صوتها رقيقا حنونا لا يلائم ضخامة جسمها وثقل حركاتها. لم تجبها وتوقفت قليلا وهي تقرّب الفانوس من موطىء قدم الأم. كانت أنفاسها ثقيلة مسموعة وهي تسحبها بمشقة من صدرها العريض. قالت لها:

- لو باقية عندي هالليلة يا يوم. شيصير. دتشوفيني آخر بها الحال.

أجابتها أمها وهي تضع يدا فوق كتفها:

- شواكع بيدي يا عيني يا نجوبه. اللهم يا أرحم الراحمين. هذا اخويج واكع فد نوبه وينراد له مداراه ليل نهار. وإلا آني أجوز منج يا عيني. يا الله يا محمد. لا جدوى من الاصرار. لن تبقى بعيدة عن ذلك الطفل الكبير

حمودي، وعليها هي أن تبيت وحيدة في غرفتها ليلة أخرى. قالت لأمها:

ـ ديري بالج يوم. هاي الدرجة شويه عاليه. هو شلون بيت مصخم. تاليها حظي خلاني أكعد نزل بگبة.

أجابتها الأم بين أنفاسها المتقطعة:

ـ ميخالف عيني نجوبه. چم يوم وتنكضي. ميخالف.. ميخالف. يا ربي عليك.

سارتا تخترقان باحة الدار المظلمة متجهتين نحو الباب الخارجي. كان قبقابها يطرق الأرض الحجرية الصلدة طرقات شديدة ونعال أمها تمسحها من بعدها. سألتها أمها:

ـ أشو ماكو أحد جوه عيني نجوبه؟

فقالت متذمرة:

هاي الغرفة فارغة، وأهل هالحجرة مسافرين، وهذوله ينامون من وگت.. ورا وذان العشا.

ثم وجدت نفسها تقول رغما عنها:

ـ شكو لو باقية هاليله بس. ما أدري شيصير بي آني وهذوله الأطفال.

فأجابها الصوت الحنون:

ـ لا تحجين هيج حچي خاطر الله. شكو عليكم. منويگول ما يرجع بعد شويه؟ رجال كل شي يصير له. ليلة وحده ما رجع للبيت، قابل كل ليله. اتوكلي على الله عيني. وهاذي فضيلة يمچ نفس، أحسن من الماكو.

ـ ليش هي وينها هالفضيلة الخير!

ـ ترجع عيني. غير عند أهلها؟ وين تروح قابل؟ ساعة ساعتين وتصير يمچ.

فتحت الباب الخشبي الكبير دون كلام وأنارت لها الطريق. رأتها تسرع في حركاتها كأنها تحاول التخلص منها بأقرب وقت. مرت بجوارها:

ـ مسلم عليچ عيوني نجوبه. دخشي أخاف باردة عليچ. آخي اشوف دربي، لا يظل بالچ عيني.

ـ مع السلامة يوم. سلمي لي على حمودي. عنده العافية. شفايتلي لو جنت يمكم.

كانت أمها قد ابتعدت بأنفاسها الثقيلة، ولم يستطع نور الفانوس الأحمر أن يفرق ظلمة الدرب عن عباءتها السوداء. بقيت تستمع الى وقع أقدامها الخفيف وهي ذاهلة. لم تملك الجرأة الكافية لتخبرها، ولعلها لو فعلت لبقيت أمها معها ولدفعت عنها شر الوحدة. كان الدرب ضيقا لا تنعكس على جدرانه أية ظلال. لم يعد بوسعها سماع حركات أمها فاستدارت ودخلت.

كان الجو باردا والهواء يلسع أنفها وأذنيها. سارت متجهة نحو السلم وهي لا تحاول تهدئة ضربات قبقابها على الأرض فخيل إليها أنها ترى شخصا يقف وراء المحجر. رفعت الفانوس وهتفت:

ـ منو هاي؟

ثم ميزت ابنتها الصغيرة.

ـ ولج حمدية؟ لويش طالعة برة بهالبرد؟

فأتاها صوت ضعيف:

ـ ستار گام يبچي يوم

ـ زين جيت. خشي للحجرة ولج بالعجل

ثم أسرعت في سيرها وارتقت الدرجات الخربة.

نام ستار فأحكمت تغطيته باللحاف والبطانية ثم جلست قرب السرير تستريح. لم يسكت خلال الساعة الأخيرة ولبث يصرخ بكل قوته حتى خيل إليها أن حنجرته ستنفجر. لكنه نام أخيرا ليتركها وعظام جسمها تؤلمها كلها. ما جدوى كل هذا الارهاق، وماذا يمكن أن ترتجي من ستار حين يكبر؟ كلهم سواسية، كلهم سواسية. تنهدت بصوت ناعم ثم انتبهت الى الستائر تهتز هزات خفيفة. كانت الغرفة دافئة منذ ساعة، لكن الجمرات قد خمدت في المنقلة والريح الباردة تدخل من ثقوب الشباك. لفتت نظرها حركة من حمدية. كانت متكومة على المنقلة كأنها تريد أن تتدفأ بالرماد وهي تنظر الى أمها بعيني لامعتين. سألتها:

ـ لويش ما تگومين تنامين؟ فات الوگت ولج والجمر خمد
ـ مانام. بعد وكت
ـ طبج مرض. مالي خلك انيم اثنين اثنين.
فأخفضت الصغيرة عينيها وأخذت تعبث بالرماد. شعرت بارتياح لرفضها النوم. كانت تتحاشى البقاء وحيدة؛ ولقد اخبرت أمها بذلك إلاّ أن هذه لم تستجب لها. وكان بقاء حمدية مستيقظة يعني انها لن تعاني خوفا شديدا. هكذا كانت منذ طفولتها، وأمها تعلم هذا. لكنها لم تفض الى أمها بحقيقة الأمر، وهي لا تعلم علم اليقين ما هي هذه الحقيقة وهل يمكن أن تفهم. هناك أشياء غير معتادة لا يسهل الحديث عنها. وكانت أمها، فوق ذلك، تتعامى كي تستطيع الرجوع الى البيت. لماذا لم تسلها بالحاح عن أسباب غيبته يومين متتاليين؟
لقد تعامت وتغابت لتتمكن من العودة سريعا الى حمودي... ابنها المريض. تركتها هكذا منفردة مع أطفالها دون أن تتردد. حتى تلك الامرأة فضيلة لم تعد الى غرفتها. وكان هذا مما يزيد في وطأة الخوف عليها.. أن تشعر أن الغرفة المجاورة خالية وانها وحدها في الطابق الثاني كله. كيف يمكن أن تعود بعد كل ما حدث؟ تلك الامرأة الفاجرة زوجة أخيه.
نظرت الى حمدية. لم تزل تعبث برماد المنقلة دون ان يصدر عنها صوت. كان السكون متكاملا حولها، سكون الغرفة وسكون العالم من حولها. وكانت تحس اضطرابا خفيا مجهول الأساس. كلمت ابنتها:
ـ لا تلعبين بالرماد ولج. موتبولين جواج تره. شوكت راح تنامين؟
فلم تجبها حمدية، فاستمرت تحدثها:
ـ گومي نامي خاطر احچي لج حچاية
فرفعت الصغيرة رأسها. رأت في عينيها الغامقتين تساؤلا وفضولا:
ـ ما أنام.
ثم أردفت بعد لحظات:
يا حچاية تحچيلي؟

فقامت إليها ثم أمسكت بيدها وقادتها الى فراشها:

ـ كومي. احجي لج سالوفة السعلوة والغراب.

ادخلتها تحت اللحاف وجلست على حافة السرير تراقبها وهي تستقر في ضجعتها. كانت مدورة الوجه بعينين سوداوين صغيرتين وشعر طويل في مثل سواد عينيها. سكنت بعد لحظات ووجهت بصرها نحو أمها بانتظار حكايتها. كان الضوء بعيدا عنها فوق الباب، والفراش ناعما مريحا؛ وكانت تحس بإرهاق النهار يضغط على جسمها ويبعث فيه الرخاوة. لو لم تنصرف تلك العاهرة فضيلة الى بيت أهلها لأمكنها أن تهدأ وتنال بعض الراحة. ولكن، كيف يمكن أن تعود؟ تلك العاهرة، تلك العاهرة. سمعت حمدية:

ـ يا لله يوم. احجي عاد. لويش صافنة هيچي؟

فاستجمعت فكرها لتتذكر بداية حكايتها:

ـ أي يوم، أي.

ثم أخذت تربت على ظهر ابنتها وهي تتكلم بصوت لين:

ـ چان ما چان، الله ينصر السلطان فد غراب صغير كلش أسود. هذا الغراب ما چان أحد يحبه من الغربان بصاية هو أسود هواية. حتينه أمه وأبوه گالوله فد يوم ـ يا ولد يا غراب الأسود كلش، روح شوف لك عيشه بغير هالديرة انت جماعة الغربان ما يردون يشوفوك. گال لهم ـ يا يوم ويا ياب، عدلو بدلو، انتو والجماعة هم سود مثلي والله ما يرضى تسوون وياية هالسوايه، شلون أعيش وين آكل وين أشرب.

ارتفع صوت حمدية تقاطعها:

ـ يوم ليش الغربان تحچي؟

فاستاءت وشددت من ضرباتها الرتيبة على ظهر ابنتها:

ـ نامي عاد ولچ. ليش الغربان موخلقة ربنا؟ ليش ما تحچي؟

ثم سكتت برهات قليلة. كانت متعبة، تود لو تستلقي على فراشها اللين وتستغرق في نوم عميق. لم يبق لها ما تعمله غير هذا، فالرجل لن يعود هذه الليلة أيضا، وليس لديها ما تتغلب به على خوفها سوى النوم. ولكن،

هل يأتيها هينا بدون كوابيس؟؟ أحست بأصابع حمدية تضغط يدها وسمعتها:

- أي يوم، تالي؟

فعادت الى حكايتها:

- أي يوم، وين وصلنا؟

فأجابتها ابنتها:

- وصلنا لما الغراب الصغير كَام يحجي ويه امه خطيه

- كال لها.. ليش يا أمي ما عندج حنية علي، آني بعدني صغير ما أفتهم من الدنيا شي. الامـاية كامت تبجي من هاچي وكالت له.. ابقه يا ابني، البيت بيتك والأهل أهلك؛ وأحنا شيفيدنا حجي الغربان، كلمن يشوف اللي يصرف له. لاكت الاب وكّف لها سجينة خاصرة وكّام سوالها ذاك الفصل.

- يوم، لويش؟ هو أبوه ما يحبه للغراب الصغير خطيه؟؟

فتنهدت:

- ليش هو كَلب الأب مثل كَلب الأم! ماكو مثل كَلب الأم ولج، خليها بفكرج هالحچاية ولا تعذبيني بعد.

- لا يوم، بعد ما اسوي شي.

وساد بينهما صمت شمل الغرفة. ليس هناك مثل قلب الأم، ولو شعر هو بحنان على ولديه لما تركهما هذه الأيام والليالي دون أن يراجعهما أو يراهما على الأقل. تبدل شخصه كله خلال ساعات معدودة. صار بعد تلك الليلة غريبا عنها، غريبا عن حياتها وعن هذا العالم بأكمله. كان ذلك بسبب انها فقيرة شريفة يتيمة الأب. لو عاملته مثل ما تفعل تلك العاهرة فضيلة مع أخيه، لتبدل مسلكه. تلك العاهرة الرخيصة. لم تعد الى غرفتها هذه الليلة أيضا، لم تعد من زيارتها المزعومة الى أهلها. سمعت حمدية تتكلم بصوت خافت:

- يوم، بعد والله ما أسوي وكاحة.

- زين يوم زين. آني بس اريدج تعرفين قدر امج. لو ابوج عنده حنيه

بگلبه، چان كال هذولة شصار بيهم، ماتوا احتيوا. لاكت ماكو حنيه ولا شفقة. والله ذب كل مصايبه على رأسي. ما كفاني الفكر ورزالة الصغار، هنوبه درده هو، درده الجبير.

- يوم، ليش وينه بابا؟

فتملكها غضب مفاجىء:

- بجهنم، بالنار الكبره. هو وهذيجي ام.. أعوذ بالله اسكت يا حلكي. ولج ليش ماتنامين وتخلصيني عاد؟ ما يكفيني كل هالدرد والشكا؟

- والغراب؟؟

- ولج يا غراب؟؟

فلم تجبها الصغيرة، وسمعتها تنشج ببكائها المكتوم. قالت:

- سكتي عاد، لا تتنحسين. انت انگس منه.

ثم عادت الى ضرباتها الرتيبة:

- وين وصلنا؟ سكتي، راح اكمل. الغراب الصغير ما كدر يبقى بالبيت بعد ما أبوه طرده منه؛ فگام لف راسه وطار. ظل يطير ويطير، ما يدري وين يحط رجليه. الجوع داسه وگلبه ساح وهو باقي طاير. فات النهار وخلص والشمس احمرت، والغراب الصغير أيس من نفسه وگال يا روحي هيجي عيشه ما تنزاد. هذيج الساعة شاف فد جبل أسود گباله، گام وكر عليه وگال يا روحان، استراح شويه وابات الليل هنا والله كريم للصبح.

رأت ابنتها تغمض عينيها فسكتت. كانت حمدية تتنفس بعمق وانتظام فخففت من ضرباتها. احست بظهرها يؤلمها، لكنها لم تتحرك خشية أن توقظ الصغيرة. كانت متعبة، تهوم ويكاد رأسها يسقط على صدرها. لا يمكنها أن تبقى ليلة أخرى هنا. ستأخذ صغيرها لتذهب الى بيت أهلها. ليتركوها في أحقر حجرة لديهم، فلن تبالي. يكفيها أن يزول ثقل قلبها وأن تعيش بين بعض الناس. اغمضت عينيها ثم تحركت قليلا فصدر عن السرير صرير مزعج. سمعت حمدية:

- يوم، يوم

ففتحت عينيها:

ـ شبيج؟؟ لويش گعدتي ولج؟؟

ـ يوم، اريد ماي

ـ انجبي، مو وكت ماي. نامي هسه. اكو واحد يشرب ماي نص الليل؟ شياكله؟

كانت مستيقظة تتلامح عيناها في الوجه البريء المدور:

ـ يوم وين راح الغراب الصغير خطيه؟

ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. بعده واكف على الجبل

ـ يوم، يا جبل؟

ـ اسكتي. آني اكملها. غمضي عينج أول نوبة

ـ زين يوم

ـ لمن وكف الغراب الصغير على الجبل الأسود شاف يمه على الگاع هوايه دبيب؛ فگام يلگط ويأكل لمن خلصه وشبع فلف راسه ونام. كعد من الصبح على فد حس عالي يصيح.. هاذه منو واگف على راسي.

رأت حمدية تفتح عينيها فقالت لها بصوت ناعم:

ـ ليش فكيتي عينج؟ غمضي.

فلم تجب ورأت طابع فزع خفي على وجهها:

ـ تردين اكمل باجر؟

ـ لا يوم، الله يخليج. هاي منو گام يصيح؟؟

ـ هاي السعلوة. أثاري الغراب الصغير جان نايم على رأسها.

فانكمشت الصغيرة على نفسها، ورفعت اللحاف لتغطي قسما من وجهها. انتبهت هي الى الريح تلعب بالستائر وأحست برجفة بسيطة في ظهرها. كانت عظامها تؤلمها والنعاس يثقل اجفانها.

ـ يوم، تالي؟ اكلته السعلوة للغراب خطيه؟

ـ لاع. الغراب صار شاطر گام يتوسل بيها. حچالها حچايته من الأول للتالي شلون ابوه طرده بصاية هو أسود هوايه وشلون بقه النهار كله وشلون هو

تعبان وجوعان. لاكت السعلوة ماصدگت بحچايته أول نوبه وگالت له.. ولك يا غراب البين اسويك علجة علجتين. الليل كله ما گدرت أنام. واگف انت على رأسي وتنكر بيه يا ظالم. گال لها.. آني بين ايديج، يتيم وما عندي احد، وانت كل ما تفصلين آني البس. لاكت يا سعلوة خاتون تره آني..

- يوم، ليش هي السعلوة خاتون؟

- ولـچ دنـامي عاد. لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. يا ربي شوكت راح تخلصني من هالشگا؟ غمضي عينچ ولچ.

كان السكون مطبقا، ثقيلا على نفسها؛ ولم تكن تدري أتحسن صنعا بإجبار حمدية على النوم. عدلت من وضع جسمها واضطجعت قرب ابنتها متكئة برأسها على راحة يدها. لم تكن الغرفة دافئة فجذبت حافة اللحاف وغطت به ساقيها. رأت حمدية تغمض عينيها نصف اغماضة؛ فعادت الى التربيت على ظهرها برفق وبدأت حديثها بصوت متقطع رخيم:

- نامي يوم عاد. آني هسه أكمل الحچاية، بس لا تنطين كل ساع. وين وصلنا؟ ها، لمن الغراب كام يحچي ويه السعلوة گال لها.. آني اكلت الدبيب اللي چان يمشي فوك راسچ وآني ماچنت انكرر راسچ السعلوة هوايه فرحت لمن شافت الغراب ماكل الگمل اللي چان مالي رأسها فگالت له.. إلك الرأي والامان، وگامت نفخت عليه وسوّت لونه أبيض أبيض مثل الثلج وگالت له.. روح لأهلك خلي يفرحون بيك. گالت له روح... لأهلك خلي يفرحون بيك. گام الغراب.. لف رأسه وطار...

توقفت قليلا عن الحديث وأغمضت عينيها. لم ترد ان تنام في وضعها ذاك، لكنها كانت متراخية الجسم واللحاف يدفيء ساقيها بشكل مريح ...

... كانت واقفة بمفردها ترتجف أمام باب غرفتها المفتوح. مضت عليها الساعات الطوال وهي تتطلع الى الضوء الخافت اللعين في حجرة فضيلة. كانت الريح باردة تخرق قماش ثوبها وتنغرز في لحمها، ولم تكن تدري هل سيقع لها مرة أخرى ما وقع تلك الليلة؟ لم يأت في وقته المعلوم ونام الصغار، مثل تلك الليلة. وكانت فضيلة تغني ونور غرفتها يتمايل بلين مع

موجات صوتها الداعر. لم تنقطع يوما عن غنائها، تلك العاهرة. وها هي الآن تغني، مع الريح والنور، أغنيات تجذب الرحال. ولم تكن هي واثقة هل هو معها، وكان البرد شديدا والخوف والألم يمزقان قلبها. خرجت، تلك الليلة، بنية صافية لتحدثها. ولكنها الآن تعلم أنه مع تلك المرأة وأنها سترى الحقيقة المريعة مرة ثانية. كانت واقفة منذ زمن طويل أمام باب الغرفة المفتوح باهمال وهي تزداد ارتجافا. لم يعد لها سند في حياتها منذ اشتعل الضوء الشاحب الخبيث في الغرفة المظلمة. وهي تعلم انها ستمضي الى ذلك الباب المغلق لتفتحه على شقائها. لكنها لا تجد ما تعتذر به. ولسوف تكون في وضع مهين، مثلما حدث ليلة رأتها أول مرة. لم تصفعها بأسباب أو مبررات. هكذا، بنية صافية، اقبلت، وفتحت الباب المواربة. أما الآن فقد فارقتها النية الصافية، وامتلأت أعماق نفسها بالقلق والخوف والتوجس. لكنها ستمضي الى ذلك الباب المغلق لتفتحه على شقائها. وستعتذر بالغراب الأبيض الضائع الذي أنكره أهله ومزقوه حين عاد إليهم. ستقول لأولئك المختفين وراء الباب، إن ابنتها حمدية تريد أن ترى جثة الغراب الصغير المنتزعة الأوصال. وسارت مثلما سارت ليلتئذ، مرتجفة الأطراف تصطك أسنانها ويخذلها ضعف شنيع في جسمها. كانت الريح باردة كأنها ألواح ثلج على ظهرها، والضوء في غرفة فضيلة يتراقص بمجون. جاءت مع زوجها، أخيه، في إحدى الليالي لتسكن جوارهم ولم تهدأ له روح منذ رآها، ذلك المجنون المغرور. ذلك المخبول المتكبر. كان الباب، مرة أخرى، مواربا. لم يجدا الوقت لاقفاله. ووقفت أمامه، ليلتئذ، ولم تدر لماذا وقفت. كانت تهم بالحديث معها ريثما يعود، ولم يكن في ذهنها شيء معين. أما الآن فانها تفكر بالحديث وكيف تبدأه وتستمر فيه وتنهيه. وكان عقلها مشوشا مضطربا. لم يخطر لها أي قول يمكن أن توجهه لها. كانت ترتجف وترتجف وأصابعها لا تقوى على دفع الباب ولم تكن لديها رغبة في الدخول. ماذا ابتغت ليلتئذ وماذا ستجني الآن؟؟ ماذا ستجني من آلامها؟؟ وفُتح الباب فجأة فهمت بالنكوص، لكنها بقيت تنظر إليهما بعينين مبهورتين. لم يشعرا بها تراقبهما. كانا عاريين بشكل فظيع وهما يعملان عمل

الحيوانات. عمل الكلاب، الكلاب. وتهاوى قلبها وشهقت بعنف وعيناها مشدودتان إليهما. انهما لا يتكلمان، مثلما فعلا ليلتئذ. إنهما ينظران إليها بعيون الموت الجامدة. انهما يعرفان بأنهما يعملان عمل الكلاب القبيح، عمل الكلاب القبيح...

استيقظت على صفقة الباب من خلفها، فرفعت رأسها واستدارت بنظرها. كانت عيناها غائمتين وذهنها في دوامة غير قادر على تمييز الحلم عن الواقع. رأت شبحه الداكن واقفا تحت المصباح الكهربائي الأحمر. شعرت بالبرد شديدا في ظهرها، وبذراعها اليمنى متصلبة؛ وكان قلبها يخفق بعنف. لم يزل واضعا الشماغ على رأسه وهو يتكىء على الباب المغلوق. اعتدلت في جلستها وانزلت قدميها من السرير. أرادت أن تتصرف كأنها كانت تنتظره؛ إلا أن أطرافها لم تستجب لحركاتها وبقيت جامدة في مكانها. كان ساكتا، ولم تميز وجهه بوضوح أول الأمر لكن خوفها ازداد. خطر لها أن تقوم من محلها إلا أنها خشيت أن يصر السرير وتستيقظ حمدية. أحدّت بصرها الى وجهه وهي تبذل جهدا لتتماسك. كان متغيرا كابيا، تتركز حياته كلها في عينيه السوداوين. أفزعها ما تنفثه تلك الجمرتان المتوهجتان، وأيقنت أنه قاتلها لا محالة. كانت ترتجف رعبا وهي تدرك أن هيأته لم تتبدل منذ كبستهما معا. مجنون، ثائر. لم تحزر الصدى الغريب الذي تجاوب في أعماق نفسه بعد تلك الليلة المشؤومة. وها هي ترى أنه الكبرياء، الكبرياء القاتلة. كلمته محاولة دفع الفزع عن نفسها:

ـ شبيك؟؟ وين جنت؟؟

وكان صوتها أجش متقطعا. لم يتحرك ولم يجبها، وخيل إليها انها تسمع أنفاسها المتلاحقة. كان طويلا متهدل الملابس. ويشماغه مرميا باهمال فوق رأسه. لم تستطع تحويل نظرها عن عينيه ولم تلتفت الى الحركة الخفيفة التي بدرت منه. كانت تسائل نفسها مع خفقات قلبها المذعور ـ هل بمقدوره أن يفعل ذلك؟؟ هل يستطيع تخطي حدوده وإزالة القيود؟؟ ورأت يده اليمنى ترتفع بهدوء، وكانت الفوهة الصغيرة موجهة نحوها بإصرار. انه يريد قتلها،

يريد إقناء شاهد انحطاطه. ولم تلبث إلا لحظات، عادت لها فيها كل حياتها. مرت في ذهنها أسعد أيامها وأشقاها، وخطر لها كم ستندم أمها اذ تركتها هذه الليلة بمفردها، وكم ستبكيها.. كم ستبكي بعدها. ارادت أن تقوم والرعب يكاد أن يذهب بعقلها؛ لكن النار اتجهت نحوها بسرعة مريعة، وأحست بحريق هائل في صدرها فصرخت بجنون. كان ألمها مخيفا لا بشريا؛ لم يستمر غير لحظة أو أقل، رأت خلالها وجهه الحيواني وعينيه البارقتين. انه مصمم، غير نادم البتة. كانت متشبثة بحافة السرير وهي تمسك ثديها المثقوب، فخيل إليها أنها تسمع صراخ طفليها يأتي من بعيد. لم تفهم معنى ذلك وحاولت أن تستدير لتراهما؛ إلا أن دفقة أخرى من النار اللاهبة اندفعت نحوها والتهمت وجهها بوحشية. لم تشعر إلا برجفة عظيمة تزلزل جسدها وتهاوت من السرير ببطء فاصطدم رأسها بالأرض مرة أو مرتين قبل أن يغمرها الظلام.

1962

القنديل المنطفىء

لم تتحرك الستارة السوداء، ولم يزل القسم الآخر من الكوخ هادئا. كان الهواء عاصفا في الخارج وقطرات المطر تضرب سقف الحصير، لكن السكون بقي خانقا كل شيء في الكوخ الرطب سمعهما يتكلمان منذ ساعة طويلة، أمه وأباه؛ فواتاه شعور مؤلم خفي بأن الأمر سيقع بعد قليل. كان جالسا على السرير، يحيط رجليه المثنيتين بذراعين ترتجفان بين حين وحين. فرقعت السماء فوقه، فرفع نظره الى الأعلى. رأى القنديل الصغير يرسل وهجا أحمر ملتويا والدخان يندفع منه الى سقف الزاوية. منذ خمس ليال وأمه تملأ القنديل نفطا وتشعله بعد غروب الشمس. ويلبث هكذا في زاويته العالية حتى ينطفىء أثناء الليل. رآه ينطفىء أربع مرات. ترتعش الفتيلة قليلا ثم تخبو وتترك شعلتها تبعث دخانا أبيض كثيفا. وسيراه ينطفىء هذه الليلة أيضا. سهرت «هيلة» معه ثلاث ليال متوالية ولم تقاوم أخيرا. لعلها شعرت ان شيئا غامضا يمنع عريسها عن إتمام عمل الرجل العظيم. كانت شاحبة الوجه واللحاف الأرجواني يغطيها الى رقبتها. لم يكلمها قط خلال هذه الليالي، كانت أمامه سرا مزعجا يملأ قلبه رهبة. سمع أمه تقول ان عمرها

ثلاثة عشر عاما. كانت تحدث أباه. سمعها يتحدثان منذ ساعة. أحس برجفة في ذراعيه. خيل إليه أنه يرى الستارة السوداء تتحرك. كان القنديل يصبغها بحمرة ضوئه وثنياتها تتموج تحت عينيه. حاولت أمه بصوتها المخنوق أن تمنع أباه عما تتهجسه منه «جا انجوز من الشرف يا بويبار؟» وكان جبار أيضا يتهجس من أبيه أمرا كريها. سمعه يجيبها «ولج يا خايبة البين ماردناها الي؟ مارحنا خطبناها؟» فصرخت أمه صرخة مبحوحة «ومانطوكياها. تناوشت قريشاتي تشتري بيهن مرية. ومانطوكياها يا بو بيار. موش آني مرتك؟».

كان جبار مضطجعا آنذاك في فراشه فقعد منصتا. وصلت اذنه غمغمة أبيه تختلط مع الرعد ولم يفهم ما قاله لها. كانت الريح تهدر كالماء الجاري العنيف والسماء تقصف. ساد بين أبويه صمت مميت قوى في نفسه الشعور المبهم بما قد يقع. هل سينهي أبوه، هذه الليلة، ما يختبىء وراء عيونه الضيقة اللامعة؟ لم يكلمه منذ جاءت «هيلة» الى كوخهم. أخذ ينظر اليه من وراء طيات وجهه الأسمر النحيل. كان طويلا جدا يرجف بهيئته قلب جبار. لو دخل الآن لاضطر أن يحني رأسه. ولكنه.. هل سيدخل؟ هل سيدخل عليهما؟ انتبه فجأة الى القنديل يرتجف بعنف في زاويته العالية. بقي يتأمله. كانت انفاس «هيلة» منتظمة عميقة، وكان يسمعها رغم نقرات المطر وهدير الريح. ثلاثة عشر عاما؟ ماذا يعمل بهذه الطفلة؟ انه لم يردها. ذهب أبوه يخطبها لنفسه فرفضوه فأخذها لجبار ابنه. كانت نائمة، مغلقة العينين ووجهها أسمر في صفرة شديدة. كم تبدو ضئيلة، وهي لا تصغره بغير عامين. وقع شيء ما في القسم الآخر، فتصلبت أعضاؤه، والتفت بسرعة الى الستارة السوداء. كانت ساكنة متموجة الثنيات. سمع وقع أقدام خفيفة يستمر فترة ثم ينقطع. قرقعت السماء بشدة وتدحرجت الصاعقة ثم انفجرت بصوت رهيب. كانت الريح تهدر وتهدر. لو حدث شيء فظيع لما سمع أحد به في هذه الليلة الهائجة. واخترقت جسد جبار ارتعاشة فضم ركبتيه الى صدره. هل سيقتله؟ عادت الاقدام تطأ الأرض بخفوت. كان شخصا يسير حافيا كاللص. كان قلبه يخفق بسرعة وعمق، وأنفاسه تتقطع كلما أرهف

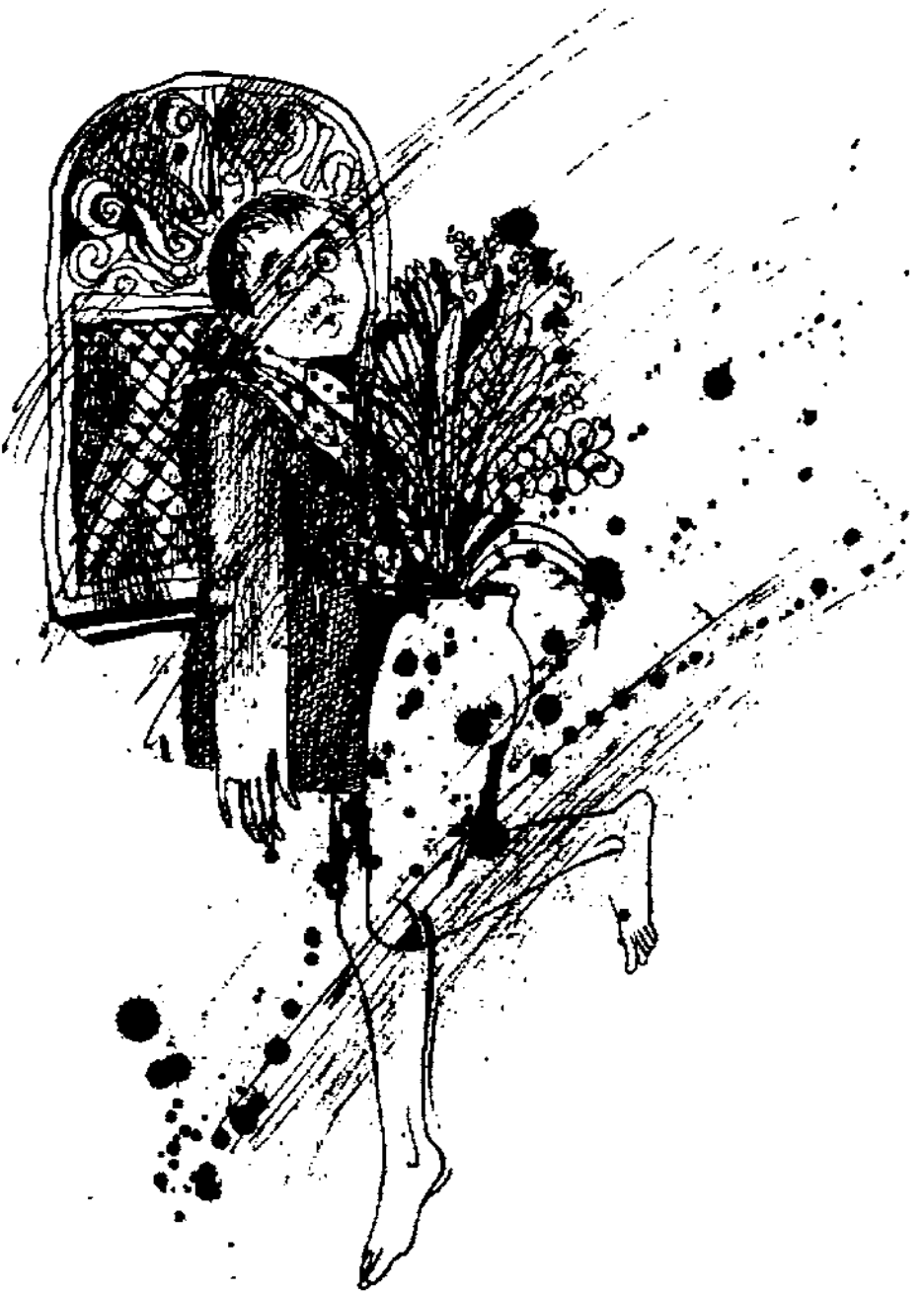

سمعه. لا طريق للهزيمة. ولكن ماذا سيحدث؟ أمن المعقول ان يقدم أبوه على.. آه، ها هي السنارة السوداء تتحرك. باغتته موجة متصلة من الارتجاف فضغط بشدة على قصبة رجليه. أحس بمثانته تكاد تنفجر. هل سيقتله؟ كانت شعلة القنديل تتلوى الى جانبه وثنيات الستارة السوداء تتماوج أمام عينيه الثابتتين. انزاح الستار قليلا من زاويته اليسرى، هل سيقتله؟ وبرز وجه أصفر قاتم الصفرة. كان وجه أبيه بطياته العميقة ولم يكن وجه انسان حي. كانت عيناه صغيرتين تلمعان بصورة هائلة. لقد جاء ليقضي عليه. بقي ساكنا يحدق في عيني جبار. أحس بنظراته مسامير تثقب رأسه. ثم اختفى فجأة كالشبح، وعادت الستارة السوداء تتماوج أمام جبار. أراد أن يصرخ ليوقظ أمه، ليوقظ الجيران، ليوقظ العالم، وتأوه. تقلبت هيلة على جنبها الأيمن. كانت أطراف شعرها تبين حمراء من تحت الجتاية. أول أمس صبغت شعرها بالحناء، هي وامه وأخته. سمع طقطقة في الخارج. كانت نقرات المطر مستمرة متتابعة على الحصير، لكنه ميز بوضوح طقطقة في الخارج. لا بد أن الهواء أوقع شيئا. أم لعله هو، يفتش عما يحطم به رأس جبار؟ أحس بفمه وحلقومه يابسين. حاول أن يبلع ريقه فلم يستطع. جرعة ماء واحدة قد ترد له الحياة. أدار عينيه حوله. كانت جدران الحجرة الطينية سوداء متعكرة وتحت القنديل ظلام دامس. رأى مكانا في السقف يسيل منه الماء ببطء. الأرض قربه عارية وصندوق هيلة الحديدي مفتوح الباب كفم الوحش. لا حركة هناك. هل عاد الى فراشه؟ شعر بألم في معدته. كأن احدا يخزها بدبابيس جارحة. لم يتعش الليلة. لبث يتفرج عليهم يأكلون، تحت ضوء اللمبة، الفضلات التي أرسلها الجيران، دون أن يدفعه الجوع الى مشاركتهم. لم تعد به رغبة لطعام والليل قادم. ومن العبث أن يفتش الآن في الكوخ عن شيء يأكله. لا طعام يبيت حتى الصباح التالي. أمسك بأحشائه ودفعها بقوة. كانت أمه تشد وسطه بخرقة كلما أراد طعاما لا يوجد. تشده شدا عنيفا ينشر الراحة في جسمه. تعبت رجلاه فعاد الى احاطتها بذراعيه. نظر الى الستارة السوداء. ترى الى أين ذهب؟ كانت أنفاس هيلة خفيفة لا

تسمع، وصفحة وجهها وأذنها تبدوان ناعمتين. وكانت شعلة القنديل ساكنة مرتفعة كالمنارة المضيئة. سينطفىء القنديل بعد ساعات طويلة. أحس بأجفانه تثقل وهو ينظر الى القنديل. كم هو متعب مجهد هذا السهر الذي لا يعلم سببه! ورأسه يرن ويهدر مع صوت الريح. آه، أهي الريح التي عبثت بالمنارة المضيئة؟ تلوت الشعلة فجأة وتضاءلت. هل ستنطفىء؟ ثم شعر بهواء بارد يمس وجهه. كانت الستارة منكشفة وانسان طويل يقف أمامه. رفع نظره سريعا، ماذا سيعمل به؟ رباه، هل سيقتله؟ «شو جاعد مال الجلب؟» أحس بقلبه يسد أذنيه بدقاته. كان صوت هذا الانسان غريبا لم يسمعه من قبل. هو ليس أباه. كلا، ليس أباه. وكان يحمل عصا غليظة طويلة في يده اليمنى وعيناه تلمعان كالبرق. أراد أن يكلمه، أن يتوسل تحت قدميه؛ فلم يسعفه لسانه الميت. ورأى العصا ترتفع عاليا، انه يستعملها لطرد الكلاب، ثم رآها تهبط وهي تشق الهواء بسكون.

انفجر رأسه كانفجار الصاعقة وعميت عيناه. أحس، بعد لحظة، بجسمه يتكوم قرب الصندوق الحديدي، على الأرض العارية الرطبة. لم يضربه غير مرة واحدة، بالعصا التي يطرد بها الكلاب. هو أيضا مثل تلك الكلاب السائبة. كلب مجذوم قذر صغير حقير. يرفسونه بالحذاء ليأخذوا قطعة العظم التي لا يريدها. كان رأسه كالدملة الكبيرة، الكبيرة؛ يؤلمه من كل جهاته، وذراعه تحت ظهره مطروحة على الأرض المشبعة بالماء. ماذا يجري هناك، في ذلك الكهف المظلم؟ شعر كأنه في عالم آخر؛ عيناه مغمضتان وأذناه لا تسمعان شيئا، هل انطفأ القنديل يا ترى؟ كانت ذراعه تؤلمه وتبعث بردا لاذعا في كل أنحاء جسمه. بذل جهدا كبيرا ليسحبها من تحته، ثم شعر بأصابعه المتثلجة تمر على وجهه. بدأت بعينيه تفركهما ثم ارتفعت الى جبينه. كانت أصابعه باردة عليها قليل من الطين. ادخل اصبعا في أذنه وحركه وهو فيها. طنت أذنه، ومر بها هدير ثم سكن. خيل اليه أنه يسمع حركة عنيفة على مقربة منه. سيعاود ضربه، سيقضي عليه هذه المرة. جمع قواه وقلص أعضاء جسمه كلها فأحس بنفسه قاعدا على الأرض. فرك عينيه بجنون ثم

فتحهـا. كان القنـديل يضيء بشعلته الحمـراء فراشهـا. رآهما كالثياب المختلطة؛ كان فوقها وكانت هيلة في انهيار قواها الأخير تنتزع صرخات قصيرة خافتة من فمها المغلق بوحشية. كان منظرهما كابوسا مريعا. السرير يهتز بشدة ويبعث أصـواتا تختلط بهمهمة غريبة لم يعرف مصدرها. شعر برعب هائل يجتاحه فجأة. أراد أن يصرخ وكان جسمه يرتجف ورأسه يدور. لم يدرك شيئا سوى شناعة ما يجري تحت بصره. سيقتلها، سيمزقها قطعا. ثنى رجليه ثم قام فارتمى بظهره على الحائط. كان الرعب يعصر قلبه، وشعر حال اعتداله بماء دافىء يبلل فخذيه. لم يستطع أن يحول عينيه عنهما. كان القنديل يرسل ضوءا أحمر كالدم المتجمد؛ والثياب تتحرك بسرعة ثم تهمد لحظة وتعود الى حركتهـا المخبـولـة. رأى، بين اضـطراب الملابس العنيف وصرخات هيلة وغمغمـة الوحش، ساقا ترتفع كالجثة المسلوخة في الهواء، ثم تلتها صرخة حيوانية عالية. كان الحائط وراءه باردا متعكرا، والمطر ينقر سقف الحصير. حاول أن يصرخ، وكانت الريح تهدر وتهدر من بعيد.

1954

أمسية خريف

سار بخطوات لينة مخترقا الشارع المشجر؛ كان طويل الجسم يرتدي ملابس زرقاء غامقة وعليه مسحة غريبة من السكون. والشمس لم تكن قد غربت بعد، ولبثت أشعتها الصافية الحمرة تحتضن رؤوس الأشجار العالية. السماء رقراقة شفافة بلورية الزرقة، ليس على صفحتها الملساء غير غيوم خفيفة. ذكره هذا المساء الخريفي الرطب الهادىء بالشتاء المقبل وبجليد الشمال، أبيض، أبيض كالقطن؛ فابتسم بهدوء. كم قضى من أيام سعيدة هناك!

هناك، هناك في الموصل؛ وخطر له أنه يبعد عنها سفر ليلة بالقطار السريع؛ يسير في الليل المظلم البهيم ويصل بغيته صباحا على زقزقة العصافير. لا يوجد أجمل من هذا القطار، هذا القطار العزيز. ومع ذلك فلم يركبه منذ سنة ونصف. كانت علاقته بالموصل قد انقطعت، لكنه لما يزل يحب قطارها.

قصرت خطواته وبدا على وجهه الطويل المحلوق حزن خفيف، ثم انطبع على عينيه الواسعتين العميقتين شرود عن العالم وتطلع الى أفق قصيّ.

رجعت الى ذهنه، انبثقت فيه، صورة جميلة رافقت جميع أيامه الحلوة في الموصل. عينان رزقاوان شاحبتا الزرقة، وملامح دقيقة شفافة البياض؛ شفتان طريتان، وشعر ذهبي ناعم. كان يلمس شعرها بحنو فتسري نعومته السحرية في حنايا جسمه، فتبتسم الشفتان الطريتان وتبتسم هي له وتبتسم عيناها لعينيه. تبتسم عيناها لعينيه، فتضيقان قليلا وتبتل جوانبهما بمثل قطرات الندى وتشحب زرقتهما الفرحة. وشعر ببرودة نسمة هبت من بين الأشجار فأغمض عينيه فترة «ما هي حياتنا هذه؟ نتهاسك ونبذل جهدنا، لكن ذكرى عزيزة واحدة تخرب كل شيء». تخرب ارادته في ألا يعيش مع هذا الخيال، هذا الطيف المحوم الذي لم يعد بعد داخلا في حياته «لم تزوجتُ اذن؟» وأدرك في الحال عوز سؤاله لأي معنى؛ كانت بديعة حلوة مثل الربيع، ذكية كأنها الحياة كلها. ولم ير شيئا ناقصا فيها سوى أنه أحبها أكثر مما تحب المرأة. وعندما تعرف عليها، تذكر في لحظة كل شيء، وصافح اليد البضة الممتلئة وضغطها وأحس بحرارتها، تلمس بوضوح الرباط الخفي الذي وصل بينهما. كانت تلف جسمها ـ أوه جسمها الالهي ـ برداء أبيض ضيق بعض الشيء، وكانت تكشف عن ذراعيها. عندما جلس قربها بحدثها، شعر بدفء غريب ينبع في قلبه ويسبغ عليه روحا من السرور. كانت مؤدبة، لطيفة، ساحرة؛ ولم يدر ماذا يعمل لها إن لم يتزوجها.

وتركت أضواء الشمس الحمراء، حمراء كشفتيها، رؤوس الأشجار وشعشعت في غيوم خفيفة فصبغتها بلون الدم. وتسلل نسيم مبلل من بين الأغصان الساكنة فعبث بخصلة من شعره. كانا معا في غرفتها وهي ترفع بأصبعها البارد اللين خصلة من شعره تقع بعد حين؛ وكانت تريد أن تفنى فيه. ولكنه، وهو يشعر بدفئها قربه وحيويتها، رفض ذلك ببسمة خفيفة وحذرها من هذا الفناء فيه. «لم لا أكون داخله في نفسك كأنني أنت؟» قالت ذلك مخلصة، تلك المخلوقة الحبيبة، ورفعت الخصلة والتصقت به. «ألم أقل لك حذار؟ إنك حبيبتي، وأنت زوجتي العزيزة؛ ولكن لا تكوني صدى لي. سأكرهك آنذاك». وقبلها، وامتص طراوة شفاهها وحرارتها. «دعيني أسعد

معك وتسعدين معي، لأننا عالمان يبهج احدنا الآخر». فتكور خداها الأبيضان الصقيلان في ضحكة ذات مغزى «هل تظنني لا أفهمك مطلقا؟» كلا، كلا؛ لم يظن انها لا تفهمه جيدا. كان يعلم ان فيها بذرة طموح وذكاء وخصب؛ وقد جعلتها عبادته لجسمها وروحها تشعر بلذة الخلق. وهكذا قضيا سنتين، سنتين في الجنة. نمت نفسها، شخصيتها، في أشهر قلائل نموا لم يتوقعه لها. أخذت تقرأ كتبه، وقد كانت متهجمة أول الأمر، تخاف ألا تكون ندا لما تحاوله. قالت له، يوما، وكانت مقطبة الحواجب يظهر الضيق على وجهها الرائع «قرأتُ كتابا عن الفلسفة اليونانية». ثم هزت رأسها فتمايل ذهب شعرها «ولم أفهم منه شيئا». «هل أكملت الكتاب؟» «كلا» «أكمليه في المرة القادمة». وهنا أضاء بعنف نور داخلي فيها، تطلعت إليه مترددة قليلا ثم رفعت يدها فحكت خدها الأيمن «كلا، سأهمل كل كتاب لا أفهم منه شيئا».

وتداخل الظلام الكثيف بين أشعة الشمس الصفراء فخفقت خفقات بسيطة وارتفعت من الغيوم الخفيفة العالية الى سماء لا ترى، وكان الشارع المشجر قد انتهى وانفسح أمام عينيه فضاء عريض فوقف برهة. عاد الى نفسه فتذكر موعدا نسيه بين طيات هذه الذكرى، فرجع أدراجه ودلف بعد سير قصير في طريق ضيقة. كان الظلام باهتا، لكن أنوار الدار الصغيرة لفتت نظره من بعيد فعرف أنه وصل بعد الوقت المضروب. «لا بد ان بعضهم قد جاء قبلي. ماجدة وحفلاتها التي لا تنتهي!» ثم ضغط على زر الجرس ففتح له الباب بعد قليل:

ـ مساء الخير

فأجابته الشابة الجميلة:

ـ مساء الخير عمي، تفضل

كانت سوداء الشعر سوداء العينين واسعتهما؛ وكانت بشرتها بيضاء صافية. دخل وراءها شاعرا بمرح يفاجئه؛ كانت قصيرة ممتلئة الجسم تتحرك بحركات لطيفة لا تكاد تمس الهواء. خطر له «هذه صديقة فتانة فقدتها».

كانت تفهمه وتنصت اليه حين يكلمها وتعتبره رجلا كاملا . وكان يحاول دائما ألا ينظر إليها كابنة أخيه ؛ أفهمها دائما أنها امرأة، شخص منفرد لا ينقصه شيء، وأنها له صديقة عزيزة . ولكم جلسا سوية يكلمها فيسحرها، ولكم تنزها في الحدائق قرب بيتهم وسارا لا يحسان بالزمن .

دخلا قاعة ذات ضوء بديع فسلّم على الجالسين فيها وصافح بعضهم ثم جلس قربها على كرسي طويل :

ـ هل أقول لك بالانكليزية Happy Birthday فابتسمت :

لا حاجة أبدا . خذ راحتك وتكلم بالعربية فضحك من صميم قلبه :

ـ اني آخذ راحتي معك دائما

ثم أردف :

ـ هل أقدم لك هديتي الآن؟

فتحمست جدا، كان حماسها جميلا :

ـ طبعا، طبعا . ما هي؟ كتاب أليس كذلك؟

فأخرج لفافة من جيبه :

ـ لم تعد مفاجأة مع الأسف

اختطفته من يده وأسرعت تقوم خارجة من القاعة :

ـ لن أري هديتك لأحد

ـ لماذا؟ ألا تستحق أن تُرى، أم أنهم هم الذين لا يستحقون؟

ـ هم، هم بالتأكيد

واختفت وراء الباب .

تزوجت قبله دكتورا غنيا . كان طويلا سمينا ذا عقلية علمية تافهة ونفس كابية فقيرة . كانت فتاة صغيرة آنذاك فتألم لزواجها ألما عجيبا لم يتصوره . حدثوه عن خطبتها ذات مساء، فخرج ذاهلا لا يعلم سبب ذهوله، وخرج متألما لا يعلم سبب ألمه . لم تكن مستعدة لحياة مثل هذه التي بيتوها لها . وكان يشعر بذلك شعورا طاغيا . ولحسن حظه لم يرها بعد زواجها، فقد سافرت مع زوجها لقضاء شهر العسل، لكنه كان ينتظر تغيرا فيها؛ وكان،

لهذا الانتظار، قلقا حزينا.

أشعل سيجارة وسحب نفسا عميقا منها. جو القاعة كان مليئا بالدخان وحرارته عالية وأحاديث الجالسين ترتفع وتمتزج فيه بصورة مزعجة. ذكره هذا بحفلة أقامها مع زوجته في الموصل، فعاد لعينيه العميقتين شرودهما وتطلعهما الى أفق قصيّ. كان نور الغرفة ورديا خفيفا لا يؤذي العين، ورائحة الدخان والفوضى التي تسود الأثاث تعطي انطباعا بانتهاء حفلة ناجحة. وكانت زوجته في ثياب خضراء داكنة، أنوثة طاغية محرقة، وقد جلست باحتشام على كرسي أمامه تشاركه تدخين سيجارة أخيرة قبل النوم. النوم! آه، النوم سوية وعلى فراش واحد دافىء مع حورية مثل زوجته. أحس بنفسه يشتعل. لم يرها لحظة تختلط مع أصدقائه وزوجاتهم إلا وشعر بجنون رغبة قوية يحرقه. كانت معبوده حتى حين تبتسم الى رجل آخر. معبوده الجميل، خدودها المتوردة الصقيلة، شفتاها الحمراوان حمرة شديدة، وعيناها مكحلتان شاحبتا الزرقة، ولحمها بض حار ناعم. جلسا بسكون، ينظر إليها فتحاول أن تتحاشى نظراته وتحاول أن تنزل أطراف ثوبها على غير عادتها. لم يبد عليها أنها تريد ان تتكلم. لكنه تهجس ما تضمره. رأى عينيها تعبران عن قلق لا يحتمل؛ كانت عيناها تتكلمان وتقاومان وتشتهيان وتتعذبان، لكنهما الليلة كانتا تعبران عن قلق لا يحتمل. وبقيا جالسين بسكون. وبقيا جالسين بسكون كم طال هذا السكون، ثم أطفأت سيجارتها بأناملٍ ترتجف وبادأته «ما رأيك بعبد السلام؟» «هذا الضابط شقيق سعيد؟» فهزت رأسها بصبر نافذ أن نعم، «فارغ» «فقط؟» «ومعجب بك أيضا. انظري، ان اعجابه يزعجني. انك لا ترديه» قطبت حاجبيها الأسودين، ود لو قبلهما «ماذا تعني؟» «لا شيء، لا شيء مطلقا» وتخيل الفراش الدافىء واللحم البض الحار الناعم «اسمع» اندفعت هكذا فجأة «اني احترمك كزوج» فأفزعته في حلمه، أفزعه القلق الممزق الذي انثال من عينيها الحلوتين «لكني أعتبر نفسي حرة بعواطفي. ولهذا السبب اتصلت بعبد السلام». كانت تعصر أصابعها ورآها تضغط على أسنانها بعنف. لم يفهم كلماتها أول الأمر، ووجف قلبه؛ ثم أحس بنفسه

يضطرب، وبداخله ينقلب الى قطعة لينة تتماوج ثم توشك أن تنهار؛ لكنها تعود ثابتة ثم تتماوج وتتماوج وتميل الى الانهيار. . الانهيار التام.

وفي لحظة خيل إليه أن حرارة غريبة تسري بلين من وسطه الى الأعلى. . الى رأسه، فألهبت قلبه ثم دوخت ذهنه «ماذا تقصدين؟ لماذا تتكلمين هكذا؟» ولم يكن هذا صوته، كان خشنا قبيحا مترددا؛ ويبدو أنه أخافها فأسرعت تريد ان تنجو من هذه الدقائق النارية «أظن قصدي مفهوما» ثم أخرجت منديلها الحريري الأبيض وصارت تشده وتتركه بين أصابعها «لا تعذبني يا طارق. اني أتكلم بهذا الشكل كي تعرف بأني لست منحطة. لست حيوانة. أنا أحترمك، لكنك لا تستطيع ان تقتل كل عاطفة فيّ». فأشار إليها بيده؛ كان يعتقد أن بمقدوره أن يهدأ، لكنه يحتاج الى زمن. وكان هذا الزمن بعيدا عنه؛ غير أنه يجب أن يحصل عليه، يجب أن يحصل عليه. انها لم تكن تهذي. وهذا ما أوقف الدم في عروقه وأخفض درجة حرارته. ولم تمض لحظات حتى كان هادئا، رُفعت عن عينيه ستارة التبلد ولم يخطر له يوما من الأيام أن يكون بمثل هذا الهدوء. هادىء، هادىء بصورة تامة. كالبحر دون أمواج؛ كالسماء، كالسماء. «لماذا تتخاصمين؟ تكلمي على سجيتك» وزفر زفرة باردة هي كل ما بقي من أزمته. كان يعلم أنها لم تكن تتعارك معه، لكنها كانت تتصارع بضراوة مع نفسها «لستُ أكرهك» أمالت رأسها وأغمضت عينيها برهة «لست أكرهك يا طارق. لقد بادلت هذا الشخص عاطفته لأعرف أنني لازلت انسانة حتى بعد زواجي» المجنونة. الطفلة المسكينة المجنونة. فكرتها أوضح من الشمس وأشد سذاجة من بكاء الطفل. أحس فجأة أنها حطمت حياتها دون سبب. كانت تجربتها خطرة نزقة، ولا يزال يلومها أنها أدخلت العالم كله معها في هذه التجربة، وأدخلته إليها هو قبل كل الداخلين. قبل العالم كله. وضعته على حين غرة أمام أزمة في حريته، أزمة اجتازتها هي بتعثر وتخاذل وخسة؛ وكان عليه أن يجتازها هو أيضا وأن يخرج منها محترما لنفسه؛ محترما لنفسه، محترما لنفسه.

وسحب نفسا عميقا آخر من سيجارته ثم تنهد. كان وحيدا، وحيدا في

عالمه. ومن كرسيه المريح أخذ يراقب الدخان المتصاعد من السيجارة الى الأعلى، مثل الضباب، مثل روحه الحرة التي تعشق السماء. ولكنها روح وحيدة، وهي لوحدتها حزينة كئيبة دائما. وعندما رأى الدكتور حامد زوج ماجدة يدخل الغرفة بضوضاء مصطنعة، خيل إليه ان من الصعوبة أن يملك مخلوق مثل هذا روحا تعشق السماء، وقام يصافحه «كيف أنت؟» «شكرا، بخير. تفضل استرح» كان بدينا نازعا سترته ومظهرا الشعر اللامع الأسود في صدره. شعر بتفاهة هذا الشخص وهو ينظر اليه يصافح مدعوا آخر. ما غايته في الحياة؟ ولماذا يموت؟ وسمعه يتكلم «من هو؟ عبد الستار؟ لو يشتغل بائع حب لعاش أحسن من عيشته الحاضرة. انه مجنون» وصدقوه جميعا. كانوا ينصتون اليه كأنه يعلمهم الكلام. ومع ذلك، فلأجل شخص، لوح خشب، من هذا النوع ارادت أن تكون انسانة تشعر بحريتها وشخصها. كم اشتهاها تلك الليالي التي اعقبت اعترافها! ود لو يضع هذه المخلوقة الجميلة الثائرة الخائنة في قلبه، في صميم قلبه. ولكنها كانت بعيدة عنه، بعدت خلال يوم واحد مسافة هائلة عنه. ومع شعوره وهو في مكتبه يسير ذهابا وإيابا بأنها تجلس كالحجر في غرفة النوم، فانه لم يكن يصدق، لم يكن يصدق مطلقا أنه اذا فتح بابا قريبة فسيجدها أمامه بكل ما فيها، بكل دنياها الغريبة الملونة. ولكنه مع ذلك لبث يتصورها أمام عينيه. أبقاها طوال الليالي الأربع تجاهه. مرة عارية، جسدها الملتهب الراقد جنبه، المستعد للفناء فيه؛ ومرة واقفة في ثوبها الأخضر الداكن تعلن له، آه.. ولم يكن يطيق استرجاع هذه الصورة في ذهنه. كان يشعر آنذاك ان عليه كرفيق ان يفهمها، يفهمها كما لو لم يكن زوجها، يفهم حقارتها وذلها وضعفها وخستها. ولكنه يفهم أيضا محاولتها ورغبتها الصادقة، من يدري، في ان تنال صفة لا تعلم هي نفسها ما كنهها. لعلها كانت تموت لو لم تفعل ما فعلت، ولعلها، من يدري مرة اخرى، لم تكن بها حاجة لأي شيء من هذا النوع. ومع انشغال فكره الفظيع، ما أمرها ساعات، فلم ينس الملل الذي صار يضغط عليه تلك الأيام ضغطا مؤلما. ملل من كل شيء، من تقرير مصيره معها، من الاهتمام بنفسه، من تذكر

كلماتها وحركاتها، من الحياة نفسها، الحياة نفسها. وبسبب هذا الملل فقط، لا يزال يتذكر ذلك المساء الرهيب ولكن لِمَ كان رهيبا؟

لبس ثيابه حوالي الرابعة والنصف وخرج من المكتب فوجدها جالسة في (الهول) تقرأ كتابا. كانت نظيفة حبيبة، فتملكته رغبة قاسية في تقبيلها، في احتضانها، في البكاء معها. وتقدم نحوها فرفعت بصرها إليه. العيون الزرق الشاحبة، الزرقة الشاحبة الخائنة. لقد ضاعت من حياته. «أعتقد ان الندم شيء سخيف بالنسبة لنا». فتحركت شفتاها الحمراوان حركة بسيطة «ولعلي كنت أفهمك جيدا لو لم.. لو لم أكن أحبك، ولهذا» سكت كأنه يشتاق أن يطيل زمن وجوده معها «لا أظنني أستطيع ان أعيش مع امرأة مثلك.. اشمئز منها». وخرج، ولم يرها بعد ذلك. خرج الى المساء الرهيب الطويل الذي لا يريد ان ينقضي. بقي يسير في شوارع الموصل دون أن يدري لماذا، وكان يحس بالازدحام يخنقه ويعصر صدره. السماء غير السماء، والناس غير الناس، والشوارع غير الشوارع، والدنيا كلها غيرها هذا المساء. وكان في شارع (نينوى) المظلم وهو يشعر بنفسه حبيسا بين الناس، عندما رأى سلسلة من الجبال تترامى وراء الجسر. الوانها باهتة، لكنها تبدو كأنها في الغيوم، في عالم سحري جذاب، فلفته شهوة عنيفة في الانعزال بين وديانها ومرتفعاتها، شهوة عنيفة كاد يصرخ ويبكي حين تملكها له. وعبر الجسر الحديدي واندفع الى أرض منفسحة لكن مياه النهر دوخت رأسه والأفق البعيد أدخل اليأس الى فؤاده. لماذا يعيش دون سبب بين الناس؟ بين الناس، بين الناس دائما؟

وعاد تلك الليلة الى بغداد، في القطار الذي يسير ليلا ويصل بغيته في الصباح على زقزقة العصافير. ما أسخف هذا حقا؟ «هه» وأحس على نفسه، شعر بجسمه، وهو يقف أمام الشباك والقاعة من خلف خالية ساكنة. سمع ضوضاء المدعوين في غرفة أخرى. فانكفأ الى الحديقة. كانت مظلمة، مظلمة مثل حياته، لا تبين للعين فيها غير اشباح أشجار تتحرك؛ ومن يعلم فقد لا توجد هذه الأشجار! واذا حدث ولم توجد؟ «هذا العيش في الماضي سيقتلني أخيرا». ورجع قاصدا الغرفة الأخرى ذات الضوضاء.

كان بعضهم يرقص على نغمات خافتة من الراديو وبعضهم يشرب من كؤوس لامعة؛ ورأى ماجدة مشغولة بالاهتمام بمدعويها، اما الدكتور فكان منتفخا وسط لفيف من أصدقائه يحدثهم «يخطب دائما هذا الدكتور التافه» وسمعه وهو يقترب منهم «أنا؟ أنا لا أدعه يعمل حمالا عندي. انه انسان لا قيمة له». فانبرى له مستهزئا «لو يشتغل ببيع الحب لكان أشرف له» فتطلع إليه الدكتور بنظارات تلتمع وسكن لحظات «فعلا، بالفعل» فهز هو رأسه مبتسما بهدوء وتراجع يفتش عن ماجدة. رآها تخرج من الغرفة فلحق بها. سألها، وكانت ترتب المائدة، عما يشغلها فضحكت «بطونكم، بطونكم» فضحك معها وتركها الى غرفة أخرى. حدث نفسه انها قد تكون حقيقة تريد الانطلاق من أسر زوجها، قيوده التي وضعها في يدها يوم عقد زواجه. وتذكر يوم زارهم بعد عودتهم من شهر العسل. احس منذ الساعة الأولى ان صديقته العزيزة فقدت نفسها فقدانا مريعا. حدثته عن سفرتهم «لم نستطع مفارقة سويسرا. سحرتنا جبالها وثلوجها وأناسها. أردت الذهاب الى فرنسا لكننا لم نذهب». كان حديثها بصيغة الجمع كأنها صارت اثنين أو كأنها أضاعت الواحد الفرد الذي كانته. ثم تذكر زياراته الأخرى لهم، زياراته المتصلة، المتصلة. لكنها كلها كانت تزيد خشيته في فقدانها. حتى اللحظات التي كان يشعر فيها أنه ارجع إليها قليلا من نفسها، كانت تسأله منكسرة يوشك ان يحس أنها معذبة. «ما الفائدة من محاولات الانسان معرفة نفسه كما تقول؟» ثم تجيب نفسها في ذهول بسيط «لا فائدة البتة؛ حياته تبقى كما هي، عالمه يبقى هو هو». فكان يسكت ويخشع أمام هذا الاستسلام المخيف، هذا الضياع للشيء الوحيد الذي يملكه الانسان. سمعهم ينادونه فخرج وذهب الى غرفة الأكل. كانت أحاديثهم كلها عن أمور تفصلهم عن نفوسهم. وكانت كلمات الدكتور تنفذ إليه في وحدته بين آن وآن. «من هو؟ سعدون؟ ابو شوارب؟ هذا الحيوان» «انظري ماجدة، هذا ليس ملائما». وكان يراه يراقب كل حركة فيها ويخشى ألا تعمل ما يراه ملائما وتترك ما يراه غير ملائم، ثم غاب عن عالمهم بعد أن ضجر؛ وعاد بعد وقت فوجد نفسه منفردا مع

الدكتور بعد أن ذهب المدعوون عقب تناول الطعام. كانا يدخنان، وكانت ماجدة قد صعدت الى غرفتها لتبديل ثيابها. لم يدر لماذا بقي، ولماذا كان يبقى طويلا كلما جاء عندهم؟ أهي رغبته في ان يراها، أم، رغبته في خلاصها الذي لا تفهمه، ام رغبته في ان يتحسر اكثر ما يستطيع؟

كان الدكتور يشرب من قدح بجوار مقعده. ثيابه غالية مترفة وبشرته بيضاء يكسوها شعر أسود نظيف، وشحمه يترجرج اثر حركاته الطفيفة. كم هو تافه؛ لله، كم هو تافه «الهواء بارد قليلا» قالها الدكتور وقام الى الشباك فأغلقه ثم التفت اليه «هل جلبت لماجدة كتابا؟» فأجابه بهزة رأس خفيفة فاستمر الدكتور «حسنا، هل تعلم أنني لن أدعها تقرأه؟» وانعكس الضوء في نظارته فتلألأت «انه يفسدها. يدخل في ذهنها أفكارا لا أحبها.» «سخافة» وأطفأ سيجارته بأصابع مضطربة. «نعم؟» فانهمر كالسيل وهو يشعر انه يدافع عن حياته «أقول لك انك سخيف. انك مجنون. تريد أن تجعلها آلة بيدك، عضوا من أعضاء جسمك. تريد أن تقتل كل نزعة عندها للاستقلال. لماذا تقف أمامك انسانة مثل باقي الناس؟ كلا. لأنك تخشى من ذلك على نفسك، نفسك الجبانة الأنانية» كان مضطربا دون أن يعلم السبب؛ وقد شعر بصورة مبهمة كأن زوجته تراقبه، فتمزقت أعصابه فجأة؛ بينما لبث الدكتور هادئا متعقلا «ليست لدي هذه النزعة التي تتحدث عنها، وأعتقد ان زوجتي انسانة بدرجة كافية. وأعتقد أيضا ان محاولاتك المتكررة لجعلها تنفر مني، أنا زوجها، ليست محاولات يمكن ان تسمى شريفة». ثم نزع نظارته وبقي ممسكها بيده اليمنى. ومع أنه كان مواجها للباب الذي وقفت فيه ماجدة تنصت خافقة القلب الى كلمات زوجها الأخيرة، فانه لم يستطع في هياجه أن يراها. واستمر وقد صعد الدم الى وجهه «اني الاحظك جيدا منذ زمن. أنك مريض دون أن تعرف ذلك. مريض شاذ. لم تستطع أن تعيش مع زوجتك لأنك تحب امرأة أخرى. ولهذا تريد أن تفرق بين كل زوجين يعيشان بسعادة». بماذا يهرف هذا الدكتور المخبول؟ وقف محتدا أمام الدكتور «لا تتدخل بشؤوني الخاصة. هل فهمت؟» فاتخذ الدكتور صفته

الأزلية، صفة العالم «ان حبا شاذا يسيطر عليك، حبا شاذا. اذهب وفتش لنفسك عن محلل نفساني. اترك هذه المحاولات لتخريب بيوت العائلات السعيدة». وقطعت على الدكتور كلامه صرخة ثاقبة انبعثت من عند الباب فالتفتا. كانا محمري الوجه مشوشي الذهن، ولم يفهما لماذا صرخت ماجدة وتقدمت نحوهما ويدها على صدرها ووجهها أصفر شاحب. كان يتصوران أنهما يتفاهمان بهدوء واتزان فانتظرا منها لذلك أن تكون حكما بينهما. انتظرا بصورة لا ارادية وبأعصاب مزعزعة.

كان الليل باردا رهيب الظلمة، يشابه الى حد كبير ذلك المساء الأسود الذي قضاه في الموصل. وكانت السماء غير السماء، نجومها لا تنير ولونها قاتم كئيب. والأشجار تقف بسكون كالأموات، والدنيا كلها غيرها في هذا الليل الرهيب الطويل. اندفعت متلهفة الى أحضان زوجها «حامد، حامد؛ لا تدخلني انا، اني لم أرتكب ذنبا». وخصلات شعرها السوداء تهتز باهتزاز جسمها الرشيق. لم يبق له مكان في الدنيا «ان حبا شاذا يسيطر عليك، حبا شاذا» الشارع المشجر خال خاو لامع الأرض؛ والأضوية ضعيفة صفراء. خيل إليه أن زوجته تسير جنبه وتشاركه عالمه الحزين، لكنه خيال مرَّ عليه لحظات ومضى. وبقي سائرا بخطوات متثاقلة بطيئة وجسمه منحن. لماذا يعيش دون سبب، يعيش بين الناس، بين الناس دائما؟

واختفى في ظلام الشارع.

1951

التنّور

«تخطيطات لدفاع عن النفس غير مكتوب»

صحيح اني لم أقل الحقيقة أول الأمر، كتمتها شهرا وبضعة أيام. . الا اني كنت موقوفا طيلة تلك الفترة، والشرف عزيز والانسان لا يعلم متى يجب أن يقول الحقيقة.

سادتي الحكام، اني بريء من هذه التهمة وقد قتلتُ فرحة زوجة أخي عبد الحمزة لأنها كانت زانية. لقد فاجأتها وهي متلبسة بجريمتها فأخذتني العزة العربية وفقدت صوابي، كما تعلمون، لأن الشرف غال، وقد جرت العادة ان يغسل بالدم. لذلك حشوت بندقيتي الصيدية المبرزة أمامكم وأطلقت عليها النار مرة واحدة وهي بحالة التلبس. اما العشيق. . اسمحوا لي أيها السادة الحكام أن أتكلم من البدء بشأنه.

لم أره معها كما يمكنكم أن تخمنوا. كانت خارجة ذلك الفجر من غرفتهم تعد لنا الفطور وهي تلبس دشداشة حمراء منقطة بالأبيض. رأيتها قرب التنور تسجره استعدادا لصنع الخبز. قالت لي إنها أخطأت وزنت وهي ترغب في الانتحار. ثم بدأت باشعال التنور وتحضير الطلقات كي ترميها فيه وتنتحر، ففارت الدماء في عروقي ووجهت نحوها البندقية ثم أطلقت النار

فأرديتها قتيلة. الشرف عزيز يا سادتي الحكام ونحن عرب اقحاح لا نستطيع أن نترك العار يمسنا هكذا. لقد اعتدنا أن نقتل الزانية، جرت العادة الا ندع المخطئة تحيا بيننا. انها وسخ يجب ان يُزال. ولقد قالت لي فرحة بنفسها انها خانت زوجها في فراش الزوجية منتهزة فرصة توقيفه من قبل المدير فواعدت عشيقها فجاءها بعد نزول الظلام. اني لم أفعل شيئا سوى الدفاع عن عرض العائلة. ان زوجها هو أخي وهي ابنة عمي. ولقد استغلت صغر سنها وجمالها، لأنها في التاسعة عشرة من العمر، جميلة الوجه بعينين كالعسل، كي تغري عشيقها ليوافيها في الموعد المشبوه. وهكذا انتهى كل شيء.

أما أختي لامي حليمة فلم تر شيئا. احلف لكم بكتاب الله العظيم. نعم لقد كانت معي، ولكنها لم تشترك بأي عمل لأنها لم تكن هناك. لقد كانت في جهة أخرى من الدار. ولاجل ان اوضح للمحكمة المحترمة وضع العائلة وطريقة معيشتها أود أن أقول أننا أناس فقراء نسكن جميعا في دار واحدة ذات غرف متعددة مبنية كلها من الطين. في الجهة الشرقية غرفة أخي عبد الحمزة تلاصقها غرفة والدتنا ثم غرفة عائلتي. انا شخص متزوج منذ عشر سنوات ولي أربعة أطفال صغار. لقد خدمت في الجيش ورقيت الى رتبة نائب ضابط، ولم يحكم عليّ من قبل. التنور يقع وسط الحوش، قريبا من حجرة أختي حليمة. ان لاختي غرفة طينية صغيرة مثل غرفتنا تسكن فيها، نسيت ان انور المحكمة عن هذه الجهة.

ليلة الحادث، في الصباح، ايقظتني أختي من النوم. وفي الحقيقة كنت مستيقظا، وأعتقد أن خالتي نورية التي كانت برفقة زوجة أخي القتيلة هي التي نادت علينا تسألنا عن مصدر الاطلاقات النارية. خرجت فوجدت فرحة ممددة قرب التنور والطلقات تنفجر فيه. هذه هي ملخص أقوالي أمام المحقق وهي لا تمثل الواقع كما تعلمون يا سادتي الحكام. لقد نسيت نفسي وأعدتها عليكم فأرجو المغفرة. لقد حلت بنا المصيبة فجأة فخطر لنا ان ندبر أمرنا بشكل من الأشكال. إلا أن الحقيقة لا يمكن ان تُخفى، لا يمكنها أن تختفي لسوء الحظ. لقد كنت نائما تلك الليلة في الدار حينما أيقظتني حوالي الساعة

الرابعة أو الخامسة صباحا أختي حليمة. همست بانها قد رأت شخصا يتراجع ويمر مخترقا الحوش بسرعة. قمت خارجا وذهبت الى غرفة أهلي النائمين، ثم انتقلت الى غرفة القتيلة فرحة فرأيتها بمفردها. لقد تبين أخيرا ان أختي حليمة وهي بالمناسبة فتاة صغيرة، حادة الطبع في السابعة عشرة من العمر، كانت قد شهدت أمامكم كيف أنها رأت القتيلة فرحة نائمة مع شخص غريب وهي تمارس معه فعل الزنى فجاءت إلي توقظني فارتديت ثيابي وخرجت أستطلع الخبر. عندئذ رأيت فرحة تهيء التنور. هكذا تمت الأمور فعلا. كانت السماء بيضاء والتنور ثائرا يقذف حممه الحمراء. قالت لي فرحة، دون ان تستدير، شيئا عن الزنى والشرف والانتحار. كنت مرتكبا امام حكاياتها، لكن دمي فار بسرعة فتناولت البندقية من حليمة ووجهتها نحو فرحة ثم ضغطت الزناد. أطلقت نحوها طلقة واحدة فقط من هذه البندقية الصيدية التي وُجدت قرب الجثة. لقد حشوتها بخردقة واحدة، ولذلك تجدون أن الطلقة اخترقت رأسها. كنت أدافع عن شرف العائلة المثلوم، واني لأطلب منكم أيها السادة الحكام ان تقدروا موقفي الكامل وان تأخذوا بعين الاعتبار والرحمة وضع عائلتي الكبيرة وكوني شخصا فقيرا بنيت نفسي بنفسي وتعلمت القراءة والكتابة واني نائب ضابط سابق. لقد قتلت الزانية لأنها زنت وليس لسبب آخر، وأنتم تعلمون انها اعترفت لي بذلك وجها لوجه. وقفت أمام التنور بثوبها الأحمر وهي تعلن بأنها قد أخطأت ولوثت شرفنا كلنا. أما أقوال الشاهدة نورية، من انها كانت مع فرحة في نفس الغرفة طوال الليل فلا قيمة لها. انها امرأة مختلة الشعور وان القتيلة اعترفت لي بنفسها أنها قد ارتكبت جريمة الزنى. كذلك فان أختي حليمة رأتها في وضع مشين لا يقره الشرف ولا الشرع. امرأة شابة تستغل توقيف زوجها لتواعد عشيقها في نفس الليلة كي يأتيها بعد غروب الشمس الى دار الزوجية ليرتكبا جريمتهما الشنعاء. في نفس الليلة أيها السادة الحكام، أثناء ما كنا مهمومين جميعا بتوقيف أخي عبد الحمزة كانت هي ـ لا أدري بأية وسيلة ـ تدبر أمر لقائها مع المجرم. اني شخص غير متعلم، همجي كما يقولون، ولكني أعرف مكانتي ومقامي، رغم اني لا ازال شابا لم أجاوز

الثلاثين. لقد أفهمتُ القتيلة جيدا بأن جريمة الزنى لا يمكن أن تقع في دارنا. نحن عائلة شريفة محافظة من الاعراب، لا تسمح بأن يُثلم شرفها. حاولت اقناعها بشتى الطرق أن تترك تصوراتها وأوهامها جانبا والا تتهم أحدا بأمور دنيئة، لكنها بقيت مصرة كمن أصابته جنة، فتركتها ترجع الى غرفتها بانتظار أن تثوب الى رشدها وعدت أخبر حليمة بما جرى وأغتسل. ولم أكن أكملت اغتسالي عندما دوت الطلقة، فخرجت الى الحوش الغارق بفيض خفيف من النور. كانت شعلات التنور تتدافع من فمه والخالة نورية تواجهني بالسؤال عن القتيلة فرحة وعن الطلقات. أجبتها بشيء ما، ثم دفعتها جانبا وركضت نحو غرفة أخي عبد الحمزة حيث وجدتهما معا. كانت قد قُتلت، أو لعلها انتحرت. أخذت المسدس وعدت مع حليمة الى غرفتها. إلا أني أزوغ مرة أخرى عن الحقيقة. هذه عادة عندنا لم تألفوها أنتم، سادتي الحكام وقد لا تطيقونها. اننا لا نستطيع أن نحصر اذهاننا في شيء واحد دائما. نحن، الاعراب الفقراء، نفكر على عدة طرق، وبكلام آخر نحن قوم مشتتو العقول. نبدأ بفكرة أو موقف واحد ثم لا نلبث قبل أن نعطي تكملة له، أن ننتقل الى فكرة اخرى ذات رونق أبهى أو أقرب الى القلب. ثم نقفز الى ما تشتاق إليه النفس مرة ثالثة. نحن أناس همج شرفاء، نريد أن نعيش ونأكل خبزنا بسلام. وان كل ما تلوكه الألسن عنا هو محض افتراء. وانا اضافة لذلك شخص بريء كما سبق أن قلت مرارا. لقد دافعت عن شرفي كما يجب أن يدافع عنه أي رجل شريف متزوج وله عائلة كبيرة يفكر بمستقبلها. ان الشرف لا يتجزأ، سواء كان موضوعه زنى أم فضيحة؛ لأنه واحد، وكلنا في الشرف سواسية. نحن مبتلون بأن نكون شرفاء وان ندافع عن شرفنا بالدم. ولم أفعل شيئا غير هذا، ولا أدري كيف أشرح لسادتي الحكام الموقف المعقد. اني شخص بدوي غير مثقف دافعت بطريقتي الخاصة عن الشرف؛ وان الموقف رغم تعقيده بسيط في النهاية ليس فيه اشكال، وسأضع الحقائق أمامكم للمرة الأخيرة.

كنا عائلة واحدة. أخي عبد الحمزة ومعه زوجته القتيلة فرحة في جهة

من الدار، وقريبهم أمي وأبي ثم أنا وعائلتي، زوجة وأربعة أطفال صغار. وبعد ذلك أختي لامي حليمة في غرفتها قرب البئر. التنور كان وسط الحوش تقريبا. يوم الحادث أوقف أخي. خالف تعاليم الاصلاح الزراعي رغم نصائحي فأوقفه المدير. جاءت الخالة نورية لتبيت مع زوجة أخي. حقائق بسيطة غير ملتبسة. ثم تسلل الى الدار عشيق القتيلة. لا ندري متى. وعند منتصف الليل أو بعده بقليل بدأ شرف العائلة يُلثم ويُلثم. وهدأ الجميع حتى الفجر، وقت اعداد الفطور والخبز. آنذاك انكشفت الامور المخزية دفعة واحدة. القتيلة فرحة كانت تمارس الفحشاء طوال الليل، وهي بعد ذلك لا تتعب ولا تنام، بل تستيقظ قبل شروق الشمس كأنها لم تفعل شيئا، ثم تأتي لتسترق النظر على الآخرين. ان الجريمة لا تنام في نفسها، ولقد أيقظتنا من رقادنا وهي ملتمعة العينين، ثائرة الشعر، لتخبرنا بأن الأولى بها أن تنتحر من أن ترى الفحشاء تدخل الى هذه الدار. كأنها لم تكتف بجريمتها المنكرة تلك وزناها ! عند ذلك أجابتها حليمة بأنها قد شاهدتها جيدا مع عشيقها عاريين يمارسان الزنى طوال الليل، فصُعقتْ. اذهلتها الحقيقة المرة والتبس عليها، ثم خرجت هاربة تضع يدها على فمها. لم يبق لي اذن بعد كل هذا إلا أن أزيل وصمة عارنا بدمها. هكذا يُمسح العار في ديارنا يا سادتي الحكام.. بدماء النساء. تناولتُ بندقيتي الصيدية ولبست ثم خرجت إليها. وكما أخبرتكم كانت واقفة تؤجج نار التنور تحت سماء الفجر. كنا وحيدين. قالت لي بوضوح انها ستنتحر لأنها لا تطيق أن ترى جريمة الزنى باقية بلا عقاب. فلم أجد بدا من اطلاق النار عليها من بندقيتي الصيدية هذه. ثم رمت حليمة بعد ذلك وبحسن نية، حفنة من الخراطيش في التنور الملتهب فتلاحقت الانفجارات وأيقظت أهل الدار.

هذه هي الحقيقة يا سادتي الحكام، وكل ما يقال ضدها هو محض افتراء وتشويه مقصود.

كذب ما تقوله نورية انها لازمت القتيلة فرحة كل ساعات الليل، وانها لم تر أحدا يدخل عليها أو يمارس معها الزنى. اسألوا منها كيف لم ترها اذن

وهي تستيقظ فجرا لتأتي تتلصص على الناس الشرفاء؟ من طلب منها أن تعد الفطور وتخبز الخبز وتشعل التنور؟ واذا أرادت أن تفعل ذلك من تلقاء نفسها وبغياب زوجها ودون باعث دنيء، فما سبب مجيئها الى غرفة حليمة؟؟ ومتى كانت حليمة مساعدة لها في اعداد الفطور؟

كذب ما تدعيه نورية انها رأت القتيلة فرحة تشير بيدها نحونا.. نحوي، وتحاول أن تتكلم فتدهمها حشرجات الموت وتسكتها. هراء كل هذا، لأني أنا الذي جررتها من قرب التنور حيث انتحرت، وذهبت بها الى الغرفة ثم عدت بها الى مكانها الأول. أنا الذي يعلم أين سقطت القتيلة فرحة وأين فارقت الحياة.

كذب أيضا ما احتواه التقرير الطبي عن اصابة القتيلة فرحة بطلقة مسدس في رأسها أودت بها. لقد ضغطت على الزناد، وأنا أعرف تمام المعرفة أي سلاح كان بيدي. كذب وافتراء ما يقال عن تدخل حليمة. ابعدوها أستحلفكم بالله عن هذه الجريمة. انها تجهل كل شيء عنها. أنا هو المجرم ـ اذا أردتم ـ الذي دافع عن شرفه وأسكت تلك الزانية المرائية الى الأبد. وأنا بريء يا سادتي الحكام، أطلب الرأفة بي عند اصدار الحكم. لقد ارتكبت جريمة القتل بدافع شريف ونبيل، فكونوا شرفاء معي أنتم أيضا وخففوا من أحكامكم علي. ان هنالك من سيحزن لفراقي. صدقوني. أما أنا.. فواحسرتاه. هذه هي الحقيقة، كل الحقيقة.

1972

الدّمّلة

جاوزت الساعة منتصف الليل بقليل، حينما خرجا من بار «المشرق» وسارا بمحاذاة الرصيف وهما ينفثان الدخان من أنفيهما. كان هواء الليل نقيا، ولم تكن خطواتهما الثقيلة مضطربة. سمع صاحبه يقحّ بعنف ثم يبصق وهو يكلمه:

ـ «وين سيارتك أبو حسين؟»

أراد أن يجيبه انها ليست معه:

ـ «ما أدري. قريبة يمكن».

لم يشعر برغبة في مرافقته. دار بعينيه مفتشا عن السيارة؛ كانت على مبعدة أمتار. اللعنة؛ وسار إليها يتبعه الظل الأسود. دخلاها وأدار المفتاح ثم اهتزا مع اندفاعاتها المتقطعة. لامس الهواء وجهه باردا ناعما، وتراخى جسمه مع حركات السيارة السريعة. رآه من طرف عينه متكوما جنبه كالقنفذ؛ لا صوت ولا نأمة، سوى الدخان البليد.

كان الشارع الخالي طويلا تغيب أنواره في الأفق، والأشجار على جانبيه تمر سريعة خفيفة. شعر بمثل تيار في نفسه ينساب مع السيارة والأضواء

والأشجار والليل؛ الحياة الماضية والذكريات والأحلام والصور المبهمة. لو كان وحيدا، مع هذه المشاعر الناقصة أ كلم صاحبه:

«وين صاير بيتكم أبو علاء؟»

فاعتدل كمن لسعته أفعى:

ـ «شلون عيوني أبو حسين؟ ما داسمع».

«وين توصل؟»

ـ «كيفك أبو حسين. آني ما عندي شغل. للكرادة».

ـ «شكو عندك بالكرادة؟»

فانفجر ضاحكا ثم بدأ يقح ويشهق:

ـ «ما عندي شي».

ويصق بقوة.

ـ «بعدك ويه العجوز؟»

عادت الضحكة المتشنجة والشهقات ثم البصقة القوية:

ـ «سنشوي يا بو حسين، العيشة تنراد. تمام؟»

كان الشارع مظلما أمام أضواء سيارته المتأرجحة، ولم يكن يعلم من أية جهة يمكن أن يصل الكرادة. لو كانت معه لفهمت انه لا يجد الطريق. تتكىء بذراعها على طرف الباب وتنقر بأناملها على حافة الراديو، وقد تغني أو تستمع الى الغناء وتهز رأسها وهتز قلبه مع حركاتها. كانت ستكلمه بعينيها وتسمعه ألفاظا لم تخرج من الشفاه. شعرها الأسود الطويل وعيناها الصفراوان.

ـ «تعرف أبو حسين، آني ما أشرب كل يوم. بالأسبوع مرة، مرتين. وراها يعجبني أروح اسلم على الجماعة».

ـ «تبقى تسلم الليل كله عليها أ»

فكاد يختنق بضحكه وبالدخان الذي ينفثه. لم يدر لماذا قبّلها ذاك المساء العطر في زاوية مظلمة من الحديقة. كانت شهية متفتحة. شعر، وهي تكلمه بما لا يدري، بنفسه ينحني ويمس فمها بشفتيه. لم يقل لها انه يحبها،

لم يكن يعلم ذلك؛ وكانت مندهشة بعض الشيء. ثم انسلا عائدين الى الدار بسكون. لم تخبر أمها، زوجته، بما جرى؛ وكان يريد، هو الشقي، أن يعطي لهذا الكتمان معنى ما.

رأى منعطفا أمامه فاستدار استدارتين عنيفتين انفتح بعدهما الأفق في شارع عريض مظلم. لم تفارقه آثار وحدته خلال الأيام القليلة الماضية. لا يزال متعبا من لا شيء؛ يحس بنفسه مفترسا. ظن، حين رأى صدفة صاحبه هذا، انه قد يستطيع بسهرة مع العرق والكباب أن يبعد الظل الأسود الذي يقبع فوق كتفيه. وشربا قنينة العرق خلال الساعات الأخيرة وأكلا أكثر مما تأكل الحمير وضحكا طويلا. وكان ستار الغباوة المسدل باستمرار على وجه صاحبه يذكره بعبث محاولته صب هواجسه في هذه النفس المغلقة.

كانت السيارة تنساب دون اهتزاز، والهواء البارد يعانق وجهه ويبعث بشعره؛ وكان الليل هادئا. لم تفزع حينما ميزت وجهه في ظلمة غرفتها الصغيرة، ولم تقل له شيئا معينا يتذكره، وكانت ابتسامتها تخفي سرا مبهما. تسلل الى غرفتها دون تصميم سابق بعد أن ترك ابنه وزوجته ينامان. كانت الدار ساكنة ولم يكن مترددا. أراد أن يتيقن أنه قبّلها، مسّ شفتيها، وانه لم يكن حالما وانها لم تكن شبحا. وأعطته، تلك الليلة، من شفتيها الناعمتين وملمس كتفيها سعادة وفرحا لم يحس مثلهما من قبل. حدثها بكلمات لا معنى لها عن أشياء لا يفهمها وكانت عيناها تتلامعان في الظلام أمام عينيه.

سمع صاحبه يتكلم:

ـ «شد كَول أبو حسين؟ آني تره من اشرب آذاني تصير ثكَيلة. يمكن احنا بعيدين شوية عن الكرادة».

خنقت قلبه تلك الذكريات فردد:

ـ «يمكن. يمكن. يمكن».

لو كان منفردا في ظلام سيارته؛ مع السماء، مع النجوم؛ لأجهش باكيا ولأخرج حسرات قلبه مع كل دمعة ساخنة. ولكنه لا يمكن أن يريد هذا. ليس البكاء عادة مفيدة في مثل سنه.

- «عندك نار أبو حسين؟»

لم يكن قد رآها حين تزوج أمها قبل سنوات قليلة. وبقيت خارج وعيه حتى الأشهر الأخيرة، حين بدأ يشعر بوجودها الطيفي في حياته وبأنها عنصر لا غناء عنه في هذه الحياة. وكان ذلك مع اشراقات جسدها الفتي الأولى ومع الرؤى المحرقة لخطوط أفخاذها وخصرها وانحناءات ردفيها وصدرها. كانت تلك التعريات ابتذالا لا مبرر له من فتاة طائشة. ولم يبد انها تقصد شيئا، ولا كان بوده أن يقصد شيئا هو الآخر.

- «عندك نار بالسيارة أبو حسين»؟ أريد اشعل الجكارة الله يخليك».

- «تفضل».

ولكنه لم يفهم ماذا يحدث له؛ ويوم صارح نفسه انه يشتهيها وانه لا يمتنع عن أي عمل خسيس كي ينالها، شعر انه يغوص الى أعماق مظلمة لا قرار لها. وكان حزينا، حزينا. انها ليست هذه الفتاة الغريرة المقادة بعماء نحو الجنس، وهي ليست اشتهاءه وأحلامه؛ ولكنها الحياة والموت، النور والظلام. وكان مرتبطا بها، يحس بمهانة وهو يرى حياته مهددة لسبب رخيص.

كان جو السيارة مضبّبا مليئا بالدخان رغم انهواء البارد المندفع من الشباك الصغير. وكانت الحسرة، الصخرة المحرقة، المدية الحادة، تخدش صدره. انها تموج وتتلاطم مثل مياه البحر، وترتفع، من أعماق نفسه؛ ويشعر بالعبرة في أعلى صدره، في رقبته؛ فيصر بأسنانه ويضغط برجله على عتلة البنزين. لم يكن يفتش عن الدموع؟ انها لا تغسل آلامه، وهو ليس معدا للبكاء.

- «الفرق ما يسوه. دقيقة لو دقيقتين. لويش هالسرعة ابو حسين؟ آني ما مستعجل».

سحب قدمه عن عتلة البنزين فأبطأت السيارة قليلا:

«آني هم ما مستعجل ابو علاء».

كان صوته أجش غير ثابت:

ـ «لويش استعجل؟ هو چم مرة يموت الواحد؟»
ـ «شلون؟ ما داسمع ابو حسين. آني آذاني تصير ثكيلة وراء أول كلاص».
«على الموت؛ على الموت دا احچي».
ـ «شبيك عيوني ابو حسين؟ عندك سوء تفاهم ويه الأهل؟»
ـ «لا»
ـ «لعد لويش مقهور عيوني ابو حسين؟»

متى كان للموت سبب يفهمه العقل وتقبله النفس؟ ولكننا نقترب كل لحظة من هذه التجربة المجهولة. وحين علم بعلاقتها بأحد الرجال هبط قلبه بشكل مفاجىء وأحس أنه فقد الكثير من حياته خلال دقائق. لم يبق للموت غير أن تتكرر هذه الدقائق. ولم تبخل ـ في الحق ـ عليه بها. وظهرت، بعد أسابيع من عملها في احدى الشركات، الشفاء الملطخة بالأحمر القاني والعيون ـ وا أسفاه ـ الصفراء المثقلة بالكحل؛ وكانت تبدو منتصرة عليه. ولم تسكن ناره ولم يبق له غير أن يختار أسوأ أيامه.
ـ «اخويه ابو حسين، اذا حبيت نزلني من السيارة. آني آخذ تاكسي وارجع لبيتنا».
واخبرته بضحكاتها العالية وانعطافات سيرها، وبتعريات ساقيها وابطيها، انها تعبث بالحياة التي لا تفهمها، وبالقلب الضعيف المرتعش وبمهانته. بمهانته، بمهانته.
كان يضرب بيده على اطار الشباك الصغير ضربات خفيفة رتيبة وهو يتطلع بذهول الى محط النور المتذبذب على أرض الشارع. وكان صاحبه ساكنا، يحدق أمامه هو أيضا محاولا تمييز الطريق.
ـ «فد جكارة من فضلك ابو علاء».
ـ «حاضر عيوني ابو حسين».
وأسرع بإخراج واحدة قدمها له:

ـ «ما عندي نار ابو حسين. انت عندك قداحة بالسيارة».

«نعم. نعم».

ـ «يمكن لو تلفت على اليمنة نطلع على شارع الكرادة».

نفث الدخان فرجع على وجهه مع هواء الليل:

ـ «لو، اذا حبيت، بس توكف شوية، خاطر اخوك ينزل وياخذ تاكسي».

ـ «لويش ابو علاء، قابل ما اعرف دربي؟ شوية بس لا تستعجل».

«لا عيوني أبو حسين. شكو عندي استعجل؟»

لماذا لا يدعه وشأنه؟ ولم يجب ان يدينه معه، ولم يفعل شيئا؟ مثله، هو المدان الى الأبد، لأنه لم يفعل شيئا؛ لأنه أراد أن يحقق الأشياء على طريقته الرديئة.

ـ «لا تلومني ابو علاء. آني أريد أوصلك للبيت، لكن الطريق شوية طويل».

ـ نعم. نعم أدري».

ـ «آني أحب أبقى وياك. تعرف ابو علاء، صار لي ثلاث أيام... صار لي ايام، ما أدري وين چنت... ما أدري».

ـ «نعم، نعم أعرف. على اليسرة ابو حسين، على اليسرة ونطلع على شارع ابو نواس. على اليسرة».

لم تضطره ان يختار نهاية لشقائه واضطرابه. كانت تعلم أمرا ما يبدو لها يقينا لا يتزعزع؛ وكان ظاهرا انه لا يدخل ضمن اطار حياتها. وعبثا، عبثا كان يطرد تفسيراته لتلك المخابرات التلفونية المتكاثرة ولغياباتها المستطيلة ولشرود الذهن والارهاق. كانت تعلم أمرا مجهولا، لعله الحكم عليه بأنه شخص افل نجمه. إلا أنه لا يستطيع أن يرضى بذلك. ومن خلال هروبها المستمر منه واحتجاجها بأتفه الأسباب كي تثور عليه وعلى أمها، انبثقت في ذهنه فكرة زيارتها الليلية. بدت أول الأمر فكرة جنونية حمقاء لا جدوى منها، ثم نمت وتفرعت في ذهنه وقلبه كالسرطان الخبيث. وانتهت، مع الأيام، بأن

تملكته. التهمته مثل وحش جائع. لم يبق له مهرب. كانت الحد الفاصل والحمى المتمشية في أطراف جسمه. لم يشعر أنه قد ينتهي بعدها، ولكنه أحس عن يقين أنه سيموت لو لم ينفذها.

ـ «ابو حسين. عيوني ابو حسين، شوية على كيفك. الشارع ضيق والشط عالي. لويش مستعجل الله يخليك؟

انتبه الى السيارة تهتز بعنف على أرض الشارع العكرة، ورأى مياه دجلة الطافحة تنعكس عليها أضواء الشاطىء البعيد. سحب قدمه عن عتلة البنزين وغيّر من جلسته قليلا. كان رأسه يطن وعيناه مجهدتين، لكنه لم يستشعر تعبا ولا رغبة في النوم. ود لو استطاع أن يغني أغنية حزينة على شاطىء مهجور؛ أغنية تذهب بها الرياح ولا يُسمع لها صدى. سمع صاحبه يغمغم بأشياء لم يفهمها ولم يرد أن يفهمها، وكانا يسيران بمحاذاة الرصيف والنهر. هل يجب أن نفهم الحياة جيدا وبعمق، أم ان نغنيها كما نغني أية أغنية حزينة لا معنى لها؟ ولعلنا، مع الألحان، نستطيع أن نعمل كل شيء.

تلك الليلة الربيعية، قبل أيام، حينما انسل من غرفتهم الى الحديقة...

ـ «جكارة ابو حسين؟ آني تقريبا وصلت للبيت».

.... ولبث يتمشى ويستنشق الهواء الرطب كي ينعش قلبه المرتجف. كان ينتظر اشارة مبهمة لا يعرفها كي يمضي في سبيله. خيل إليه ان النجوم، في السماء السوداء، أشد لمعانا من قبل، والأشجار الساكنة تخفي أشباحا خلفها؛ ولم يدر ماذا يعمل بنفسه المتوحدة. وتتابعت الصور في ذهنه بغير معنى، بغير معنى؛ وضاقت نفسه مع خطواته المتثاقلة وتملكته الخشية من العبرة التي بدأ يحسها تفيض في صدره. انها النوبة التي لا ترحم. ستلفّه هذه الموجة من العبرات بين طياتها وستحيله، مع الدموع الجارية، الى صرصار مسحوق. أفزعته هذه الاشارة المفاجئة فأسرع نحو غرفتها. لم تستيقظ عندما وصل سريرها سائرا في الظلام، ولم تجبه حينما همس باسمها مرتين. وانتظر مع الخوف والخجل والمهانة، ثم لمس كتفها الناعمة العارية. وود، لحظة، لو

كانت ميتة؛ لو كانت عاجزة عن اجابته، عن تكملة مأساته. وفزعت حينما تبينته وتراجعت وهي تخفي صدرها. كان يراها في الظلمة الخفيفة؛ تقاطيعها المبهمة الجميلة وذراعيها المضيئين. ونسي ما أراد أن يقوله لها، وأدرك أنه انتهى مع حركتها هذه. لم يبق له إلا أن يبدأ حيث انتهى، أن يبدأ نهايته. وكان يكفي أن تلبث في وضعها ذاك، منكمشة بعيدة، كي ينصرف بهدوء ويقتل نفسه تحت أشجار الحديقة الساكنة. اما ان تصرخ لغير سبب، وان تقفز كالشيطان هارعة الى أمها، فذلك لأنها رخيصة مليئة بالرذائل.

ـ «عيوني ابو حسين، الله يخليك. على كيفك».

ولأنه لم يستطع أن ينتزعها من نفسه خلال أيامه الأخيرة في وحدته المفزعة، ولأنه لم يتغلب على عبراته، هذا البحر المتلاطم، ولأنه لم يقتلع من اعماق قلبه تلك الدملة القذرة السامة، ولأنه يبكي الآن...

ـ «اخوية ابو حسين، دير بالك. الشط. دير بالك الله يخليك».

كان مرتميا على عجلة القيادة وهو يحاول الانحراف بالسيارة نحو النهر. لم تترك له دموعه مجالا للرؤية. وكان يحس، خلال تشنجات صدره العنيفة، انه يفارق نفسه، يتجرد من الانسان الذي كانه. لا مجال للعودة المهينة. ثم شعر بصدمة تهزه وبلطمة قاسية على صدغه. لم يفقد وعيه، وكان يسمع صاحبه يطلق صرخات عجيبة ويمسك قويا بذراعه. كانت السيارة تتقافز فوق الرصيف بحركات مجنونة وخط المياه اللامع يرتفع من جهة لأخرى. لن يمكنهم أن يقولوا عنه شيئا؛ لأنهم وعالمهم ومواضيعهم، أشياء لا تتكرر. وكان رأسه يدور حينما صفعت السيارة ماء النهر فانشق ببطء وابتلعها. لم يخفه الصمت المميت الذي ران عليها ولا الظلمة الخانقة. أحس بتخاذل في جسمه وهو يستشعر برودة المياه المتدفقة. لن يجدوا أثرا لها بسهولة. وكان وحيدا.

باريس ـ 1966

العيون الخضر

صفر القطار مرة ثالثة فأسرع البائع الصغير الى باب العربة وهو لا يزال يعلن عن بضاعته «علج . علج انكليز. حب. جكليت. علج علج بعشر فلوس. حب»

صاح به عريف في الجيش ضخم الجسم:

ـ انزل ولك. ما تخاف لياخذك القطار؟

ـ متعلم عمي. علج انگليز. حب. علج بعشر فلوس خاله.

كان يكلم شابة مكشوفة الوجه تجلس مع عجوز قرب باب العربة، وكان يأمل في بيع شيء لها. أملته نظراتها الطويلة إليه. كلمت الشابة العجوز:

ـ اشتريلي علج. باكيتين

ـ جيب ولك مگرود باكيتين علج انگليز. بيش دتبيعه؟

ـ بعشر فلوس بيبي. والله خوش علج، مال انگليز

ـ ندري ولك. انطيني باكيتين

ـ تفضلي بيبي

بدأت العربة تتحرك بعد قلقلة بسيطة، فقفز البائع منها واختفى في الظلام. سار القطار نافثا بخاره الأبيض نحو السماء الصافية فسألت الشابة وهي تتناول العلك:

ـ هاي محطة باب الشيخ؟؟

ـ أي. انطيني شويه علج.

فناولت رفيقتها العجوز علبة.

كانتا في احدى عربات الدرجة الثالثة، جالستين على مقعد قرب الباب وقد وضعتا فراشا ملفوفا وحقيبة على مقعد آخر وراءهما. مر أعرابي ذو لحية شعثاء قذرة فاستوقفه متاعهما:

ـ خالة ما تگدرون تسوولي مجان؟

أجابته العجوز بشراسة:

ـ ولي منا. احنا كامشيها كلها

ـ لا تزعلين خالة

ـ آني مو خالتك. الله ياخذ روحك

ـ ياه، كفرنا يا ربع؟؟

ومضى يدفع الباب الى العربة الأخرى. شعرت الشابة بارتياح لذهابه وأخذت تنظر الى الجالسين معها. كانوا خليطا مدهشا، لا صلة بين أحدهم والآخر غير تلك المسحة القوية التي يخلفها الارهاق الشديد وضغط الحياة المؤلم. جنود شكسون ذوو بشرة محترقة، اعراب ملتفون فوق أماكنهم بعباءاتهم الصوفية، أكراد في لباس متنافر جدا.

لم تستجب نفسها لتلك الصور المصفوفة أمامها. حدث لها يوما ان كرهت البشر أجمعين، كرهت رؤيتهم. رمت ببصرها خلال زجاج الشباك الى الخارج. كان القمر بدرا يتوسط صفحة السماء، ويسبغ على الأرض لونا هادئا محببا. وكانت المناظر تركض أمام نظرها غير واضحة المعالم، وأنوار بغداد البعيدة تلمع كالجواهر الحمراء «بغداد، بغداد، كم أحبها؟».

كانت عيناها خضراوين واسعتين بأهداب سوداء طويلة. أغرقهما حزن

موجع فتبللت أطرافها بدموع لامعة. «اذا حبيت من دنياتي شيء، لازم احب بغداد» وكان وجهها شاحبا، يزيد من شحوبه سواد عباءتها الرقيقة؛ ووجنتاها غائرتين تكون عظامها البارزة ظلين صغيرين على خدودها الصقيلة. «اذا حبيت من دنياتي، دنياتي، دنياتي» وكانت ذاهلة وهي تردد هذه الكلمة مع ضربات القطار المتكررة الرتيبة. «دنياتي ألها بيها معنى، معنى. لاكت منويدري، يمكن كل الناس مثلي، مثلي. كَحاب كَحاب، كَحاب» وكأنها استحت فأدارت رأسها الى الداخل. رأت العريف يفتح مجلة «الاثنين» وينظر إليها هي من فوق المجلة. كان ضخما كثيف الشارب أسود البشرة. تطلعت إليها. «لويديري آني شنو، حتى هذا يمكن چان يباوعني غير شكل» اخفض بصره نحو المجلة فتركته الى شاب يضع كوفية بيضاء وعقالا أسود على رأسه. «وحشي. أشكَد أذوني هالشكول. زمايل. وحوش» رفضت مرة، كانت لا تزال صغيرة آنذاك، ان تسمح لأحدهم بالاتصال بها. لم تدر لماذا؛ لعلها كانت تحسب نفسها آدمية. كان عملاقا سكران منتفخ الأوداج. رفسها في بطنها حتى أوشك أن يخرقها. ثم جرها من شعرها الأشقر القصير وخرج بها وهي تصرخ الى صالة الدار فرماها أمام القوادة. هاچ، هاچ بنتيچ، بلقابوس لو ما لخطرچ فلا اخليها تأخذ نفس. بربوك، مدا أدفع فلوس؟؟» ثم تلقت بعد ذلك عقابها من القوادة. منعت عنها الأكل والشراب ثلاثة أيام. كادت تموت جوعا. وحجزتها في غرفة جرداء، لا سرير فيها ولا أي غطاء، في شتاء بارد، قارس البرد.

كانت صغيرة آنذاك، غريرة. عرفت بعد ذلك ما هي من الحياة وكيف يجب أن تعيش. خضوع مطلق، تجرد كامل من كل عاطفة. حتى المقت والتقزز. «كل شيء إلا هذا. مگدرت الا اكرهم، اموت منهم» البشر جميعا؛ رجالا ونساء، رجالا ونساء.

سمعت العجوز تكلمها:

- سليمة رح انام آني عيني بمكان متاعنا. تعبانة يمه هواية.

- زين.

نقامت العجوز ووضعت الفراش والحقيبة فوق رف قال ثم التفت بعبائتها. وسكنت.

كان جو العربة مملوءا بدخان السكاير الرخيصة، وكان بعض الركاب قد تسلقوا رفوف الأمتعة وانحشروا عليها محاولين النوم. بكى طفل عن يسارها فالتفتت. رأت كردية شابة ممصوصة الوجه خائفة النظرات وهي تضع في فم طفلها ثديا ككيس اللبن اليابس. «مثل هاذي هم ما گدرت اصير» كانت عجمية الأصل، جلبها أبوها من كرمنشاه الى خانقين. ساروا الطريق كلها مشيا على الأقدام. سيرا مستمرا حثيثا غير منقطع. كان يهجل أمامهم، هي وأمها وأخيها، ولم يكن يبدو عليه أنه سيقف في اي مكان. تركها في خانقين خادمة عند بعضهم. ظنت انها سترتاح هناك. لكنه رجع إليها بعد أشهر، وأخذها من مأواها سائرا بها مرة أخرى. كانا وحيدين هذه المرة. ماتت أمها وانهزم أخوها، لكنه كالسابق لم تظهر عليه رغبة في التوقف. ووصلا بغداد ثم انطلقا منها الى كربلاء. سارا هذه المسافة كلها، ولم تمرض إلا في كربلاء. كان مرض موت أو شبيها به، فتركها في الجامع في غرفة صاحب له. ومضى الى حيث لم تره قط. «لوميته ذال الوكت، لويش بقيتي يا ربي؟؟» وشفيت. كانت في الرابعة عشرة أو حوالي ذلك، نحيلة عجفاء قصيرة. ولم تمض أشهر حتى تزوجها هذا الصاحب الذي يملك غرفة في الجامع. ذهب بها الى شيخ معمم أخافها ثم عاد الى غرفته فاغتصبها ليلا وهي مغمى عليها. لا تزال تتذكر صورته كالكابوس المميت، أعور أصلع طويل القامة مفتول العضل. وبعد ذلك.. بعد ذلك تزوجها كثيرون. كانت تباع وتشترى، وكانت تراقب الأمر كأنها لا تعلم لها دخلا في الموضوع. «مصوني. اكلوا لحم افادي».

فتح العريف شباكا قريبا منه فاندفعت نسمة أرجفتها فظهر الاستياء على وجهها. «حيوان» خاطبته:

ـ من فضلك سده. الهوا كلش بارد

فأسرع يغلقه دون كلمة وعاد الى مجلته. «لويش فكه لعد؟» وانكفأت

الى الشباك مرة أخرى. كانت الأرض فضية اللون، والسماء ناعمة جميلة تنتشر عليها النجوم قرب الأفق. أضواء بغداد الصفراء، كانت تكوّن عالما بعيدا سعيدا. «شكد حبيتها لبغداد. حتى عذابها حلو».

ـ من فضلج التكت

فزعت. كان الواقف فوق رأسها يحدجها بتمعن، مفتش البطاقات:

ـ البطاقة بلا زحمة

اخرجت له بطاقتين من حقيبة يدها فثقبها بمقص وانصرف عنها. «كركوك. كركوك بعد بغداد. قسمتي. لومه هالشرطة الله لا يرضى عليهم چان آني هسه ابغداد. منعوا الأكو والماكو، ولومه الله يصخيها لباجيتي حسيبة وادزلي مكتوب من كركوك اتگولي تعاي، چان وين درت رأسي؟» سمعت المفتش يكلم العريف:

ـ شنو هاي عريف؟؟

ـ هاي بطاقة مال رجعة

فقلب المفتش قطعة من الورق صغيرة جدا حائلة ليس عليها أثر يدل من بعيد انها كانت بطاقة للذهاب والاياب.

ـ هاي بطاقتيش عريف؟؟

ـ والله بالبيت غسلوها ويه لهدوم بلاحسي

تركه المفتش قائلا الى الشرطي وراءه:

ـ شوف شغلك عطيه

وابتعد. اقترب عطيه من العريف:

ـ عريف، لازم تقطع بطاقة.

فبدت الحيرة على وجه العريف.

ـ والله يابه آني اكص. لاكن المسئلة..

ومد يده الى جيب في صدره:

ـ المسئلة آني ما عندي غير ميه.. ميتين فلس

ـ عريف، اهو دكمش شواربك

ـ شنوياب؟؟

ـ اكمش شواربك

فرفع العريف يده بتردد وأمسك بطرف شاربه، فاستمر الشرطي :

ـ أدگص من جلولاء. من يوگف القطار انت تنزل ادگص، وآني ممنون.

ـ ممنون

وفتح المجلة بعد ان نظر الى سليمة. «بومة الخرايب. مال نتف شوارب. كل الرياجيل مال نتف شوارب» سمعت شخيرا فظنته أول وهلة يصدر عن رفيقتها العجوز، لكنها انتبهت الى كردي احمر الوجه مدوره ينام منكمشا على مقعد بجانبها الى الخلف. أحسّت بانزعاج لحين رأته. كان فمه مفتوحا بعض الشيء وشفته السفلى مندلقة الى الأسفل. «اوف» لكم سهرت الليل بجانب مخلوقات مثل هذا «ايه، منويصدك.. منويصدك» قوى انزعاجها وتركز في قلبها بشكل مؤلم. كان ذلك الكردي النائم، لباسه الأزرق المخطط بالارجواني الغامق وخصلات شعره السوداء المطلة من عمامته وانفه المقوس ذو الشعيرات وشاربه الكث المتدلي على جانبي فمه المفتوح وجسمه الممتلىء كجسم الجاموس؛ رمزا قاسيا عنيف القسوة لكل قبح يمكن ان يرى في رجل. «زمال. لويش نايم؟» فاضت دموعها وهي تنظر اليه. كانت محتدة متوترة الأعصاب هائجة النفس محطمة القلب. ولو لم تدر رأسها عنه لتعض على منديلها الصغير بقوة خانقة عبرة حارة وجهشة مريعة، لقامت تلطمه بكلتا يديها وهي تبكي وتبكي وتبكي حتى تموت بكاء. «ما أريد هالدنيا. ما أريد هالدنيا ربي. ما أريد هالدنيا» وقرضت منديلها الحريري بين اسنانها.

كانت ترابيس القطار توالي حركاتها المتتابعة، والعربة تهتز هزات متصلة. لم يرها احد وهي تخفض يدها بالمنديل لتخيفه تحت عباءتها. لم يلتفت إليها، حتى العريف الطاووس، وهي تمسح أطراف عينيها بأنامل مدورة بديعة. كانت في عالم قصي؛ عالم لا تجد فيه غير نفسها، خيالها الضعيف المتهاوي. كانت مستسلمة بكل جارحة فيها، ساكنة سكون من لا

يستطيع الصراخ. وكانت ذاهلة مثل كل ليلة، حين يشبع منها الرجال ويتركونها بمفردها. ذهول مخيف. غياب عن الدنيا بأسرها. لم تكن تفكر في شيء. كانت كالصخرة تلقى في ماء عميق فتستقر دون صوت على القعر. وحيدة في كون موحش، منعزلة في قوقعة ضيقة.

وقف القطار. شعرت بوقوفه شعورا ضئيلا، فقام بعضهم وفتح الباب قربها ثم ظهر شرطي وذهب مختفيا داخل العربة. لم ترفع وجهها عن الشباك. زجاجه الرقراق والبطاح الواسعة المضاءة بالقمر. أرض بيضاء كالرماد على الجمرات الخابية؛ والأفق أسود دامس السواد لا يصل اليه نور. سواد حبيب. تخيلت لو كان يغمرها، لو تدفن فيه حية. وتراءت لعينها صورة وجهها منعكسة على الزجاج. صورة صفراء شاحبة لمعالم ناحلة متعبة. أدهشها تعبير اليأس في عينيها المخضلتين. يأس من الحياة ومن الموت. جزعت وأرادت أن تجد ايضا ما يعزيها ويبعث فيها الأمل، فصدمها الانطباع المرير المنبعث عن شفتيها اليابستين المنطبقتين. مرارة ويأس، مرارة ويأس. «كل ما يسوون، لازم أموت بالتالي. أموت وأرتاح. اخلص من كل شيء. من كل شيء» بدأت أفكارها وكلماتها تتكرر مع خبطات القطار المندفع بسرعة. سار ولم تحس به. «موحفي اترك كل شي؟ لو باقية شهر بلا شغل، چان متت من الجوع. حقي اجوز من كل شي. حقي اجوز وأياس» سمعت العريف يتكلم:

ـ شوف اخويه

فالتفتت.

ـ شوف اخويه

كان بيز الكردي النائم:

ـ انت وين تروح؟

ففتح الكردي عينين حمراوين ـ

ـ ها؟ شاكو؟

ـ وين توصل؟

ـ لويش بابا؟
ـ اذا تريد تروح لبعكوبة تره راح نوصلها بعد شويه
ـ لا بابا. آني رايح طوز
فتراجع العريف الى مكانه ـ
ـ نام خويه لعد
فعاد الكردي بهدوء الى نومه. «بعكوبة»، هاي ولايته.. هاي ولايته» بدا الاسم كاللحن الحزين العزيز. كانت في حياتها نغمة أليفة يثيرها هذا الاسم. لم تستطع صبرا والتفتت الى العريف:
ـ من فضلك سيد، شوكت نوصلها؟
فأخفض المجلة مندهشا.
ـ شنهي؟
ـ بعكوبة
ـ بعد ثلث ساعة لا والله.
نظر الى ساعته.
ـ بعد عشر دقائق، خمسة. ما أدري والله بالضبط، لاكت من نوصل اكلج. انا شايفها من كَبل.
ـ أي بالله بلا زحمة.
ـ ممنون
«بعكوبة» كان ذلك منذ سنة. «لا والله اكثر. مو الصيف الفات، قبله». كانت تشتغل في بيت بالباب الشرقي، وحيدة ليس معها غير هذه العجوز وقواد او اثنين. وكان لها جماعات خاصة تزورها في أوقات غير معينة. لم يكن هو بين هؤلاء المترددين، جاء صدفة. «جانو خمسة وياه» في احدى ليالي الصيف بعد منتصف الليل. كانت الدار ساكنة مختنقة الهواء والمروحة تدور بسرعة. «تعبانة چنت، تعبانة كلش چنت» وكانت مع زبون كان يبدو انه آخر من سيطرق الباب. «هو شافني أول ما طلعت من الگبة» كان شابا في الثالثة والعشرين، طويلا رشيقا ذا هندام لطيف. واجهها بابتسامة حلوة

هادئة حين اول خروجها. «هالو» فابتسمت له ومضت الى الحمام. كان ككل اصحابه، طالب لذة عابرة. «لا والله مو مثلهم، مو مثلهم» رجعت بعد دقائق فجلست على كرسي أمامهم. كانوا على كنبة مقابلة لها وقد بدا عليهم انهم أعجبوا بها. لمعت نظراتهم شهوة وصاروا ينفثون الدخان من أفواههم بحدة، إلا أن أحدا منهم لم يقترب منها أول الأمر. «تعبانة كلش چنت» قام هو فجأة فقعد قربها.

ـ تعبانة؟؟ احچي الصدك

فالتفتت إليه لامعة العينين.

ـ لويش؟

بهرته عيناها الخضراوان وظهر ذلك على وجهه.

ـ سبحان الله، هاي شنو هالعيون هاي

فأغمضتها مرات متظاهرة بالخوف.

ـ شبيها؟ حولة؟

فداعبها.

ـ لا، رجاء لا تحجين عليها غلط. تره بديت احبها

وبقي يحدق فيها. شعرت بميل لمحادثته. كان يتكلم دون تكلف وبصوت لين دافيء.

ـ منين انتي؟ سليمة اسمج مو؟

هزت رأسها فانتبه الى خصلات شعرها الأصفر القصيرة ووضع يده على خده. كانت في وجهه مسحة من الرقة. عيناه تشعان لطفا صادقا كعيني الطفل. «عيونه! شلون عيون» لم تر عطفا شديدا مؤثرا ينبعث غير ان احد أصدقائه قطع عليه الحلم اللذيذ.

ـ مو وكت غزل انعل مذهبك. اتفضلي عيني سليمة وياياه.

قامت دون ان تنظر إليه. «شچان ديريد مني؟» لم يدخل معها تلك الليلة ولا في الليالي التي تلتها. كان يأتي مع أصدقائه بين أسبوع وآخر فيقضي بضع دقائق في الحديث معها. كلمات لم تألفها من احد. لم تكن غزلا أو ما

أشبه. كان يحب عينيها فيقول لها ذلك ببساطة لا تدع لها مجالا لتتصور أنه يتغزل بها. وكان يعطف عليها ويريد لها بإخلاص حياة سعيدة. «چان ينقهر من يشوفني مخبوصة، عيني عليه» حدث مرة أن أقبل بمفرده في عصر احد الايام. كان مجيئه غير مناسب ولا يمكن أن يستساغ. لم يخطر له ذلك وجلس يحدثها.

ـ سليمة، حياتج أهم شيء. حاولي أن تبتعدي عن هذا الجو. هذي البيئة النكسة.

ظنت انه يريدها ان تنهزم معه وانه يحبها، فخيب هذا الظن فيها ـ

ـ لو احبج چان اتزوجتج دون تردد

فلم يعجبها ذلك منه، وسألته ـ

ـ يعني بس تريد تحچي ويايه؟

ـ واتمعن بخضار عيونج

لم يكن ذلك أمرا مفهوما، لكنها بدأت تميل اليه هي أيضا. «حچاياته الحلوة» فيها سحر غامض، وما هو غير ود حقيقي. ومع ذلك طلبت منه برفق الا يأتي دون أن يفعل شيئا، ففهم ما ترمي إليه وانقطع فترة. لم تتصور أثره عليها. كانت، حين تكاد ان تسقط أرضا فتسعى الى الفراش كالجثة السائرة لترمي بنفسها عليه، تتمنى لو كان معها يحدثها كيف تعنى بحياتها. وكانت، عندما تنهض من النوم وتجلس لتفطر، تتذكر تلك الروح التي تحنو عليها.

لكنها لم تفهم لماذا لا يتصل بها. هل كانت تعوزه النقود؟ كان موظفا في بعقوبة وراتبه غير قليل «لعد معقولة چان ديريد يضحك علي ويقشمرني؟» كما قالت رفيقتها العجوز وأيدها الصانعان؟ «لاكت لويش يقشمرني؟ شيريد مني؟؟» وعاد اليها مع اصدقائه بعد أسبوعين أو أكثر. في ساعة متأخرة من الليل. «كلشي ما أريد منج» لم يكلمها تلك الليلة سوى كلمات قليلة رقيقة. ارادت ان تعرف عنه شيئا، فسألت أصدقاءه الذين دخلوا معها. موظف في محكمة بعقوبة، ليس له غير أم عجوز. «ممتزوج؟» «لاع، وداعتج» «ما خاطب؟» «لاع» «لعد لويش ميدخل ويايه؟» «والله آني ما أدري يا عيوني،

ليش ما تخشين أنت وياه؟» فجأملت صديقه وضحكت مكرهة.

صفر القطار صفيرا متقطعا، فقال العريف:

ـ وصلنا بعگوبة. هذا جسر ديالي

كانوا يمرون على جسر؛ فارتفعت ضوضاء ملأت جو العربة. «قد يوم، قد يوم بعيد، من تشوفين نفسج وحيدة، محد يسأل عنج ولا يباوع بوجهج، تعالي لبعگوبة سئلي عني» كلام جميل.

تثاقل القطار في حركاته ثم دخل المحطة المضيئة فتجاوبت في أذنها نداءات البائعين:

ـ بيض. أبيض وبيض. لفة أبيض وبيض

ـ علاوات تمر. ضوك واشتري، ضوك واشتري

ـ فرتقال. فرتقال. فرتقال. فرتقال

كلا. ليس لها ادنى حق في التفكير به. طردته شر طردة. أتاها ليلة مع أصدقائه، كانت متألمة النفس ممزقة الفؤاد. لم ينقطع عنها سيل الرجال. رجال، رجال، رجال. منذ العصر حتى الواحدة بعد منتصف الليل. كانت رؤية الرجال وحدها كافية آنذاك لتحدث لها أوجاعا هائلة في عواطفها. ابتسم لها فلم تجبه وسألت بخشونة عمن يدخل معها. تناولها أحد أصدقائه وذهب بها، ثم دخل معها الآخر وتبعه الثالث. كان ينظر إليها تروح وتجيء بشفقة ورقة مؤثرتين. لكنها كانت حانقة على الدنيا كلها. كانت تصر بأسنانها كلما رأته ينظر إليها. كانت تريد أن تحطم الكون، وكانت تريد أن تقضي على نفسها قبل هذا الكون.

وعندما أراد الخروج بسكون مع أصدقائه صرخت فيه.

ـ تعال. مترید فلوس على گوادتك؟ خوش جماعات دجيب لي. يعني تستاهل.. يعني تستاهل..

وخنقتها الدموع فأجهشت بالبكاء لكنها بقيت تصرخ بأعلى صوت:

ـ اطلع برة. لتجي بعد. شكو عندك هنا؟؟ ها؟ شكو عندك؟ شعليك مني؟ شعليك مني؟ آني گحبة، گحبة، انت شنو؟؟

وقف مصفر الوجه ذاهلا مبهوتا. كانت تراه خلال دموعها الفائضة وهو يترك الدار محاولا اسكات أصدقائه السكارى المتذمرين. ولم تقع عينها عليه بعد ذلك.

كانت صورتها في الزجاج شاحبة تعبر عن يأس من الحياة ومن الموت. وحين تحرك القطار بعد ربع ساعة من الوقوف وهب الهواء البارد على وجهها فلعب بعبائتها الرقيقة السوداء، خطر لها انها تترك بعقوبة خلفها. نظرت الى الخارج. كانت الأرض مترامية موحشة رمادية، والسماء رحيبة ذات لون شفاف. «دنياتي الما بيها معنى» وكان القطار يشق طريقه مندسا في طيات الظلام الناعمة، مندفعا نحو أفق بعيد مجهول.

1950

همس مبهم

منتصف الليل. كنت جالسا في غرفتي قرب الشباك أتطلع الى الأفق البعيد. في مثل هذا الوقت، وفي تلك الحديقة الواسعة التي لا تُرى أسوارها، كان صديقي التلميذ المجهول يجلس الى كتابه كل ليلة من ليالي الصيف محاولا أن يفهم الكلمات التي تمر أمام عينيه. تخيلته تحت ضوء المصباح الساطع مضطجعا بسكون على كرسي طويل، تلعب النسمات الباردة بشعره بين آن وآخر فيرفع بصره الى السماء شاردا ذاهلا عن نفسه، تختلج في أعماقه مشاعر ملتهبة فيترك قراءته ويأخذ القلم ليسطر على حواشي الكتاب الضيقة ما يعتمل في قلبه ويفيض منه.

من يكون، والى أين انتهى؟ كنت أعرف عنه كل شيء إلا هذين الأمرين. عرفت عواطفه وأفكاره وأمانيه، وعرفت الأناس الذين عاشوا معه وخالطوه وآذوه؛ فصرت له صديقا ودودا محبا، لكنه صديق لم ير وجهه ولم يحلم به يوما من الأيام. تنهدت بحزن ونظرت الى الكتاب على ركبتي. ترى هل خطر له أن كتابه هذا سيصلني بمثل الطريقة الساذجة التي وصلني بها؟ هل تصور لحظة اليد القذرة التي سلمتنيه بكل قسوة واهمال؟ كنت أسير يوما في (سوق السراي) أبحث عن كتاب الفيزياء للصف الثالث المتوسط، ولم أكن

أحمل إلا القليل من النقود، فتوجهت لذلك الى دكان لبيع الكتب القديمة وسألته عن بغيتي فأخرج لي هذا الكتاب. قال عنه ان فيه ملخصات تنفعني. ما كان أسخف قوله أيها الصديق المجهول!

كان يريد أن يرفع ثمن الكتاب لوجود تلك الملخصات الموهومة؛ ولم يكن يعلم انه يبيعني حياة انسان ضائعة بين هذه الوريقات. واية حياة كانت ابتعت الكتاب، وحينما رجعت الى البيت وقلّبت صفحاته في ساعة من ساعات فراغي فقرأت ما كتبته أيها الصديق المجهول على الحواشي الممزقة، تملكتني رجفة شديدة كانت هي المصافحة الأولى ليدك الرقيقة النحيلة.

شغلتني تلك السطور المضطربة المخطوطة على حواشي الكتاب وفي أسافل الصفحات الخالية، أياما عشرة طويلة. كنت شبه محموم وأنا أحاول أن أنتزع الكلمات والجمل من أماكنها. كانت مختلطة مع بعضها اختلاطا غريبا، مغطاة أحيانا بسواد كثيف لا تنفذ العين الى ما تحته. ولقد انتشيت مرات، ولكنني رجعت أغلب الأوقات خائبا يائسا محزونا. كان يفتح قلبه لي في بعض ساعاته ببساطة الأطفال وطهرهم، فتتتابع كلماته واضحة جلية تمس أوتارا دفينة في نفسي فتكاد تبكيني؛ وكان يختفي بإصرار ساعات أخرى وراء نقاب أسود بهيم، فأعلم آنذاك انه لا يريد أن أقرأ حروفه التي يخط، وان في فؤاده هلعا وخوفا مما يكتب؛ فكنت أفهم وارثي له وألبث ساكنا. حتى اذا انقضت الأيام العشرة وجمعت في ورقة ما استطعت استخلاصه من الكتاب القديم، تبينت انه لم يتجاوز التسع عشرة فقرة، مبتورة تبلغ أحيانا حد الرموز، ولكنها مع ذلك ترسم أمام قارئها بعنف صورة حية، دافقة الحيوية، لنفس صديقي التلميذ المجهول الذي لا أخاله تعدى السادسة عشرة من عمره. ولكم شغفت به بعد ذلك شغفا صريحا ليس له نهاية؛ ولكم حاولت جهدي أن أتعرف على تلك الحدود التافهة التي تعيّنه من البشر: اسمه ومكانه وزمان مولده؛ إلا أنني فشلت فشلا تاما، وبقيت جاهلا عنه كل شيء سوى انه كان انسانا عاش وكتب عذابه سطورا من نار، هي هذه الفقرات التي نقرأها.

4 نيسان: لماذا تبدو حياتي هكذا، دروس، دروس، دروس؟ متى سأنتهي من هذه الأوراق المملوءة بكلمات خشنة!

ان في نفسي ضيقا؛ انني لم أذق طعم الحياة حتى اليوم، وليس هناك من يضمن لي العيش طويلا، فهل انتهى أمري؟

5 نيسان: أستسير الحياة بي هكذا الى آخر العمر؟ انقباض نفسي، أفعال مملة، عدم انفساح الأمل، خيبة في العلاقات النسوية وأخيرا الدروس؟

اني أعلم، لا أحد سيهتم بي حين أريد هذا الاهتمام؛ حتى تلك الفتاة الصغيرة التي نادتني من النافذة فلم أجبها، لن تعاود الكرة فتنادي باسمي بصوتها الرقيق الحنون؛ ومع ذلك أرى أشخاصا لا يهتمون بأن يحبهم الناس؛ هذا أبي أبرز مثل لهم؛ اني لم أره يكلم أمي كلاما وديا ربع ساعة من الزمن. حياته كلها يقضيها خارج البيت - قمار - سكر، عربدة، نساء حسان؛ كل شيء إلا أن يعود ليجلس في البيت.

12 نيسان: عجيب والله أن أتذكر بعد أسبوع تلك الفتاة الصغيرة؛ فتاة النافذة؛ أظن أن السبب هو أنها الوحيدة التي اهتمت بي.

14 نيسان: هذه والدتي؛ لقد مرت قبل دقائق أمامي لتدخل الدار مع أن الساعة جاوزت الواحدة بعد منتصف الليل. انها مثل أبي.. سهرات، قمار، وقد تسكر! من يراقبها؟ كل ذلك لأنهم أغنياء، لأن الدنانير لا قيمة لها عندهم.

20 نيسان: رباه، هل سأكون مثلها أنا أيضا؟

انهما يتشاجران الآن، وهما، الاثنان، ثملان لا يشعران تماما بما يتفوهان. الساعة تقارب منتصف الثانية صباحا. اني بيأس أحاول أن أفهم الكلمات التي أقرأ.

21 نيسان: تلك ليلة لم يمر مثلها عليّ. اني أتخطرها هذه اللحظة.. كانا يتشاجران وكنت أسمع أصواتهما من مكاني في الحديقة وأنا أقرأ؛ ولم يكن يبدو انهما صاحيان أو شاعران بما يعملان، لأنهما قطعا الصراخ فجأة وسمعت صوت الباب الخارجي يُفتح ثم يغلق بشدة؛ ومرقت سيارة أبي تحمله الى

مكان مجهول. مرت هنيهات ثم نزلت أمي إليَّ. كان شعرها الأسود المجعد مرتميا على جبينها بغير نظام، وكانت عيناها ساهمتين نصف مغلقتين وحركاتها بطيئة مستكينة. سألتني بصوت لين: «لا تزال مستيقظا؟» ثم سارت نحوي بخطوات غير متوازنة وجلست على الكرسي الواسع. كانت تفوح منها رائحة نفاذة طيبة اختلطت برائحة الخمر فأحاطها مزيج رائع من عطر المدينة وفجورها. كانت امرأة جميلة مستهترة. سألتها أمي بخير؟ فلم تجبني وارتمت برأسها على كتفي؛ ثم لم تمض إلا لحظات حتى سمعت نشيجها وأحسست بالكرسي يهتز اثر حركات جسمها. اضطربت وحرت في أمري فرميت الكتاب جانبا والتفت إليها فأخذت أسكن من روعها قائلا بصوت تخنقه الدموع: «أماه لِمَ البكاء؟ ان الأمر لا يستحق شيئا. لا تبكي يا أماه. لِمَ تؤذي نفسك هكذا؟» ثم بكيت معها.

22 نيسان: اني أريد الألم. أحب أن يؤلمني أحد، أن يمزق قلبي، أن يحرقني. شخص أحبه. أهيم به، لو آلمني لفرحت لألمي وعذابي. أتذكر ليلة اذ كنا نلعب لعبة يتحكم فيها لاعب بالآخرين فيأمر بضربهم أو بالعفو عنهم، وكيف كانت والدتي هي الأمرة فطلبت من أحد اللاعبين، وكان صديق أبي، أن يضربني عشر ضربات شديدة!

لم يحتج أحد، لأنهم جميعا كانوا ثملين، فتحملت تلك الضربات العشر الشديدة وأنا أحبس الدموع التي كانت تتجمع في عيني بسرعة.. ولم ابك. كانت لحظات رائعة حقا.

30 نيسان: انها هكذا دائما، وأنا لا أملك تغييرها. تحبني ساعات وتهملني أياما أكثر عددا.

1 مايس: الحياة ضيقة، مؤلمة، قاسية. لا أريد إلا أن أبكي طويلا وأن أمزق قلبي بيدي.

3 مايس: فكرة الانتحار تراودني، والدموع تمنع عني سبيل الرؤية. لماذا يهملني الجميع بهذا الشكل؟ أريد أن أبين لهم عن حبي فلا يدعونني. الا يرون أني مسكين أستحق الشفقة؟

10 مايس: أمي وأبي لا يزالان كما أعهدهما، سهرات.. سكر.. قمار؛ وأنا لا أكاد أشعر أنني ابنهما. ان أمي لم تكلمني أسبوعا كاملا.

11 مايس: كانت الساعة تشارف الثانية عشرة مساء، وقد فاجأتني هي وشلة من مثيلاتها. كن جميعا خمس نساء، قد لعبت الخمرة برؤوسهن قرمين الملابس الخارجية وأتين قربي فافترشن الأرض وأخرجن الورق وأخذن يلعبن بين ضجيج وصياح وصراخ. نظرت إليها بعد أن تمالكت روعي. كانت كعادتها، غير منتظمة الشعر وقد تهدلت خصلات منه أمام عينيها واحمر وجهها من اثر الكلام والصياح وأخذت تتمايل في حركات خليعة ماجنة، فشعرت بقلبي يخفق. كانت رائعة في كل شيء.. لكنها أمي؛ وكنت أشعر أنني احبها، لكنها كانت تخزني وتؤلمني.

لِمَ يجب أن تكون الأم فاضلة ذات تربية راقية؟

وكنت غارقا في أفكاري حين سمعتها تحث جماعتها على القيام والخروج بعد ساعة طويلة قضينها في اللعب والصراخ. أوصلتهن الى الباب ثم عادت فتطلعت إليّ بنظرات تفيض رقة وشفقة وانحنت فقبلتني في وجنتي وهي تهمس: «يا بني المسكين، لِمَ لا ترتاح قليلا؟». ثم ابتعدت عني وهي تسحب من ورائها معطفها الثمين محنية رأسها الى الأرض بهيئة تفكير عميق، فشعرت بالعواطف المحرقة تموج في صدري وتكتم أنفاسي.. وبكيت.

15 مايس: الهواء بارد منقع أو يكاد بالماء، والندى في منتصف الليل يتساقط في الحديقة الغناء، والهدوء يملأ الأجواء البعيدة عني، تلك النجوم.. تلك السماء.

لا أحد في الدار. اني وحيد الآن وسأبقى هكذا الى الأبد، ويخيل إليّ أنني لو مت في هذه اللحظة لمت سعيدا!

16 مايس: لا شيء يقترب مني، لا الحب ولا الحياة. انني في ظلام دامس معلق بين السماء والأرض.

28 مايس: كالمجنون اقترب مني بعينين جاحظتين وبوجه أحمر يكاد الزبد يتطاير منه فسألني عن والدتي فأجبته بأني لا أعلم مكانها. ثار صائحا

شاتما آباءها وأجدادها ومن زوجوها به، ثم مضى برهة وعاد فجلس في الحديقة قربي وراح في حركات عصبية مخبولة يدخن سيجارة إثر اخرى وينفث الدخان كأنه زفير من الجحيم.

لم تأتِ إلا في الواحدة والنصف صباحا وهي تجرجر بأقدامها. كانت حزينة الوجه مكتئبة النفس. ناداها فاقتربت منا بهدوء وعدم مبالاة وابتسمت لي ابتسامة صغيرة ثم التفتت إليه متسائلة. صاح بحدة يستجوبها: «أين كانت؟ ومع من؟ وكيف أتت؟».

ولم ينتظر منها جوابا فقام بسرعة البرق ولطمها على وجهها لطمة شديدة فوقعت في الحال تحت قدميه. صرخت دون شعور وقفزت نحوها فأحسست بلطمة مفاجئة تواتيني فغبت عن صوابي. علمت بعد ذلك أنه أبي الذي ضربني دون تعمد، وقد كان يريد أن يضربها هي فأصابتني الضربة حين قفزت نحوها. مرضت أسبوعا كاملا. كانت هي قربي طوال الوقت، تبتسم في وجهي وتحنو علي وتناديني بأعذب الصفات وأعز الأسماء؛ فكنت في بعض الأحيان أشعر بالدموع تغرق عيني فأدير وجهي نحو الجهة الأخرى، لا أدري لماذا؟ لكنها شعرت بي مرة من المرات فارتمت على وجهي تشبعه قبلات وقد اختلط صوتها بنشيجها الحاد. كنت حائرا، ولم أكن أجد ملجأ من هذا العطف والحنان إلا أن أبكي لأنني لا أستطيع أن أعمل شيئا آخر أزيل به هذا التأثر الذي يملكني إزاء عطفها الشديد. كنت أحيانا أقبل يدها، غير أني كنت أشعر بخجل عميق بعد ذلك فامتنعت عن هذا العمل امتناعا تاما. الامتحان على الأبواب.

30 مايس: أيها القلق! لقد علمت طريقي أخيرا.

8 حزيران: أهكذا يشق على الانسان أن يموت، حتى ولو فقد أعز مخلوقات الله إليه؟

أسبوع وأنا أفكر، كيف ذهبت؟ كيف يمكن أن تذهب؟ مع علمي علما أكيدا أنه كان السبب. لقد طلقها وأبقاني معه، وحيدا بدونها.

15 تشرين الأول: من كان يصدق أني سأكمل في الامتحان بعد

الجهد العنيف الذي بذلته طوال أشهر ؟

لا أحد غيري أنا؛ وخاصة في هذا الدرس الذي أصبغ حواشي كتابه ببعض دمي.

ثم، من سيظن ويعتقد بأني سأرسب، بعد الدراسة المتعبة التي تخللت العطلة بكاملها ؟

أنا طبعا، أنا وحدي ؛ فليس هنالك من يعلم بأنني لم أعد قادرا على أن أقرأ حرفا أو أكتب كلمة وأنا انسان نصف ميت لا ميزة له سوى الأفكار السامة التي تنهشه.

لم أر أمي منذ أكثر من أربعة أشهر، ولم أسمع عنها شيئا إلا قبل أيام. لقد تزوجت ورحلت مع زوجها خارج بغداد دون أن ترسل لي كلمة أو كتابا ؛ ولقد علمت أنها لبثت سعيدة في حياتها وحتى فراقنا ـ فراقي أنا ـ، ولم أعلم أنها سألت عني أحدا.

لماذا أريد أن أحمّل الذين أحبهم عبء الاهتمام بي ؟

هكذا تجري الحياة دائماً. هكذا دائماً.

بـلا تـاريخ : هل ستنجب ولـدًا مثلي، يحبهـا مثل حبي ويحرص على ذكراها كما أحرص ؟

لا أظن. أقول هذا ودموعي تخنقني، وهي كل ما تبقى لي من الانسان القديم الذي كنته... ولكن بقربها.

1951

الأزهـــار

لم تدعني افتح باب الشقة الخارجي بهدوء. استمرت في كلام كالصراخ المكتوم متظاهرة بأنها ثابتة الأعصاب :

– ... عند ذاك رأيتك بوضوح تـام وأنت تفعل فعلتك الـوحشيـة تلك بكل اصرار وتقـدم لها الكأس وتنحني. رأيتك تنحنـي، تنحنـي أمـام تلـك المخلوقة الهرمة المجنونة.

وانفاسها تتلاحق بسرعة والندبة على صدغها تزداد احمرارًا، وهي تتجه نحو ذروة الهياج :

– أنت ... أنت تنحني امامها وتقدم لها الكأس ! مـا هـذا النفـاق ! أين ذهبت كرامة الرجال هذه الأيام !

وكان بودي، مثلها، وانا منحن هكذا ومحشور لصق الباب، أن اعرف أين تختبيء كرامة الرجال اللعينة، والمفتاح يزوغ عن القفل والكرامة والرجـال مختلطان في ذهني.

- آخ يا ربي، هذا أمر لا يحتمل أبدًا ولا يطاق، وهم يقولون أننا نتقدم ونتطور، وان الاخلاق ترتفع والنفوس ... آخ النفوس ... اية نفوس يا بشر!

ومع هذه التفثة الأخيرة استجاب لي القفل وتراجعت الباب على حين غرة فاندفعنا مهرولين الى الداخل وانا اسمع لهاثها يتبعني.

- لا تنكر. لا تنكر أي شيء. دع الأنكار لأنك لا تقدر عليه.

أضأت الصالة واسرعنا نحو غرفة الطعام حيث اتفقنا ان يكون النزاع فيها. بدأت تدور، حالما صرنا هناك، حول الكرسي الذي انكمشت جالسًا عليه، شاحبة الوجه لامعة العينين:

- وكل ذلك، هل تعلم لماذا؟ وهل تعلم أين تكمن العلة التي تجهل وجودها في نفسك ... نفسك التي تعتقد، وانت في هذا العمر، بأنها نفس قوية من تلقاء ذاتها ولم تتأثر باي تأثير مني أو من غيري. وهذا والله عجيب، عجيب جدًا اذا اردت ان نتصارح.

نزعت معطفها ورمته بعنف على كرسي ترجرج وعاد الى موضعه! ولم اقفز للأمساك به لئلا يحدث ما لا تحمد عقباه؛ وكان علي وعليها أن نتحمل في ليلة الحسم هذه، ساعات من النزاع الكلامي يشابه مواء القطط الحاد:

- وكل ذلك ضمن سلسلة ... سلسلة مترابطة طبعًا من الاعمال التي رصدتها جيدًا وبدقة. لم افعل ذلك عن عمد. انا أرقى من هذه التصرفات كما تعرف. لقد وقعتْ امام بصري فرأيتها. هذا هو كل شيء. وقعت كل تلك الامور أمامي وانت لا تحسّ، لا تحس ابدًا لانك مشغول بأمورك التي لا أدري، بعد كل هذه السنين، كيف اصفها ولا كيف ابررها. اسمع، انظر الّي الا تراني احدثك! أنظر الّي حين احدثك عن اشياء في غاية الأهمية. كلا...

ظننتُ اني أريد الكلام فرفعتْ يدها مشيرة الّي أن أسكت:

- أول الأمر لم أفهم معنى اصرارك على الذهاب الى هذه الحفلة الثقيلة. نعم، صحيح انه شريكك في المؤسسة، ولكن... تذكر من جعلك شريكًا له. اجبني، من جعلك شريكًا له، انت الذي لا تملك اية قابلية عقلية! أنا. أنا. أنا

وبنقودي . وأنت تظن أن مواهبك الأدارية هي التي جعلته يقبل . تبًا لك ولمواهبك الأدارية السخيفة .

فسألتها عما تعني . وقفتْ امامي تمسك بطرف الكرسي وبيننا المائدة الصقيلة . بدت لطخ الزينة الحمراء والزرقاء غريبة على تلك الطلعة الكالحة الميتة :

- تسألني !

استدارت :

- يسألني عما أريد !

وامسكت بشمعدان الزجاج ذي الشمعتين فطوحت به الى جهة بعيدة فرنت الغرفة بضجة لا مثيل لها :

- يسألني أنا ... عما أريد ! كأني خادمته . كأني عبدته المطيعة . كأني رهن اشارته متى شاء . يتلف شبابي . يأخذ نقودي ، ويسألني عما أريد !

واقتربت من المائدة فضربتها بيدها ضربة عنيفة خلتُ أنها آلمتها :

- أريدك أن تدفع . تدفع عما عملته بي ، عن سنوات شبابي أيها العنين .

رفعتُ نظري اليها مندهشًا .

- لا تصرخ في وجهي . لا تصرخ . لا أطيق أن تصرخ في وجهي . انت لا تنجب ! لا تنجب ، الا تعلم ذلك !

وماذا يهمني ان تسمى عنينًا ام إسماً آخر لا اعرفه . فتش لك عن الصفة التي تلائمك .

كنت على حق اذن . عرفتُ أنها ستصل الليلة الى قمة جنونية لم تصلها قبلاً . لم يكن ذلك صعبًا على كل حال ؛ ولذلك وجب ان يُبدأ بالعمل . تظاهرت ، في طريق عودتنا ، أن سجائري نفدت فقطعتُ سيل كلامها ونزلتُ قرب مقهى اعرفه . كان ذلك أمرًا محتماً لا مفر منه . خابر واعطاهم الاسم والعنوان وقال لهم أن الحالة مستعجلة وخطيرة .

- ... حرمتني من كل شيء ... الحرية والشباب والحياة. حرمتني من الحياة الطبيعية وجعلتني اعيش عيشة الحشرات. عيشة الحشرات اقول لك. نأكل وننام، نأكل وننام. ثم تأتي بعد ذلك ... لاتنظر اليَّ بحقد هكذا ... أيها الحقود الكريه.

ثم القت بقفازيها الى طرف من الغرفة وبقيت تراقب سقوطهما:

- انت تحقد لأن نفسك سوداء، وأنا لا أحب هذه النفوس. انا اشعر اني نقية، صافية النفس بالقياس اليك. خذ مثلاً هذه الليلة التي افسدتها عليَّ.

كانت أمامي مرة اخرى، تقف ممسكة بالكرسي والمائدة اللامعة بيننا.

- ... اصررت أن نذهب الى هذه الحفلة الملعونة، لأنك كنت ناويًا ان تثير اعصابي وان تخرجني عن طوري فاخذت تمثل دورك السخيف الممجوج، دور العاشق الموله بتلك العجوز.

اردتُ ان اصحح اقوالها.

- ... وأنا ماذا افعل، والسيد المحترم يظن نفسه كازانوفا! يغزو قلوب النساء متى ما شاء له ذلك! قل لي، أيها المخبول اين سينتهي بك هذا الطريق! و... اسمع ... لا تقاطعني ... أليس الأولى بك ان تهتم بي قليلاً وتراعي مشاعري وتؤدي واجبك كزوج! نعم، واجبك كزوج على الاقل. لا أكثر ولا أقل. الشيء البسيط الذي تطلبه الزوجة من الزوج ... الا يكون عنيناً، اعني أن يستطيع مساعدتها على الانجاب. هذا هو ببساطة كل شيء.

رفعت نظري اليها.

- ... قل لي، أأنا مخطئة! ها ... ها، أنت تسخر، اليس كذلك! تسخر مني. تسخر مني! أيها التافه، انت تسخر مني! أنت ... أنت.

كانت تصرخ صراخًا لم اسمعه منها قبلاً وهي ترفع رأسها فجأة الى السقف وتشير بذراعها اليسرى الى لا مكان. لقد تخيلت مسبقًا حالها هذه. لا عتب عليه أو لوم اذ قام بعمله ذاك. ليس باستطاعته امام الاختيار، الا أن يدع الاخرين يموتون. لا مناص من ذلك.

- ... وأنا التي قبلتُ بتواضع أن تعيش معه دون ان اطلب شيئًا. ياربي الرحيم ! وها هو يطعنني من الخلف ... اخ

أنّت كأنها طعنت حقيقة ثم توقفتْ على جهة :

- يطعنني من الخلف ... لماذا ؟ ... بعد كل ما عملتُ له ؟ لماذا ؟ لماذا !

وضربتْ المائدة بكفها عدة ضربات قوية . كانت تصرخ وشعرها الاسود المصبوغ ينتثر باضطراب حول وجهها ، حين طُرِقَتْ الباب فجأة.

قفزتُ بخفة وركضتُ أفتحها دون انتظار . كانا اثنين ، طويلين متيني البنيان . سألا عنها بعد ان تحققا من العنوان . أشار اليها . كانت تقف كأنها دمية ممزقة . حذرهما منها . قال انها تخفي سكينًا في ملابسها . أسرعا وأحاطا بها ولويا ذراعيها بشدة . بقيت تتطلع بذعر اليَّ . دفعاها أمامهما فسارت تجرجر بقدميها بينهما وتدير عينيها بيننا ملجومة اللسان . وصلوا الباب فابتعدتُ عنهم ووقفتُ وسط الصالة . كنتُ اغالب شيئًا ما في نفسي يريد أن يجعلني مسرورًا . عادت اليها قوتها حين أرادا أخراجها من الشقة . نفضتْ ذراعيها منهما بقوة ، لكنها لم تستطع الخلاص وارتطم رأسها بالحائط القريب . ثم تشبثتْ باطار الباب لحظات . بدا عليها كأنها فهمتْ اخيرًا . نظرتْ اليَّ .

- ظننتُ انك ارسلتَ لي ازهارًا !

سحباها بعنف واغلقا الباب بعد ان اعطاني احدهما عنوان المستشفى .

كنتُ اقف وسط الصالة الهادئة ، خافق القلب ، لا انتظر شيئًا . أكان عمله صائبًا ؟ وكيف يمكنني أن أعرف حقًا !

باريس 1984/4/7

(م . أ . ر . ع . س .)

الى رشيدة
تبدأ الحياة حين لا تنتهي ف .

عصر ذلك اليوم الخريفي، وقفتُ بسيارتي على حافة "ساحة المنصور" حيث الرأس الكبير ذو العمامة . لم أكن مترددًا قدر ما كنتُ حائرًا، فلقد ألحت علي ابنتي صبيحة وهي تراني أتهيأ لمواظاة صديق في موعد هام، ان اشتري لها دمية رأتها معروضة في واجهة مخزن افتتح حديثًا في احد الشوارع المطلة على هذه الساحة . ولأني اعتدت ان اسلك طريقًا معينًا من دارنا في "حي المتنبي" يوصلني الى شارع 14 تموز فأتجه بعده بسهولة الى "الباب الشرقي" ، فقد توقفت على مشارف الساحة شاعرًا ببعض الارتباك . كنتُ أعرف جيدًا ان ثمانية شوارع تصب في هذه الساحة وتمضي نحو جهة من المدينة ... نحو الحي العربي والوشاش والكاظمية او نحو منتزه الزوراء والمنصور وغيرها، الا هذا الطريق الذي أراه للمرة الأولى والذي أثار الحيرة عندي . انه يقع بين شارع "الحي العربي" وبين الشارع المؤدي الى المطار، وقد بدا خاليًا، منفتح الافق، فخطر لي انه قد يكون الطريق الذي وصفته لي ابنتي . أنا، في العادة، حذر يساورني القلق لأتفه الاسباب، ولعل مرد ذلك تلك السنوات الطويلة من الاضطراب التي

عشتها مع ابناء جيلي من البشر الذين ولدوا بعد تأسيس الحكومة العراقية بقليل. أذ لم تفتني من كل الانقلابات والاضطرابات التي مرت على العراق، الا ثورة العشرين. غير اني بقيت مالكًا للحد الأدنى من هدوء الاعصاب مثل بقية العراقيين. كانت الساعة قد جاوزت السادسة بدقائق ففتحت الراديو وتلفتُ يمينًا وشمالاً ثم اتجهتُ بسيارتي نحو الشارع الجديد.

كنتُ أسوق ببطء، محاولاً ان اتعرف على ما يحيطني ؛ وكانت العجلات تنزلق على الاسفلت بلين وصوت المذيع في اذاعة بغداد يبدو لي أجش اكثر من المعتاد. لم اتبين شيئًا كثيرًا مما كان على جانبي الطريق، رغم ضوء الشمس الخافت المريح للنظر. ثم انقطع اول ما انقطع، صوت المذيع الخشن وهو في منتصف احد الاخبار.

... ...

عن الحقائق الكبرى التي لاعلاقة لها بهذا العالم، أحدثكم. لم ارد ذلك. انها الحال المستعصية التي وقعتُ فيها. انا شخص يتجنب المشاكل لانه لايحب ان يعتذر. الا ان مشكلة ولادتي في احدى سنوات القرن العشرين على ارض الاضطراب تلك هي التي هدت اعصابي. ولم أكن اقصد امرًا اخر ذلك المساء غير ان اشتري دمية لابنتي الصغيرة. لوحتُ لها بذراعي قبل ان استقل سيارتي الزرقاء من نوع "تويوتا" موديل 1981. وهكذا رحت اسوق ونفسي خائفة. كان الطريق خاليًا، خاليًا جدًا أذا صح القول، والنور حولي اخذ يتناقص ويميل الى الزرقة. زرقة البحر، زرقة الآفاق البعيدة ؛ وكنتُ، في الخفاء جزعا. ذلك الصوت في اعماقي يحدثني عن الكوارث ؛ لكني بقيت اسوق سيارتي الزرقاء على ارض الشارع المسماء الرمادية، حينما رأيت أني لستُ في المكان الذي يجب ان اكون فيه. تلفتُ، تلفت. لاشيء واضحًا. ضغطت على الكابح بتردد. انا منزعج، مضطرب. أبطأتُ السيارة دون ان اشعر بذلك. رأيت موءشر السرعة ينخفض فقط. عدت اتطلع بانتباه شديد، خافق القلب. ولكن هذه الطريق بلا نهاية ولاحدود! وأنا في الحقيقة لا أرى شيئًا

معيناً ثابتاً، ولا افهم وضعي تماما. مكثتُ ساكناً وراء المقود لحظات. لم كل هذه المخاوف والاوهام وانا وسط المدينة وعلى مبعدة عشرات الامتار فقط من بيتي ؟؟

صممتُ على العودة حالاً من حيث اتيت. ضغطت على عتلة البانزين وادرت المقود بقوة ثم التفت الى اليسار لرؤية المجال الكافي للاستدارة حينما اكتشفت ان ليس هنالك على جهتي اليسرى الا فراغ أصم. كنتُ في ضباب من نوع خاص، لا أرى شيئاً ولكني سليم النظر، والسيارة صالحة وجيدة، الا انها لعبة اطفال لاتتحرك.

كان عليَّ ان اهدىء نفسي بعد ذلك، وان اعي ما وقعتُ فيه. أهو امر يمكن ان يحدث ؟؟ أم اني في هلوسة شخصية لاعلاقة لها بالعالم، واني بجهد بسيط ربما، قد استطيع ان اتماسك وان انجو ؟؟

كنت مالكاً لحواسي تماماً، وكان قلبي يخفق بشدة. لامجال لافتراض الهلوسة الشخصية مادام هذا القلب ينبض هكذا. اذن ... وشعرت شعوراً مبهماً، غاية في الابهام، بأن السيارة تهبط بي. تهبط بسكون وبخفة وببطء. كأنها تغور في بحيرة من الطين الكثيف. وتضبب الزجاج الامامي وزجاج النوافذ وصرت على حين غرة داخل ظلمة خانقة. استطعت ان ألبث هادئاً، ويداي على المقود ترتجفان قليلا. ثم، وبغاية الابهام ايضا، شعرتُ كأن السيارة استقرت على ارضية ما. دون ضجة، دون رنين او ما أشبه، والظلام ظلام فوق ظلام، وانا متشبث لغير سبب بالمقود التعيس. كم قالوا عن بغداد انها تخفي اموراً أشبه بالخيال ... ولم اصدق، مثل بقية الاغبياء.

- الواحد، الموجود، في، باطن، المتحرك، ينتظر. الاستشعارات، الاولى، تتكامل.

كان الصوت آدمياً، آلياً، انسانياً، حديدياً، صافياً، مخدوشاً. صرختُ متلوعاً:

- أخي، يامعوّد. لحك لي الله ينطيك. آني بدخلك.

- الواحد، الموجود، في، باطن، المتحـرك، ينتظـر. الاستشعـارات، الاولى، تتكامل.

ضربتُ على زجاج النافذة :

- اشعل الضوا أخي، الله يخليك. راح اختنك.

سكون. ثوانٍ قليلة وامتد من الق قصي خيطٌ من الضوء الازرق الخافت، اعـاد الي انفاسي. هربتْ الظلمة من حولي، الا اني ما زلتُ لا أرى شيئا.

- الاستشعارات، الاولى، تكاملت. الـواحـد، يخرج، من، بـاطن، المتحرك.

وازداد الضوء شدة وانقشع الضباب عما حولي. رايت حـائطًا املس يقـوم على جهتي اليســرى

- الواحد، يخرج، من، باطن، المتحرك.

دفعتُ باب السيارة ففتحتها ثم نزلت وهتفتُ :

- ارجوك اخي. ماكو حاجة لكل هالتشويشات. اخذوا كل ماتـردون وخلوني ارجع لأهلي. آني لا شفت ولا سمعت.

- الواحد، يقف، حذاء، القائم.

- ارجوك... سيدي... آني ماعنـدي سـلاح ولا بطيخ. خلـوني ارجع لاهلي...

- الواحد، يقف، حذاء، القائم.

- شنو قائم، مولاي ؟؟

صمت قصير :

- الواحد، يسير، نحو، النابض.

وبـدأ بمـوازاتي، في الحائط، ضـوء يخفق كأنـه يشير الي. سرتُ ببطء. كـانت اقدامي ثقيلة. ثقيلة، وكنتُ أجرها جرا. وصلتُ لاهثًا حيث الضوء النـابض فتـوقفت. لم اسر الا بضع خطوات معـدودات، وهـا أنـذا ألهث كمن ركض ميلين ! ماذا حل بي ياترى؟؟ استنـدتُ على الحائط بظهـري، فـاختفت اشـارة

الضوء حالا .

- الاستشعارات ، الزمنية ، الوظيفية ، تتكامل .

كانت هنالك ، امام ناظري ، على بعد لم اقدر على تحديده ، منابع لاشعة ملونة تبعث بخيوط نحوي ، أراها تتقدم وتلمسني ثم تحيطني وتضغط على بعض المواضع من جسدي . كنت متعبًا ، وموضوعًا لدراسة من نوع خاص .

- من فضلك اخي ، آني شخص مسالم ما لي علاقة باحد . آني شخص مستطرق ما ادري الله شلون وكّعني بهالورطة . ارجوك افهمني .

أحد الخيوط الضوئية احسست به يمسك برأسي ويدور حوله عدة دورات غريبة ، ثم يمتد امامي فيصير اسطوانة لامعة اخذت تتدحرج بنعومة على جسمي ... من أعلى الجبين والصدر حتى البطن وما أسفل البطن ثم تنزل حتى القدمين . عادت بعد ذلك ، خلال صمت مميت ، فبدأت تتصاعد ببطء . توقفتْ لحظات امام موضع العورة ثم استمرت في صعودها حتى وصلت رقبتي . أردتُ ان اتكلم مرة اخرى متوسلاً حينما شعرت بلسعة دقيقة في أعلى رقبتي على اليمين قريبًا من اذني . صرختُ :

- آخ ، شنو هاي ؟ الله يخليكم اخوان ، تره آني ...

فوطعت :

- الاستشعارات ، الجسدية ، تتكامل .

- مولاي ، آني شخص صاحب عائلة ، ما إلي علاقة باي جهة حزبية . ارجوكم افتهموا منو آني .

انطفأتْ الاضوية فجأة وغرقتُ من جديد في بحر من الظلام الاسود . لمستُ موضع اللسعة . كان منورمًا بعض الشيء . كنتُ خائفًا ، متضايقًا ، غير قادر حتى على متابعة الحديث . كم طال وقت الظلمة الداكنة ؟ لا ادري . الى الازل ، ربما . ولكن ، تدريجيًا وبعملية سحرية ، اخذتْ تنبجس من كل الاطراف المحيطة بي ، رذاذات نور وردية في زرقة خفيفة ، حتى اضاء المكان كله دون ان يصل بصري الى حدوده . كان الحائط خلفي . ضغطتُ عليه عدة مرات ، اما

الجوانب فلا يُميز منها غير ضباب لايتحرك .

ثم ... ثم حضر هو امامي . تكون بخفة مثل غيمة ، مثل ضربة شعاع . كان على بعد امتار . انه آدمي ، لاشك في ذلك ، أقصر مني وأشد نحولاً ، ويبدو كأنه عارٍ والعياذ بالله ، لولا هذا الصندوق الذي يرتبط الى وسطه :

- أحييك .

كانت عيناه نفاذتين وسط وجه هضيم شاحب في زرقة . هتفتُ :

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته . اهلاً وسهلا اخي . مرحبا .

لم يكن عاريا . كان يخفي جسده الناحل بقماش مطاطي يلتصق عليه حتى ليبدو كأنه عار . كان ينظر اليَّ وذراعاه الطويلتان مسبلتين الى جانبه :

- انت ، تتكلم ، العربية ...

- نعم ، طبعا مولاي . آني عربي بغدادي أبًا عن جد .

- انت ، تتكلم ، العربية ، بأنفاس ، نادرة .

كان يتحدث ببطء شديد ويبرود . استوضحته :

- نعم ، مولاي ؟

بقي ينظر اليَّ كأنه لم يسمعني . نظرات جامدة الا انها لمستْ قلبي بشكل ما . عدتُ أسأله :

- العفو ، ما افتهمت .

- أنت ، تتكلم ، العربية ، بنغمة ، خاصة .

- نعم ، مولاي ، العفو ، هاي ... اعني هذه هي اللهجة العامية التي يتكلم بها أهل بغداد .

- بغداد ؟؟

أخافني سوء اله هذا ، واردتُ ان اندفع في الكلام . لكني تماسكت وعدت اتكلم معه بالفصحى :

- ألسنا في بغداد ياسيدي ؟

هل ابتسمت عيناه ... تانك النقطتان السوداوان العجيبتان ؟

- نحن، في م. أ. ر. ع. س. أكنتم، تتكلمون، هكذا ؟؟

اضطربتُ :

- شنوم. أ. ر. ... ما أدري شنو ؟ العفو مولاي، مامعنى هذه العبارة ؟

- إن، في، لغتك، التي، كنت، تتكلم، بها، الكثير، من، الجبور، والالوان.

- أحنا وين مولاي، الله يخليك ؟؟ العفو، اين نحن ياسيدي ؟؟

رفع ذراعه بهدوء ولين :

- انتظر.

اخذ يعبث في أزرار امامه يحويها الصندوق الذي كان يحيط وسطه :

- كلا. النتيجة، سلبية. جدث، محنط. لاحياة. كلا.

ورجعت ذراعه بعد ذلك مسبلة الى جانبه. كلمته :

- سيدي، انا متعب ومضطرب وأود العودة الى اهلي. لقد مررتُ بهذا الشارع صدفة والله. كنتُ اظن ان مخزن الدمى يقع فيه، فاذا بي أقع ... هنا.

كان رأسه صغيرًا خاليًا من الشعر وكذلك وجهه :

- لا استطيع، ان، اساعدك، أكثر، مما، فعلت. لقد، اعطت، الاستشعارات، مايكفي، عنك. إن، تاريخك، انقضى.

- سيدي، ارجوك ان تفهمني. لقد خرجتُ من داري في سيارتي التي لا ادري اين هي الان، لأشتري لعبة ... اعني دمية لابنتي الصغيرة صبيحة. هذا هو كل ما في الامر. انا لم أجيء هنا قاصدًا اي شيء آخر.

- ان، تاريخك، قد، انقضى. فكر، في، ذلك.

- انا لا افهم منك شيئا. ماذا تريد ان تقول ؟ هل تعني اني مت ؟ أأنا ميت الان ؟؟

- كلا. لقد، اعطيتُ، التكوين، اخبارًا، غير، صحيحة، عنك. هذا، يمنحك، وقتًا، قصيرًا، فقط. انهم، سيعرفون، بالتأكيد.

- سيعرفون ... ماذا ؟؟ ساعدني ياسيدي الرحيم .

- استطيع ، ان ، أعطيك ، الحقائق .

- أية حقائق ياسيدي ؟؟

لبث ساكناً لحظات ، اكتسى فيها وجهه الاملس ما يشبه الجد الصارم الحزين :

- أنا ، اخبرك ، بأننا ، في ، مطلع ، الالف ، الثاني ، بعد الحرب ، الذرية ، التي ، فجرّها ، معاصروك .

- شنو ؟؟ شنو ؟؟ ماذا تقول ؟ ماذا قلت ياسيدي ؟

- كنتم ، تملكون ، قابلية ، واسعة ، للعيش ، الهني . جنونكم ، بلغ ، مستوى ، يفوق ، وضعكم ، الطبيعي . كنتم ، تجهلون ، المدى ، الحقيقي ، للتعاسة . لقد ، عملتم ، كل ، شيء ، بمفردكم .

- والحرب ، ياسيدي ؟ والحرب ، من بدأها ؟ ومتى ؟ ولماذا ؟ وهل تتحدث عن وقائع تاريخية ام انك تريد ان تخيفني فقط ؟؟

- انت ، لي ، ميزان ، منطقي ، قديم . تريد ، ان ، تنفّذ ، عدالتك ، الانسانية ، في ، بشر ، يفنون ، كلهم . لقد ، فجرتم ، العالم . نحن ، احفادكم ، صرنا ، فئرانا . نحن ، نعيش ، تحت ، الارض ، لنحتمي ، من ، الموت . لسنا ، نخاف ، الموت . إعلمْ ، هذا ، جيدا . نحن ، فئران ، البشرية ، نحب ، ان ، نموت .

رفع ذراعه اليمنى النحيلة الطويلة واشار اليَّ :

- أننا ، تعساء ، جدا .

- لماذا ؟ لماذا ياسيدي ؟ رباه ، أحصل كلُ هذا حقا ؟ وماذا جرى ... لنا ؟ لاهل الارض اولئك ؟؟

بقي ينظر اليَّ وهو يخفض ذراعه :

- لقد ، انقلبت ، بكم ، الارض ، وتلاشت ، الامكنة . انت ، لم ، تغادر ، مدينتك ، تلك ، بغداد . انها ، هي ، تحت ، الارض ، تُسمى .م . أ . ر . ع . س .

- ألازلتُ في بغداد اذن ؟ أستطيع ...

وأسكتتني ملامح الوجه الشاحب المزرق. كنتُ مثقل القلب والروح بحزن اسود لايحتمل. عدتُ بلجاجة اتسائل :

- ألا أمل لي ياسيدي بروءية اهلي ثانية ؟

فترة صمت ذي معنى. هتفتُ فجأة :

- ولكن ماذا جرى ؟ ماذا جرى لكم ؟ ولِمَ انتم تعساء الى هذا الحد وانتم متقدمون علميًا ؟ لماذا لاتعيدون بناء صرح الحضارة مرة اخرى ؟؟

- الحرب، بدأت، كي، لاتنتهي. نحن، متقدمون، في، بعض، العلوم، ولانستطيع، ان، نعمل، كل، شيء. إننا، لانعلم، ماجرى، حقيقة، على، الارض. مانزال، بعد، كل، هذه، السنين، نجهل، ماجرى. بمقدورنا، ان، نحمي، أنفسنا، فقط، من، الاهوال، التي، مابرحت، تتطاير، في، الاجواء، الارضية. لقد، حُرمنا، ضوء، الشمس، والازهار، والهواء، النقي. كل، شيء، عندنا، مصنوع. إننا، لثران، بشرية، متقدمة، علميا. انت، تراني. انا، لستُ، ذلك، الانسان، الذي، تعرفه. لقد، حدث، لنا، بعد، مئآت، السنين، تحت، الارض، ان، فقدنا، لذة، الحياة.

- ليس هذا بناجعة على كل حال. نحن أيضًا مللنا الحياة أحيانًا رغم الشمس والازهار.

- انت، لاتفهم. منذ، أكثر، من، عشرة، أجيال، أصيب، البشر، بما، يسوازي، حربًا، ذرية، اخرى. لقد، فَقَدَ، الرجال، في، محيطهم، الفأري، هذا، ارتعاشة، الحياة، التي، كانت، تأتيهم، في، علاقتهم، الخالدة، بالأناث.

- كلا. كلا. لاتقل هذا. انه امر لايصدق ولايمكن احتماله ابدا.

- اراك، تسخر. أنك، لاتستطيع، أن، تتصور، معنى، ذلك، الامر. إنه، الفناء، البطيء، المحتوم. نحن، الذكور، لم، تعد، لنا، علاقة، بالاناث. إننا، لانجد، معهن، اي، فرح، او متعة، او لذة. صار، الامر،

شاقًا، مؤلما.

- وماذا تفعلون ؟؟

- إننا، نتدنى، ونزداد، انطمارًا، تحت، التراب. كل، شيء، يفقد، معناه، تدريجيا. مانبقى، من، روائع، فنية، وكتب، الادب، تأكلها، الجرذان، برعايتنا.

- وكيف حدث ذلك يا أله السموات ؟؟

- لم، نعرف، حتى، الان، هوية، الرجل، الذي، عاني، صدمة، التجربة، الاولى. نعرف فقط، انها، وقعت، في، الجيل، العاشر، السابق، او قبله، بقليل. انه، الجيل، الذي، كاد، يفنى، لكثرة، حوادث، الانتحار. كنت مذهولاً وانا استمع الى كلام هذا الانسان الذي اخذ يظهر لي كالجرذ الكبير. نسيتُ نفسي وما انا فيه، ونسيتُ ما قد ينتظرني وعدتُ أسأله منبهرًا :

- هل حصل تشويه من نوع خاص في اجسامكم بسبب الاشعاعات النووية والظلام ؟؟

مرت على وجهه، هنيهة، علائم ارتياح مبهم :

- انت، تصدق، اذن. انا، أخبرك، إن، الحياة، البشرية، تغيرت، كليا. انها، تنحدر، نحو، الأسوأ، ببطء. نحن، الرجال، فقدنا، كل، شيء. بقي، أن، يؤخذ، من، اجسادنا، هذا، السائل، الذي، يتجمع، ثم، ينهمر، بغباء. أننا، حيوانات، تُربى، كي، تنتج، كمية، معينة، من، السائل، الحيوي.

- ماهذا، ياربي ؟ ومن يعمل بكم كل هذا ؟

- الاناث. انهن، لم، يضيعن، شيئا. وهن، يزددن، جنونًا، واصرارًا، مع، الزمن، على، ابتعاث، الحياة. انهن، يصنعن، البشر، باستخدام، الرجال. الرجال، هؤلاء، تعساء، ولا يكرهون، الموت. لم، يبق، اي، معنى، لاي، شيء. توارت، القيم، وتساوت، الامور. وهذا، ثار، الرجال، عدة، مرات. كل، الثورات، أخمدت، لان، الرجال،

لايملكون، الحماس، للاستمرار، فيها، حتى، النهاية. انهم، لايعرفون، لماذا، يعيشون. لا أمل، هنالك، هم، مطلقا.

- والنساء ؟ أين هن ؟ ولماذا لم يفقدن اي شيء ؟؟

- لم، يثبت، علميًا، وتجريبيًا، انهن، فقدن، شيئًا، يخص، ذلك، الارتعاشة، اللعينة. انهن، موجودات، وهن، يبحثن، عن، أمثالك. انت، ستراهن. انهن، مخلوقات، بلا رحمة، ولا احساس. انت، ستراهن، بالتأكيد.

- آني ؟ أنا ؟ ولم انا بالذات ؟؟

كنتُ اصرخ دون ان اريد ذلك. تملكني الرعب من كلماته، الرعب من اني انا الاخر، منحشر بين مخالب هذه الكارثة :

- انا ياسيدي العزيز، استسحيك عذرا...

وصمتُ. لم استطع الاستمرار في الكلام. امسكتُ بخناقي عبرة لم اتوقعها. سكنتُ هنيهات :

- انا لا أريد ان ارى احدا. حتى النساء لا اريد ان اراهن. أنا أتألم ياسيدي... ياأخي في التعاسة، وبودي...

توقفتُ ممسكًا بصدري :

- بودي ان ترأف بي وتساعدني للعودة الى... الى فوق... الى الارض.

- لماذا، لاتريد، ان، تفهم ؟ لقد، أجرينا، عليك، الاستشعارات، الاولى، لكي، نتأكد، انك، غير، ملوث، بأشعة، ممتة. كيف، يمكنك، ان، تعيش، هناك ؟ ألم، أقل، لك، ان، الاماكن، تلاشت، من، الوجود ؟ وان، عالمك، واهلك...

كان يتكلم بنفس اللهجة البطيئة الجامدة، ولكنه - بكيفية ما - جعلني اشعر برغبة شديدة في البكاء. لاأدري كيف ادركتُ ما كان يقوله. لم يكن امرًا مفهومًا، يقبله العقل ؛ ولكني ادركته بحواس أخرى تكمن في اعماق نفسي، في دمي. انخرطتُ باكيًا، واضعًا يديَّ على وجهي. أكنتُ اودع وجوه أحبتي

الـذاهبـة الى الابـد ؟ أم تلك المجـالي المزهـرة، المنـورة من ارجـاء وطني التي احسست انه ينعاها لي ؟؟ سمعته :

- انت، تبكي. لن، تبقى، تعيشا، اذن.

انزلتُ يديَّ. كان واقفًا هنـاك كما رأيتـه اول مـرة، ينظـر اليَّ. تبـادلنـا النظرات. لم يكن يقول غير الحقيقة. إلهي ... ماأعظم شقاء، وشقائي !

مسحت دموعي بسرعة وخجل. سمعته مرة اخرى :

- اعلم، بأني، اردت، ان، اساعدك.

وكان يتراجع وفي عينيه لمحات من عدم الرضا والانزعاج.

... ...

طرق اذني حفيف من حولي ملأ المكان ؛ بدأ النور إثره يشتـد ويميل الى الحمـرة شيئًا فشيئًا، مثل صبـاح ينبلج. احسستُ بـارتيـاح يسـاورني رغم اعصـابي المتشنجة. اردت ان اسـتوضح من صـاحبي عما يحدث، فـرأيتـه يـرفع ذراعـه اليمنى وقد ازدادت على وجهه علامات الضيق.

- عَمَ كان يحدثك هذا المهوس بالموت ؟؟

كان الصوت نسائيًا رخيماً، تتوثب فيه البهجة. التفتُ. كانت هناك. هتفتُ :

- سبحان الخلاق العظيم.

ضحكتْ. بالله !

- شكرا

كانت، في ضباب بلوري، مشرقة الوجه تبتسم ؛ وهي في ثياب هفهافة تكشف بخجل عن منحنيات جسمها. كَلَمَتْه دون ان تلتفت اليه :

- ستؤخذ منك جرعتان اضافيتان. فاذا بقيتَ على قيد الحيـاة بعـدهما، سنُنقل الى صحراء ماوراء البحر الميت. انصرف.

ثم توجهتْ بالحديث اليَّ :

- دعني اعتذر لوقوع خطأ في التقدير. انت ضيفنا، وقـد جئتَ الينـا، ونحن نرحب بك في هذه المدينة السعيدة.

كانت تتكلم بطلاقة وبنوع من الرخاوة المثيرة :

- انت من عالم نحلم به دائماً وانا اريد ان اثبت لك ان كل ما قيل لك لم يكن صحيحًا على الاطلاق . انت ترى، اننا لانزال نشكوا من كثرة المرضى العقليين عندنا . تعال .

واشارت بذراعها البضة الى جهة من المكان . كانت ملامح جسدها الفذتين لعينيّ المتعبتين لحظة ثم تختفي . النهدان العاليان ولون الحلمة الداكن ومنخفض البطن وما تحته . اشياء كالسراب، جميلة شهية تسلب اللب . بعلتُ ريقي :

- ياسيدتي ... الجميلة، لقد جئتُ صدفة وبغير قصد سيء . كنت ابحث لطفلتي عن دمية في احد المخازن بهذه الاطراف من بغداد . ولم يخطر لي ان ازوركم .

- طفلة ! بغداد ! ياللاسماء المثيرة للخيال . انت تتجب ؟؟

- احيانا ياسيدتي .

- آه !

وجذبتْ ماكانت تستتر به الى صدرها، فبرزت استدارة الحوض الواسعة، وتقدمتْ قليلا مني . كنتُ مثل مراهق، تشتعل في احشائي رغبة محتدمة كالنار . وكنتُ مضطربًا، قلقًا، حائرًا . قالت وهي تشير مرة اخرى :

- تعال اذن . اني انا المسؤولة هنا .

لم اتحرك . لم استطع . قلت متضرعا :

- أيمكن ان تساعديني ياسيدتي كي اعود الى اهلي ... الى زوجتي واطفالي ؟ لقد حدثني السيد المحترم عن امور وافتراضات مفزعة وانا .

وسكتُ . رأيتها تتردد :

- ولِمَ لا ؟ ولِمَ لا ؟؟ تعال معي، تعال . لماذا لاتتحرك ؟

ثم اقتربتْ اكثر فاكثر ولمستني باناملها لمسة خفيفة . كنت غائم الفكر والنظر . لا اقدر على رؤيتها بوضوح، لكن عينيها بدتا لي عسليتين خضراوين . امسكتْ

برسغي . ناعمة كانت بشرتها، دافئة :

– لا تتذكر احاديث هذا المخبول . انه يهرف على الدوام بما لا يعرف . ثق بي انا فقط، كما يفعل الجميع .

– أنا، اودعك، بحرارة، من م . ا . و . ع . س .

كان لايزال هناك، على مبعدة امتار، يحيطه غبش ازرق ولا يُرى منه غير حدود قامته النحيلة وغير إلتماعة العينين الصغيرتين . سألته :

– ماذا تعني ياسيدي ؟

– م . ا . و . ع . س . ؟؟ انها، المدينة، التي، رحل، عنها، السرور . وأشار مودعًا وهو يرفع ذراعه بوهنٍ ثم اختفى .

شعرتُ بها تسحبني برفق هامسة :

– تعال .

كانت رائحتها ... ...

انتوني – آب 1984

ذاك النـــداء

قبل ان اهم بعبور (افني فكتور هيكو) رأيت الورقة النقدية مرمياً على الارض قرب الرصيف، نصفها غارق في الماء الجاري والنصف الآخر ملتصق بالبابسة. انحنيت دون تردد وامسكت بها بين اصبعيَّ ثم حشوتها بسرعة في جيبي ونكصت على اعقابي. لم يكن من المعقول ان استمر في نفس الاتجاه...

كنت اقصد عبور الشارع من النقطة المقابلة للينبوع، حيث اعتدت ان اغسل وجهي واملأ قنينتي الصغيرة ماء. تراجعت وسلكت شارع (ديفرينوا) ومن بعده شارع (لافيزاندري). كان من الضروري ان اقوم بهذه الاستدارة الطويلة نوعا ما، تحاشيا لاية التباسات غير منتظرة. كانت ورقة نقدية من فئة خمسين فرنكا. كنت اتلمسها وهي في جيبي، واحاول ان احتفظ بهدوئي... وصلت مفترق الطريق ودخلت (افني فكتور هيكو) من نهايته. قصدت اولا موقف الباص وتلبثت فيه قليلا. لم اتلفت ولم اخرج يديَّ من جيوبي ثم دخلت مقصورة التلفون ورفعت السماعة، كانت الآلة تشتغل بصورة عادية. خرجت

سائرا ببطء ووقفت امام تمثال (فكتور هيكو) من صنع (رودان)، كأنني اتأمله. كنت احس، تحت ظلال الاشجار العالية، بارتياح نفسي. كانت ورقة نقدية لاريب فيها، من فئة الخمسين فرنكا. ليس من الامور الطبيعية ان اعثر على ورقة نقدية من هذه الفئة، مبلولة كانت ام يابسة. ومع ذلك، فقد تم الامر ويجب ان اتقبله بهدوء. كنت عائدا من غابة (بولوني) بعد ان قضيت عدة ساعات، مسترخيا في احدى الزوايا المنعزلة. اعتدت ان اقضي بعد الظهر من اشهر الصيف، في هذه الناحية من باريس. لايهم ان يسقط المطر احيانا، لقد عرفت كل شبر من الغابة؛ ويمكنني ان اجد دائما زاوية تحميني من القطرات المتساقطة.

هذا اليوم لم انم جيدا. مرت خيول كثيرة واحدث الفرسان ضجة لاداعي لها، فلم استطع النوم. بقيت مسترخيا بين الجذوع، اتطلع الى السماء من خلال الاغصان والاوراق الخضراء. لم يهمني كثيرا الا انام، مادمت قد ارتحت بعض الوقت. القيلولة تصير ضرورة لامندوحة عنها، بعد الليالي التي لا اجد فيها مأوى ارتاح فيه. عندئذ، اتغلب على مايخلفه سهر الليل من ارهاق، بنومة مابعد الظهر هذه. وفي الصيف، عادة، لايعود الملجأ الليلي مشكلة لسكان باريس من امثالنا ممن لادارة لهم. انا من سكان باريس الذين لايملكون، هذه الايام، دارا او شقة او مترا مربعا واحدًا اتفرقص فيه بهدوء. ولقد اعتبرت ذلك امرا عابرا لاسباب كثيرة لا اتذكرها كلها الان. وعلى كل حال، فلقد مضى الزمان الذي كنت احاول فيه الاهتمام بمثل هذه الشؤون...

كنت اشعر بارتياح وانا اقف هكذا امام تمثال (فكتور هيكو) من صنع (رودان)، واضعا يديَّ في جيوب معطفي الاسود، اتحسس ورقة الفرنكات الخمسين. فارقني خفقان القلب وعاد الي اطمئناني وصفاء فكري. صفاء الفكر هذا، حالة مهمة يجب الالتفات اليها. اذ، حتى حين يكون الانسان في وضع خاص من انعدام القدرة على شراء نصف (باكيت) بفرنك وخمسة وثلاثين سانتا، فان باستطاعته ان يستعين بما تبقى له من صفاء الفكر كي يتدبر امره

بقطعة من الخبز لم تفسد بين ثنايا القمامة . هنا، على الخصوص، لن يهتم احد بأن يسألك عما تعمل . ادخل رأسك في صندوق القمامة ساعات وساعات، وكن متاكدا ان احدا لم يرك ...

انهم جديرون بالاعجاب حقا، هؤلاء، لعدم اكتراثهم المطلق . قل لهم، مثلا، انك تموت جوعا، فترى احدهم يرفع كتفيه بعدم اهتمام، وترى الآخر يبتسم لك ... مهنئا ربما !

من اللياقة اذن، مادمت على الهامش، ان تفيد من وضعك هذا . وهكذا استعرت مظهر الكبرياء والتذمر، وحاولت ان اجعل من صفاء فكري شيئا بعيدا عن التلاشي .

الآن، على سبيل المثال، انا احتاج ان اقرر ما أعمل بهذه الفرنكات الخمسين، انا، معها، فقير وغني . كل اموال العالم تجعل من الانسان فقيرا وغنيا في نفس الوقت . هذه قاعدة لعينة معروفة ؛ وانا لا اشذ عن القواعد الانسانية . يمكنني اذن ان اقسم الخمسين فرنكا على ثمن نصف (باكيت) فيكون الحاصل قريبا من الاربعين ... سبعا وثلاثين كما اظن . عند ذاك، وخلال سبعة وثلاثين يوما سأستطيع - دون تعب - أن اقتوت بقطعة الخبز هذه مع الماء . وهو ما معناه، ان ابقى جائعا طوال هذه الفترة، ولكن دون أن اقترب من الموت . غير اني اليوم على حال لا تقبل بمثل هذه التخريجات المنطقية الجوفاء ؛ لاني اريد ان اكل واشبع بالحدود التي تمنحني اياها هذه الفرنكات الطيبة . لذلك صممت بحبور، وانا امام ذراع الشاعر العارية، الممتدة عشوائيا الى لامكان، صممت ان يكون طعامي، الليلة، دجاجا مع بيرة مثلجة ... ثم بعض الحلويات . ليس هذا جنونا ... مادمت املك الثمن . الجنون هو احلام اليقظة : ان تحلم انك تأكل كذا وكذا وتشرب كذا وكذا تعقبه بكذا وكذا من الفواكه والحلويات، فيزداد جوعك ضراوة ويبدأ فكرك يفقد صفاءه . وهذه هي الطامة الكبرى . اذن، كما قلنا، قطعة دجاج ولتكن من الصدر، اعني اللحم الابيض، مع كأس بيرة باردة، تعقبها الحلويات . اعرف مطعما في الحي

اللاتيني يمنح مثل هذه العجائب بأقل من ثلاثين فرنكا ؛ انه مطعم (فري - تايم) للأكل السريع . اية تسمية غريبة !

تحركت ببطء اخذا (أفني هنري مارتان) . صرفت النظر هذا المساء عن الاغتسال بماء الينبوع . احببت هذه العملية منذ الازل . اقف امام حنفية الينبوع هنيهات . انه يقع على طرف من الحديقة الصغيرة التي يرتفع في جهة منها تمثال (لامارتين) . ثم اشمر عن ساعدي واخرج قنينة الماء المعدني الفارغة فاضعها جانبا على الارض . ابدأ بعد ذلك بغسل يدي وقسم من ذراعي، واتركهما جيدا . ثم املأ القنينة ماء زلالا واعيدها الى مكانها . بعد ذلك، اغسل وجهي طويلا وابلله بالماء، يالله ... كم تنعشني هذه القطرات البراقة ذات الرائحة العشبية الطرية !

هذه العملية الانعاشية قررت ان اصرف النظر عنها اليوم وانا في سبيلي الى الحي اللاتيني . لن استقل المترو من محطة (ري ده لابوم) القريبة . انها محطة سخيفة بتركيبها . موظفو المترو يجلسون على الجانبين كأنهم على استعداد لضبطك وأنت تخالف ! وأنا، بصراحة، لا أحب هذا . ليس هو الخجل، على كل حال ... انها هي الراحة التي انشدها حتى وأنا اخالف، الراحة في الاندساس بين اولئك المخالفين الكثر في محطة المترو الكبيرة (تروكاديرو) . ومن هذه المحطة، التي تأكدت ان تلفوناتها العامة تعمل كلها بانتظام، يمكنني ان اتجه رأسا الى محطة (دنفير روشرو) حيث ابدل الخط الى محطة (لوكسمبرك) . ادارة مريحة حقا، هي ادارة المترو الباريسي . المهم لديهم الا تبالغ اكثر مما يجب، وان تحذر الضجة والسكارى والمفتشين ... آنذاك يمكنك ان تصل الى أي مكان تشاء بأقصر وقت، حتى في قطارات الضواحي الباريسية ؛ الامر لايختلف . قمت بنزهات بديعة في حدائق (سو) والمنطقة المجاورة لها، الا ان الناس خارج باريس فضوليون بعض الشيء فتركت هذه النزهات ...

بعد (افني هنري مارتان) يتغير اسم الشارع الى (أفني جورج ماندبل) انهم ... على كل حال مالنا وهذا ... انهم يتذكرون رجالاتهم، هذا هو كل

شيء. وهم لايتركون فرصة تسنح دون ان يذكروا الآخرين بانهم يتذكرون رجالهم ؛ العظام واشباه العظام. وانا احب ذلك منهم. ولكن الاصرار عليه يزعجني ؛ لا ادري لماذا ...

كنت اسير بخطوات بطيئة، تاركا لافكاري التجوال ماشاء لها ذلك، مقتصدا بقواي في نفس الوقت. انه المنحى الصحي كما اعتقد. ان تمشي الهوينا وبصورة مستقيمة وليس على غير هدى. انا لا اسير على غير هدى. انا ضد الضالين في هذا العالم، ضد اصحاب الضلالة، سواء اكانوا على حق ام لا، انهم خطر على راحة الآخرين ؛ لانهم ينقلون اليهم ضلالتهم. لكن كل هذه الامور لاتهمني الان. خاصة وأنا اقترب من محطة (تروكاديرو) وسادخلها مع الداخلين، مسرعا مثلهم واضعا يدي في جيبي معطفي. الا انني لن استمر في اتباع رهط الداخلين الى نهاية المطاف، اذ سأنحرف عند اول مدخل نحو ممر ممنوع.

تسحرني هذه القطعة الحمراء (المرور ممنوع) لانها تعني المرور بدون تذكرة، ولست فاعلا شيئا لايفعله الكثيرون. اعوذ بالله. انا مثل بقية المخالفين الباريسيين. لا اكثر ولا أقل. هم يجتازون الممر الممنوع وأنا الاحقهم، وهكذا نصل - سعداء - رصيف القطار دون ان ندفع ثمن التذكرة. اعني دون ان نضع التذكرة في الآلة التي تسمح لنا بالمرور من بعد ذلك، يالللمهانة ! يضعون الآت في كل مكان تتحكم في مصائرنا. هذا هو أخر الزمان.

في المترو، اتخافى ماامكن في زاوية من العربة، بعيدا عن العيون. انهم في الحقيقة، لايهتمون بك، هؤلاء الجالسين معك. ولكنهم يقتلونك فحصا بنظرات ثاقبة. كأنك الوحيد الذي يرتدي معطفا أسود في شهر تموز. وهم لن يصدقوا او يأخذوا بالاعتبار اية حجة تدلي بها اليهم. ولن يقبلوا اي عذر. المهم عندهم، وبالدرجة الأولى، ان يحتقروك ... ان يظهروا لك احتقارهم الصامت. حسنا، انا لن اتمرد، مثلما يفعل بعض الزملاء. انا أواجههم بموقف بارد شائك، يحوطه الغموض بحيث لايمكنهم ان يعرفوا اكانوا محقين بعملهم

هذا ام لا . وأنا أعمل ذلك بصفاء فكر، زيادة في الدقة .

بعد ذلك، خلال الرحلة، تأتيك قضية تبديل القطار من أجل تغيير الاتجاه، وهذه هي اسخف الضرورات التي يجب ان ننحني لها . وانا سأنحني لها بالتأكيد، ولكن ليس باقتناع . أقول فقط، ليس باقتناع .

وسخافة هذه الضرورة غير المقنعة، لانعادلها الا سخافة اخرى هي وجوب الاحتفاظ بالتذكرة وابرازها عند المغادرة . كيف يمكن ان يفهم هؤلاء الناس ان ليس من المنطق في شيء ان تطلب من شخص دخل المترو بدون تذكرة، ان يبرزها عند الخروج ؟

لذلك اضطررت، من باب تقديم البرهان فقط على سخف منطقهم، ان اقوم بحركة معقدة لاجتياز العمود الحديدي .

كانت الساعة حوالي الثامنة والشمس تملأ السماء، واشجار حديقة (لكسمبرك) مشتعلة الرؤوس بحمرة نارية ... عشقت هذه الحديقة ... هذا الاتساع الاخضر، اول ماجئت باريس، ثم تغلغل حبها في قلبي بعد ذلك، حين تنزهنا سوية بين الاشجار السامقة وجلسنا على حافة الحوض ذي الاسماك . ماؤه ازرق مخضوضر، تسبح فيه تلك السمكات الحمراء واغصان الشجر متدلية حولنا، والتمثال يمد ذراعه البيضاء . ولكم كان يحلو لنا ان نضيع ماشين هنا وهناك !

الا ان الوقت لن يسمح لي اليوم، وانا على مبعدة امتار من الدجاج والبيرة والحلويات، الا بمسيرة قصيرة حول مقصورات التلفون الزجاجية الثلاث . شيء رائع، غاية في الروعة، هذه المقصورات ... تجمع بين الدقة في التركيب ومتانة العمل . لم تتعطل تلفوناتها مطلقا ؛ شيء مذهل . اما تلك الآلة التعيسة الموضوعة في ساحة (ادموند روستان) القريبة، فحدث عنها ولاحرج . ومن الخير لمن ينتظر نداء ان ينساها تماما .

أمام مطعم (فري - تايم) للأكل السريع . رقم 33 بولفار (سان ميشيل) توقفت برهة اتأمل الداخلين والخارجين والجالسين على الجهتين

وصفوف المنتظرين أمام محلات البيع . تلمست الورقة النقدية فوجدتها لاتزال مبللة قليلا . لن يعترض ...

- هي بيبير ...

التفت غاضبا ؛ كنت غاضبا حقا . كان هو ذلك الرقيع (ارمان) . مكدي باريسي عتيق جدا بحيث لاتعرف لماذا لايموت ... حييته باشمئزاز . كان يعرفني بالطبع . لا اتذكر متى اعطيته زجاجة خمر . نسيت كل مايخصها ولم ينسها هو . السخيف ؛ تراه يعترف لك بالجميل بشكل مزعج ...

- كيف حالك ؟

شكرته ببزة رأس ...

- لم ترك منذ زمن ، ماذا تعمل ؟

هززت رأسي مرة أخرى ، كانت رائحته مريعة . استمر ...

- ماذا حل بك ؟ اجائع هكذا بحيث لاتستطيع الكلام ؟

ابتسمت باشمئزاز . هتف فجأة :

- اول امس ... اتعلم ... كنا جماعة على (السين) ... اناو ...

- لايهمني ذلك .

- انتظر ، كلا : انه يهمك ، لقد سمعنا تلفونا يرن من بعيد . اترى ؟ تلفون يرن من بعيد ... فتذكرناك ...

كنت خافق القلب وأنا اتركه مبتعدا بسرعة .

- هي بيبير ... اسمع أيها العراقي ... لا تغضب ... سأعيد اليك يوما قنينتك اللعينة ... كانت خمرا رديئة على كل حال . اسمع لم التفت بالتأكيد . كنت مضطربا ، اسير ببطء نحو ساحة (السوربون) . لم التفت لارى هذا العجوز الذي اراد ان يهينني . انه ، والكل معه ، لايستحق التفاتة عطف او شفقة ... ماذا يستطيع ان يفهم وهو في مثل هذا العمر ... في مثل هذا التردي الفكري والاخلاقي ؟؟ انه ديك هرم غبي . كلا انا لا اريد الانتقام منه ، انه افضل من ديك طبعا ، ولكنه يشرب اسوا من سمكة . وهو يخلط الجد بالهزل

لغير سبب . يخلط كل شيء في الحقيقة ويظن ذلك رؤيا خاصة به وحده . لعله اراد، من يدري، ان يقول لي انني عزيز عليه وعلى بقية الزملاء بدرجة انهم تذكروننى بحادثة لها علاقة بحياتي . هذا هو كل شيء، اذا امكن ان يقال ببساطة .

كانت ساحة (السوربون) مزدحمة . فاستدرت نحو شارع (شامبوليون) الصغير، الرقيق . اسير فيه برفق، واحب كل حجارة وزاوية وباب فيه، شارع فريد من نوعه، يخلف فراغا في حياة من يغادره، كنت آتي الى دور السينما الصغيرة المتراصة على أحد جوانبه . كان ذلك عصرا ذهبيا غريبا في قدمه . تأكل جيدا ؛ واثناء الوجبة تختار فيلما لتشاهده بعد ذلك، دون تعقيد . تدفع نقودا وتدخل السينما لتستمتع بمشاهدة فيلم يهز النفس هزا، حتى يمكن ان يبكيك . البكاء تأثرا من فيلم سينمائي ... من صور تتلاحق عن اناس لانعرفهم . اليس هذا ترفا ؟ ولكن البعض يقدر عليه ...

عدت الى (بولفار سان - ميشيل) من الجهة الاخرى، فلم اجد العجوز موجودا . هذه المرة لم اتلكأ بل دخلت مطعم (فري - تايم) للأكل السريع ووقفت، مثل بقية الناس، في اخر صف المنتظرين . كنت جائعا، جوع الذئاب، بدا لي من تحسسي للورقة النقدية . انها جفت تقريبا، حاولت ان اجمع اثمان طلباتي الا انني فشلت . ضيعتني هذه الكسور اللعينة التي يضيفونها الى الرقم الصحيح، يظنونك غبيا لان 95 / 7 فرنكا هي ليست ثمانية فرنكات ولهذا تندفع كالمخبول لشراء البضاعة !

ازعجني، وأنا اقترب من البائعة الصغيرة، هذا الانطباع بالخوف الذي بان على وجهها وهي تنصت الي، كأنها كانت هي الدجاجة التي طلبتها لعشائي ! اخرجت لها الورقة النقدية الندية، وقدمتها لها بما استطيع من لطف، فازداد خوفها . ما هذا ؟

امسكت بالصينية الخشبية، على كل حال، وحملت طعامي متعجلا خشية ان اصاب بعدوى الخوف المجاني هذا ...

كنت، اضافة لذلك، مصدوما بالرقم الذي ظهر على الرقعة المضيئة الحمراء 31/65 فرنكا !

سرقة واضحة لاتحتاج الى شهود اوبراهين. كدت اسف على قراري بالعشاء هنا، الا اني ابعدت هذا الاسف بسرعة. كنت قد نويت ان اتمتع بوجبتي الاستثنائية هذه كما يجب ...

لقيت في زاوية بعيدة مائدة فارغة لاربعة اشخاص فسعيت اليها. مررت بسلم يؤدي الى الطابق الاسفل حيث، كما اعرف جيدا، المغاسل والتلفون. جلست الى المائدة ووضعت الصينية امامي. كنت الهث قليلا وبعض الانفعال يساورني. كان المطعم مزدحما بكثير من الشبان والفتيات. سواح كما اعتقد ياتون من كل انحاء الدنيا. لاعمل لهم غير السفر وقضاء الوقت.

اخفيت بعناية النقود المعدنية التي اعادتها لي تلك البائعة السخيفة. كانت لفافة الدجاج انيقة حقا، يستقر قربها كأس البيرة وبجانبه الحلويات ديليس ده بوم ... حلويات التفاح ...

كنت يابس الفم فامسكت بالكأس ورفعته. اردت ان ارشف منه رشفة واحدة كما يفعل البشر هنا، تجرعت جرعة كبيرة اتت على نصفه تقريبا. احسست بالبرودة في كل انحاء جسمي وتراخت اعصابي حالا ... بداية حسنة ...

فتحت اللفافة وقسمت قطعة الخبز المحشوة بالدجاج الى قسمين. شعرت بحرارة الخبز الابيض الذي انتشرت عليه حبات السمسم. قضمت بعد ذلك قضمة كبيرة فاختلط في فمي لحم الدجاج اللين بقطع الخس والطماطة والخردل. تنفست بعمق، ثم تناولت كأس البيرة فجرعت منه جرعة كبيرة اخرى. ما الذها ! لا اظنني وجدتها لذيذة هكذا منذ سنوات !

ـ اتسمح ؟

كان شيخا سمينا مع امرأته، لايرتدي غير قميص خفيف مزركش. هززت له رأسي. كانت مجاملة في غير محلها ؛ فالمائدة ليست لي على كل حال،

ويمكنهما ان يجلسا دون استئذان . حتى دون ان ينظرا الي ... ان امكن . كانا اميركيين كما خمنت ، يتكلمان الانكليزية بطريقة خاصة غير مفهومة ابدا . رأيتهما بعد ذلك يترددان في الجلوس ؛ ورأيت المرأة تبحث بعينيها دون جدوى ، عن محل اخر . لن يهمني الامر وسأكل طعامي كانهما غير موجودين .

الا انهما جلسا اخيرا ؛ وخيل الي ان نظرات المرأة كانت غريبة وانها اغلقت انفها - بشكل خفي - بأصبعيها ؛ ما اعجب هذا !

كيف ستتناول طعامها ان لم تعجبها رائحة المحل ؟ ام لعلها ... من يدري ، كل شيء ممكن مع هؤلاء السواح ...

وضعت عيني فيما بين يدي وركزت انتباهي على الطعام اللذيذ . كانا يتهامسان ويرفعان طعامهما ويخفضانه ، ثم يتهامسان مرة اخرى ويعودان الى رصف الطعام على المائدة . شعرت برأسي يدور قليلا . كنت آكل دون اهتمام باحد وبأكثر ما استطيع من الجد . ترى هل شربت كثيرا من البيرة على معدة فارغة منذ ايام ؟ وماذا يهم اخر الامر ...

كان الشيخ ذا وجه حليق احمر ، مليئا لحما وصحة ؛ وعيناه فاقعتي الزرقة التقت نظراتنا فجأة . توقف وهو يمسك بطعامه ، ثم ... ثم سألني بالفرنسية :

- عفوا ياسيدي ... هل يسمون لحيتك هذه بالفرنسية ... فلفلا وملحا؟

استغربت . تملكني استغراب حقيقي . لم يبد لي احمق بهذه الدرجة ...

- اذا كنت تريد الدقة ياسيدي ، فأنها بالاحرى ملح أكثر منها فلفلا .

فانفجر بضحكة عالية كلها مرح وغبطة وسعادة ومد ذراعه بغتة .

- انا ويسكر ، وهذه زوجتي ، نحن اميركيان ، نزور فرنسا في شهر تموز من كل سنة تقريبا .

صافحته وبقيت ساكتا ، آكل بهدوء ولكن دون ان احس بطعم الأكل ، اللعنة .

- اراهن انك من اسبانيا .

- كلا .

- زوجتي هنا تقول انك قد تكون بغير عمل .

كان رأسي يدور وشعرت بحرج :

- هذا صحيح .

- آه ... انت اسباني اذن ؟

عاد يأكل . كانت في عينيه الانيستين الباسمتين، بادرة غامضة من التفاهم والتعاطف والاخلاص . وكان يمضغ طعامه سعيدا . اهي البيرة، مرة اخرى ؟

- كلا ياسيدي . انا من العراق .

- آه ... العراق !

بلع لقمته وشرب من كأسه .

- بلاد مابين النهرين ؟ ماذا تعمل هنا ياصاحبي ؟

شربت انا ايضا ماتبقى في قعر كأسي .

- لا اعمل شيئا خاصا . انا هنا، في الحقيقة، منذ سنوات وسنوات ... انتظر .

- وهل حالك على مايرام ؟

كانت زوجته تأكل بصمت .

- كما تراني

- كيف تعيش ؟ اسمح لي فضولي هذا .

- أعيش ؟؟ أنا على هامش الزمن اتحاشى المكان، وعلى هامش المكان اتحاشى الزمن، اترى ؟ وهل تظن هذه حياة او عيشا سويا ؟

- لا افهمك بسهولة ياصاحبي، ولم كل هذا التعقيد ؟

كنت منتشيا ومسرورا لأنه لا يفهمني بسهولة . وكنت في غاية الجد :

- اعيش هكذا منذ سنوات كما قلت لك . لقد جئت لابقى شهرا فبقيت سنينا لاتنتهي .

- أأنت وحيد ؟ اليس لك اهل او اقارب ؟

– آه ... هذا شيء اخر . لقد اتصلت بي زوجتي تلفونيا منذ ... في الحقيقة ... منذ وقت طويل ...

كنت اتعثر بعض الشيء في كلامي ...

– هذا حسن . ولكن هذا شيء حسن جدا . والان ؟

– الان ؟ لا احد يتصل بي ... انا انتظر نداء اخر منها ...

– حسن جدا . نداء اخر ... هيه ؟

كان يتكلم بفم محشو بالطعام ...

– نعم . قالت لي انها ستخابر مرة اخرى . اتظنها ستخابر ؟

– لم لا ؟ لم لا ؟ ما المانع ؟

– هذا ما اظن انا الآخر . المشكلة ...

توقفت قليلا .

في ذلك المساء الخريفي الحزين ، ماقبل التاريخ ، كنت جالسا الى مكتبي اطالع ، حين رن جرس التلفون رنينا خاصا . كانت هي على الجانب الآخر . عرفت صوتها رغم بعد المسافة واضطراب حالي . سألتني أأعرفها ، فكدت ابكي ، ثم سألتني عن ابنائنا وعما جرى لهم وهل انا بخير وهل اتذكرها . حدثتها ، مرتجفا ، عن وضعي الجديد وعن الحياة التعيسة بعدها وسألتها اين هي الآن . لم تجب . وعدتني ان تخابر مرة ثانية . كان صوتها يخفي الكثير من رنات البكاء . وهكذا ، منذ ذلك الوقت القديم ، انتظر نداءها . بعت كل شيء كي ابقى هنا ، ولم أسف . لكني شقيت حين طردوني من الشقة وقطعوا خط الهاتف ...

– ما المشكلة ؟ لابد ان تتصل بك مرة اخرى .

– هذا صحيح ...

– لاتقلق . لاتقلق ابدا ياصاحبي . كل جيدا واغتسل ونم طويلا ولاتقلق . اهي في بلدك الآن ؟

– كلا .

– اه ... هي في فرنسا اذن ، كما اخمن ؟

- كلا .

- اراهن انك تعبث معي .

كان الصوت صوتها بالتأكيد . قد اخطيء بكل شيء ، الا في معرفة صوتها .

- كلا ، انا لا اعبث ، ولكن هل تعتقد ياسيدي انني يجب ان اكف عن الانتظار لان زوجتي توفيت قبل ان اتي الى فرنسا ؟؟

توقف عن الأكل . توقف الاثنان عن الاكل ...

- الم تقل انها خابرتك ؟

- نعم .

- كيف يمكن اذن ... اتعني انها كانت ... اعني ... كيف يمكن ؟؟

اردت ان اقول له ان الأمكان او عدم الامكان لا يدخل دائما في صميم حياتنا ، لان مايحدث للبشر ليس من صنع ايديهم على الدوام ، فهو بالاحرى لايخضع لمنطقهم . وانا ، لذلك ، لن اتراجع عن انتظاري لندائها ... الا انهما ، الاثنين ، هبا دفعة واحدة كمن لسعته افعى ، وتركا نصف طعامهما على المائدة ، منصرفين بسرعة لاداعي لها وقبل ان يسمعا بقية كلامي . كنت دائخا بعض الشيء وانا اتابعهما بنظري يختفيان ...

اضطررت ان اجمع ماتبقى من الطعام في كيس كبير احمله معي ؛ كان زادًا مباركا لايام الجوع المقبلة ، ولم يكن من التعقل في شيء ان اتركه ليرمى في سلال الزبل ...

خرجت غير مستاء من مطعم (فري ـ تايم) للأكل . هذه المطاعم لاتخلو من بعض الاكلات المناسبة ومن الرفقة الطيبة احيانا ؛ انما يجب الحذر عند اختيار الوجبة ...

انتوني - تموز 1985

الفهـــرس

المقدمة 7
موعد النار 41
غرباء 55
الطريق إلى المدينة 67
الصمت واللصوص 83
الغراب 95
القنديل المنطفىء 107
أمسية خريف 115
التنور 127
الدملة 135
العيون الخضر 143
همس مبهم 157
الأزهار 165
م.أ.ر.ع.س. 171
ذاك النداء 185

صدر في سلسلة "عيون المعاصرة"

محمود المسعدي
حدث أبو هريرة قال...
تقديم توفيق بكار

الطيب صالح
موسم الهجرة إلى الشمال
تقديم توفيق بكار

حنا مينه
الياطر
تقديم رشيد الضعيف

أميل حبيبي
المتشائل
تقديم توفيق بكار

عز الدين المدني
من حكايات هذا الزمان
تقديم سير العبادي

عبد الرحمان منيف
شرق المتوسط
تقديم حسين الواد

مصطفى الفارسي وتيجاني زليلة
الطوفان
تقديم عبد الفتاح ابراهم

عمر بن سالم
عشتاروت
تقديم محمد رضا الكافي

عبد القادر بن الشيخ
ونصيبي من الأفق
تقديم حسن الصادق الأسود

محمد المويلحي
حديث عيسى بن هشام
تقديم محمود طرشونة

محمود درويش
مختارات شعرية
تقديم توفيق بكار

فرج الحوار
الموت والبحر والجرذ
تقديم عبد الفتاح ابراهم

جبران خليل جبران
النبي
تقديم وترجمة د. ثروت عكاشة

الطيب صالح
مريود
تقديم رجاء النقاش

يوسف ادريس
مختارات قصصية
تقديم حسين الواد

صنع الله ابراهيم
اللجنة
تقديم حسن الصادق الأسود

البشير خريف
الدقلة في عراجينها
تقديم الطيب صالح

علياء التابعي
زهرة الصبّار
تقديم هشام الريمي

جمال الغيطاني
الزيني بركات
تقديم فيصل دراج

«موعد النار»! كان في الأصل عنوان إحدى القصص فتسمّت به المجموعة كلها في طبعتها التونسية هذه. وهو أبلغ ما قد تنعت به من العناوين إذ ليس كالنار اسما جامعا لمعاني نصوصها. فلنا معها في كل واحد منها موعد نلقاها فيه على حال من الأحوال : رصاصا يطلق وأرواحا تزهق لحقد يتفجر أو جنس يفور، أو لهبا ما من جحيم الحياة... هذا ما تحكيه القصص وتنوّع فيه تنويعا فإن هي إلا تصاريف شتّى لمعنى النار في العراق من قبل الثورة ومن بعد.

فؤاد التكرلي : ولد في بغداد عام 1927 وأنهى دراسته فيها. اشتغل في وزارة العدل العراقية قاضيا في مختلف صنوف المحاكم. نشر أولى أقاصيصه في بداية الخمسينات في المجلات البيروتية. نشر مجموعته القصصية «الوجه الآخر» عام 1960 وأعيد طبعها عدة مرات. وترجمت إلى عديد اللغات.
نشر روايته «الرجع البعيد» عام 1980 وترجمت إلى الفرنسية.
يقيم حاليا في تونس.

ISBN 9973-703-12-x (Ed. complète)
ISBN 9973-703-15-4 (N° du volume)